مصادر التراث العربي

في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم

تأليف

الدكتور عمر الدقاق

الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٩٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ان الأمة الحيـة لا تستطيع أن تتنكر لجذورهـا وتنسلخ عن ماضيهـا ، لأن حاضرها إنما هو استمرار لتطورها ، وامتداد لحضارتها ، وتوكيد لأصالتها وقـد كانت الكلمة المكتوبة منذ القـدم سجلاً لتراث الأمم ووعاء لثقافتهـا ، ومرآة لآمالها ومطامحها ، وترجماناً عن مشاعرها وأفكارها ·

لقـد ظلت حواضر العـالم العربي منارات إشعاع في العصور الوسطى ، وكانت شعلة الحضارة تنتقل من بلد إلى بـلد ، وتتوهـج في مكـة ودمشق وبغداد وحلب وقرطبة والقاهرة .. لكنها في كل بلد كانت تحصل على زيت جديد يمدها بنسغ الحياة على مر الزمان .

وإن هذه الأمة الحية ، إلى جانب ما قامت به من تحمل التبعات المادية في حفظ كيانهـا وحماية حقيقتهـا في صـد موجات الغزو الخارجي من الروم والمغول والصليبيين والأتراك والاوربيين . . . وما تجهد فيـه اليـوم من تصد

للغزاة الاستعماريين والصهيونيين صوناً لكرامتها وحفظاً لوجودها . . . لا بد لها كذلك ، في سبيل تثبيت ذاتها والابقاء على شخصيتها من أن تحمل بأمانة واخلاص ، تبعات معنوية جليلة في حفظ تراثها وصون ذخائره ونفائسه . وحسبنا في بيان أهمية هذا التراث الحافل أنه باللغة العربية العزيزة ، رابطة كياننا ، وعماد قوميتنا ، وقوام شخصيتنا ، وركن ثقافتنا .

وما هذا الكتاب إلا دلو بين الدلاء ، أحاول فيه أن أرصد عيون المصادر والمراجع عند العرب ، من كتب ومصنفات في الشعر والأدب والتراجم واللغة والمعاجم ، لعلي أستطيع فيه أن أجلو تياراً غزيراً في خضم حضارتنا العريقة .

والله ولي التوفيق .

جامعة حلب

ايلول ١٩٧١ عمر الدقاق

المدخل

حركة التدوين والتأليف

لم يكن للعرب في فترة ما قبل الاسلام ثقافة مدونة وعلوم مسجلة ، فقد غلبت عليهم البداوة ، واستغرق حياتهم التنقل ، ففشت فيهم الأمية ، ولم يتركوا خلال هذه الحقبة المديدة الغامضة من فجر حياتهم سوى نقوش قليلة تنبيء عما كان لهم من دور حضاري . حتى إن هذه النقوش لم تكن متوفرة إلا في بعض المناطق العربية كجنوبي جزيرة العرب وشماليها حيث توجد الأحجار والصخور ، على حين كان باطن الجزيرة واكثر ربوعها سهوباً وصحارى لم تسعف سكانها العرب في ترك مياسمهم على الأرض التي عاشوا فيها أحقاباً مديدة .

على أن العرب عرفوا أنماطاً من المعارف والعلوم البسيطة قبل ظهور الاسلام ، مما يتصل بالأنساب والطب والأنواء والقيافة والفراسة ، واكثرها يقوم على الممارسة والخبرة اكثر مما يقوم على التحليل والاستقصاء والبحث المنظم . وإلى مثل ذلك يشير ابن خلدون في مقدمته بقوله : « وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثة عن مشايخ الحي وعجائزه . وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على

قانون طبيعي » . ومثل هذا يقال فيما ورد عنهم من الكلام في الأنواء والسماء ..

إن السمات الحقيقية لحياة العرب العقلية في العصر الجاهلي تتجلى قبل كل شيء في اللغة والشعر والقصص والأمثال . وما من ريب في أنه كان لبعض قبائل العرب نصيب أوفى من التحضر المادي في المناطق التي كانت تجاور بلاد الروم والفرس وبخاصة دولة الغساسنة ودولة المناذرة . كما أنه كان لبعض القبائل أيضاً حظ أكبر من الالمام بالكتابة والحسبة مما كانت تقتضيه العلاقات التجارية والدينية والاجتماعية ، وقد عرفت قريش بهذا المظهر في مكة . وروي في سيرة الرسول أنه عليه السلام كان قد ارتضى فدية من أسرى المشركين في اعقاب وقعة بدر ان يعلم كل واحد منهم عشرة من شبان المسلمين . وتذكر كتب التاريخ الاسلامي أنه كان من بين صحابة النبي أناس يجيدون الكتابة ، وان محمداً أسند إلى بعضهم تسجيل الوحي . كما تشير الأحاديث النبوية الى مثل هؤلاء الذين كانوا يدونون بعض أقوال النبي وشروحه بصورة طوعية استزادة من المعرفة والتقوى ، من مثل قول النبي : « من كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه » .

وأغلب الظن أن العرب لم يعرفوا في ذلك الزمان الغابر غير كتب الدين ، بدليل اطلاق تعبير « أهل الكتاب » في القرآن الكريم على أصحاب الديانات السماوية الأخرى غير الاسلام .

تدوين القرآن :

لقد كان القرآن الكريم فتحاً جديداً ورائعاً ، لا في تاريخ العقيدة فحسب ، وإنما في تاريخ المعرفة الانسانية كلها « فهو قد كرم العلم والعلماء ، وأقسم في محكم آياته بالكتاب المسطور ، وبالقلم وما يسطرون [1] » وكان القرآن الكريم أول نص عربي كامل اتخذ شكل كتاب .

نزل القرآن منجماً في نحو ثلاث وعشرين سنة . وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزّل من الآيات على سعف النخل والرقاع والعظام وغيرها ..

وبعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه قامت حروب الردة وقتل فيها اكثر القراء من الصحابة ، وبخاصة في يوم اليمامة . وقد هال هذا الأمر عمر ابن الخطاب فذهب إلى الخليفة أبي بكر وقال له : « إن القتل قد كثر واستحرّ بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء في المواطن كلها ، وإني أرى أن تجمع القرآن » .

فأمر أبو بكر زيد بن ثابت أحد كبار الصحابة العالمين فجمعه من الرقاع والعسب واللخاف [2] ومن صدور الحافظين ، وقد ضم أبو بكر الى زيد بن ثابت سالمًا مولى أبي حذيفة ليعاونه في جمع القرآن على أن يقوم زيد

---

(١) عبد الستار الحلوجي : مجلة الكتاب العربي ، اكتوبر ١٩٧٠

(١) العسب : جريد النخل ، واللخاف : حجارة بيض رقاق .

بتدوينه . وقد روي عن زيد قوله : « فأمرني أبو بكر فكتبته في قطع الأديم » .

وقد كان الجمع في هذه المرة من غير ترتيب للسور ، وحفظت هذه الصحف عند أبي بكر ، ثم عند عمر حتى مات ، فحفظت عند ابنته حفصة ،

أما عملية التدوين الثانية فكانت في عهد عثمان بن عفان ، فقد أقلق بعض أصحابه وأعوانه وفي مقدمتهم حذيفة بن اليمان ما رأوه من اختلاف الناس في قراءة القرآن ، وقد قرّ رأي عثمان على تدوين مصحف موحد ومعتمد ، تلافياً لما قد يجر اليه تعدد النصوص واختلاف القراءة من عواقب وخيمة ، وهكذا استعاد عثمان من حفصة ما كان محفوظاً لديها من صحف الأديم التي كانت قد دونت في عهد أبي بكر ، ثم أمر الصحابة والحفاظ وفي طليعتهم زيد بن ثابت أيضاً بنسخ الآيات في سجل واحد عرف بالمصحف ، وقاموا بترتيب السور في هذا المصحف للمرة الأولى ، وهو الترتيب الذي أصبح سائداً ، وقد دون كتبة عثمان من هذا المصحف بعد تمحيص وتنسيق بضع نسخ ، والمشهور أنها أربع ، فوزعت على الأمصار (١) ، وأصبحت هي المعتمدة ، ثم أحرق ما عداها من الرقاع .

---

(١) يرى بعض العلماء أن أحد المصاحف الأربعة الرائدة موجود في مدينة طشقند الواقعة في آسيا الوسطى ، وعاصمة جمهورية اوزبكستان السوفييتية . وصفحات هذا المصحف من القطع الكبير ، ومكتوبة بالخط الكوفي ونحن نستبعد هذا الرأي ، لأن هذا

وهكذا يتبين أن القصد من التدوين الأول جمع نصوص القرآن وحفظها من الضياع ، أما التدوين الثاني فكان يهدف الى جمع الناس على وجه واحد في قراءة القرآن خشية ما قد يقع بينهم من خلاف مصدره التحريف الذي يفتح الباب للزيادة أو النقصان في كلام الله وما قد يجر اليه ذلك من اختلاف في المعاني ، وهذان عملان جليلان خالدان .

على أنه من الملاحظ أن التدوين القرآني في المرتين ، بل حتى قبل ذلك بأمد ـ أي زمن نزول الوحي على رسول الله ـ قد شابه كثير من الأخطاء الاملائية ، أي من حيث هجاء الألفاظ ورسمها ، ويرجع ذلك الى أمرين :

المصحف وأقدم المصاحف الموجودة حالياً في متاحف متفرقة من العالم والمكتوبة على رق الغزال لا يعتقد أن تكون هي المصاحف التي أوعز بكتابتها عثمان لأنها مكتوبة بالخط الكوفي ، على حين أن الكوفة لم تؤسس إلا في سنة ١٦ ـ ١٧ هجرية أي أنها متأخرة عن عهد عثمان .

ومن جهة أخرى فالخط الذي كان سائداً في العهد الراشدي كان خطاً ليناً . وعند تدوين القرآن كان بعض كتاب الوحي أحياء مثل عبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت ، ولهذا تم تدوين القرآن بخط الحجازيين السائد وليس بالكوفي.

وثمة أوراق ثمينة بين أيدينا اليوم مؤرخة سنة ٢٢ هـ ، وهي مكتوبة بالخط اللين وهذا دليل آخر على أن الفترة التي ساد فيها الخط الكوفي إنما جاءت متأخرة . والكتابة اللينة هي التي انتشرت حتى وصلت الى المغرب ، والطريقة المغربية الحالية ما تزال محتفظة بسماتها الاولى .

أما الخط الثاني الذي نشأ بعد ذلك ونعني به الخط الكوفي فقد انتشر انتشاراً عظيماً . واذا لم تكن نسخة طشقند الفريدة واحدة من مصاحف عثمان فهي دون شك معدودة أقدم نسخة في العالم من القرآن .

أولهما قصور الكتبة أنفسهم في فن الكتابة وضعفهم في الاملاء ، وذلك لبداوتهم ، وشبه أميتهم ، ثم ندرة استخدامهم للكتابة بوجه عام من حيث هي وسيلة اتصال حضارية ، والأمر الثاني هو قصور الكتابة العربية نفسها في تلك الحقبة المبكرة من فجر الاسلام ، اذ لم تكن الحروف قد تمايز بعضها عن بعض في أشكال محددة ذات سمات واضحة المعالم ، بحيث ينتفي احتمال الالتباس فيها ، وأغلب الظن أن زيد بن ثابت قد تلافى كثيراً من هذه الأخطاء حين تصدى لمهمته الجليلة ، مهمة تجميع النص القرآني ، كما تلافى كثيراً غيرها عثمان ابن عفان في تدوين سجله الموحد الذي غدا المصحف المعتمد للمسلمين كافة .

ومع ذلك ، فحتى بعد توحيد عثمان للنص القرآني في مصحفه الإمام « أدى القصور في فن الكتابة العربية ، وبخاصة من حيث خلو الحروف من النقط وعدم ضبطها بالشكل ، الى ظهور التصحيف واللحن وقراءة الكلمة الواحدة على أكثر من وجه . وقد ظهر أثر ذلك في بعض القراءات وبخاصة فيما سمي بالشاذ منها . ولذا دعت الحاجة عندئذ الى نقط الحروف وشكلها منعاً للحن ، ودفعاً للاضطراب والبلبلة عندقراءة القرآن »(١) .

ولما كانت الحروف العربية في فجر الاسلام خالية من أي تشكيل أو تنقيط وخيف على أداء القرآن ـ الذي كتب في زمان عثمان على هذا النحو ـ من ان يتطرق اليه اللحن بعد تكاثر الأعاجم ، نهض أبو الأسود الدؤلي في

(١) احمد حسين صاوي : مجلة « الهلال » ، آذار (مارس) ١٩٧١

عهد معاوية بن أبي سفيان بضبط اواخر الكلم في المصاحف بالنقط ، جاعلاً علامة الفتحة نقطة من فوق الحرف ، والكسرة نقطة من تحته ، والضمة نقطة بين يديه .

على أن ابا الأسود قد حل بعض الأمر المعضل لا كله ، إذ بقي الكلام معرّضاً للتحريف ، والأداء محتملا اللحن ، نظراً لتشابه كثير من الحروف العربية في الرسم دون ان تمايز ، ومن هنا كان الالتباس واقعاً بين الحاء والخاء والراء و ـ الزاي و الصاد والضاد ...

والذي تصدى لهذا العمل الجليل ـ فيما يرجح ـ الحجاج بن يوسف الثقفي عامل عبد الملك بن مروان على العراق(٢) . فقد وكل هذا الاصلاح الى نصر بن عاصم الليثي المتوفى سنة ٩٠ هـ . فقام بوضع النقط أفراداً وأزواجاً، واضعاً للباء نقطة وللتاء اثنتين .. وهكذا ..

وحرصاً من العرب والمسلمين على سلامة اداء القرآن وفاقاً لقوله تعالى: « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » لم يكن ما ذكرناه هو التحسين الوحيد في كتابة المصحف ، فقد عمد العلماء بعد ذلك الى اجراء تحسين محدود رغبة في تيسير قراءة آياته وتعلمها لدى الناس ، من مثل إدخال أمور

---

(١) ثمة خلاف بين المؤرخين حول هذا الأمر ، فهو ينسب الى ابي الأسود تارة ، وتارة الى نصر بن عاصم أو ينسب الى الحسن البصري ويحيى بن معمر بتكليف من الحجاج.

تنظيمية لا تتناول جوهر النص ، كوضع علامات لرؤوس الآي ، ورموز لما اصطلح عليه بالأجزاء والأحزاب والأرباع ..

كما عرف المصحف طوراً آخر حين جنح النساخ والكتبة الى تسجيله بالخطوط التي تطورت اليها الكتابة العربية ، كالثلث والنسخ بدلاً من الخط الكوفي القديم ، أو الخط اللين الرائد الذي دونت به المصاحف الأولى .

وغني عن القول أن الله تعالى أنزل القرآن نصاً ملفوظاً ولم ينزله هجاء ورسماً مكتوباً ، وإنما الرسم والهجاء من وضع المخلوقين لصالح القرآن وقرائه ، ولهذا ليس ثمة ما يمنع اليوم من أن يعاد رسم القرآن وفق قواعد الإملاء الحديثة بحيث تتيسر تلاوته ويتسع انتشاره في هذا العصر ، وبخاصة بين أيدي الناشئة والمتعامين كيلا يتعثروا في قراءته وحفظه ويغدو لديهم غريبا عن مألوف ما يقرؤون ويكتبون في واقع حياتهم . إذ لا مجال للتمسك بطريقة معينة لكتابة الآيات كان قد سلكها أناس أجلاء ، ولكنهم لم يكونوا يعيشون في عصر ازدهار الكتابة والإملاء ، فاحتاج عملهم إلى مزيد من العناية والضبط في عصر تلا عصرهم ، ومن هنا فان القداسة لا تنحصر في رسم كلمات المصحف وإنما تتجلي في نطقه وعبارته واسلوبه ، وهذا سر إعجازه وخلوده ، وفيما نطمح اليه خير عميم على القرآن والاسلام والعرب .

وجملة القول إن القرآن ـ معجزة العرب ـ أول أثر في فجر الاسلام يحظى بالتدوين ويستأثر باهتمام الناس كافة .

تدوين الحديث :

كان القرن الأول الهجري ، وهو عهد الخلفاء الراشدين والأمويين حقبة تشكل الدولة وامتدادها وتوطيد دعائمها . وكانت الفتوح اهم ما استغرق حياة الدولة والرعية . أما العلوم والمعارف في ذلك العصر فقد استقطبها القرآن وتفسيره ، ثم الحديث وحفظه ، مما كان النواة الأولى للحياة العلمية الحافلة التي اضطربت بها العصور التالية في الحقبة العباسية .

وكان اكثر المعارف آنئذٍ يدور في هذا الفلك - فلك القرآن - ويتصل من قريب أو من بعيد بالدين الجديد ، وبخاصة اللغة والشعر ، وفي ذلك يقول أبو عمرو بن العلاء : « لعلم العربية هو الدين بعينه » . ومما ذكره ابو بكر الزبيدي[1] : « ولم تزل الأئمة من الصحابة الراشدين ومن تلاهم من التابعين ، يحضون على تعلم العربية وحفظها والرعاية لمعانيها . اذ هي من الدين بالمكان المعلوم ، فبها أنزل الله كتابه المهيمن على سائر كتبه ، وبها بلّغ رسوله عليه السلام وظائف طاعته وشرائع أمره ونهيه » .

على أن أكثر هذه المعارف في العصرين الراشدي والأموي كانت تتناقل شفاها ، سواء في ذلك الحديث النبوي والتفسير والسيرة والمغازي والشعر والقصص والأمثال . ولم يقيض لحركة التدوين الحافلة أن تبدأ إلا

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ، المقدمة

بعد انقضاء القرن الأول للهجرة وانتهاء عهد الفتوح ثم قيام الدولة العباسية واستقرارها . واذا استثنينا القرآن لم نقف على أثر مدون ذي بال قبل هذه الحقبة من حياة العرب والمسلمين . ويمكن القول إن باكورة حركة التدوين المباركة في العصر العباسي الأول قد تجلت في تدوين الحديث النبوي . وكان الرسول قد نهى عن تدوين شيء من كلامه خيفة اختلاط شيء منه بالقرآن بعد وفاته ووقوع رقاع الآيات الكريمة في أيد غير عالمة .

ويبدو أن هذا التوجيه الحكيم ظل سارياً حتى تنبه القوم الى خطر استمراره ، وقد هالهم أن كثيراً من الحفاظ قد قتلوا خلال الغزوات او حروب الردة او ماتوا بعد ذلك ، وأن أمداً غير قصير انقضى على وفاة النبي دون أن تدون أحاديثه ، مما أتاح لبعض ضعاف النفوس التزيد فيه ، أو تحريف بعض نصوصه أو اختراع بعضها الآخر .

وهكذا شمر العلماء عن ساعد الجد وانطلقوا يجمعون الحديث ويبحثون في ركامه ويتحرون الدقة في تمييز صحيحه من فاسده ، كل ذلك في سبيل تدوينه وحفظه ، وكانت بحق حركة تدوين ناشطة قل أن يوجد لها نظير عند سائر الأمم في الدأب والتقصي والتحقق ، وهذه الحركة المباركة كانت فاتحة عهد طويل زاهر في مضمار التصنيف والتأليف عند العرب .

وقد صاحب تدوين الحديث أو تبعه تدوين معارف أخرى ذات صلة

أيضاً بالاسلام وظهوره ، مثل سيرة الرسول ومغازيه ، ثم تاريخ العرب والمسلمين وسائر الامم القديمة ، ولم تلبث حركة التدوين حتى انتشرت وازدهرت فشملت الشعر والخطب والأمثال واللغة ، وهكذا كانت خدمة الدين وتفسير القرآن أول حافز في سبيل تدوين هذه المعارف والفنون . حتى إن تدوين الحديث النبوي بوسائله وطرائقه ومناهجه قد ترك ميسمه على سائر مناحي التأليف عند العرب وبخاصة في مجال الرواية ودراسة سلسلة الاسناد حول الرواة . ويبدو هذا التأثير واضحاً في طرائق تدوين اللغة وتصنيف المعاجم وفي تسجيل الشعر وتأليف المجموعات الشعرية وفي جمع أخبار العرب وأيامهم وما إلى ذلك من العلوم والمعارف التي انتفعت ايما انتفاع بهذا الضبط والاتقان .

وبوسعنا أن نتبين خلال هذه الحركة العلمية الدائبة مرحلتين متعاقبتين كانت الأولى فيها أساساً للثانية ، وهما مرحلة التدوين التي تقوم على الجمع والتقصي والتسجيل والرصد ثم مرحلة التصنيف والتأليف التي تناولت المواد المجموعة بالتنظيم والتنسيق والتبويب وبالتالي التحليل والاستنباط والمقارنة والابتكار، فكان الفقه والتشريع نتيجة لتدوين الحديث ، والمعاجم نتيجة لتدوين اللغة ، والنقد الأدبي نتيجة لجمع منظوم العرب ومنثورهم . . .

* * *

بواكير التأليف :

لعل بواكير المؤلفات العربية أخذت تظهر الى حيز الوجود حوالي

منتصف القرن الأول الهجري . فابن النديم يحدثنا بأن عبيد بن شرية الجرهمي وفد على معاوية ، فسأله هذا عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد .. فأجابه الى ما سأل ، فأمر معاوية ان يدون ذلك[1] . كما يحدثنا المسعودي ان معاوية كان « ينـام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد ، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد..»[2] ويروي ابن سعد ان عروة بن الزبير أحرق سنة ٦٣ هـ كتب فقه كانت له ، كما يروي أنه وضع عند احدهم حمل بعير من كتب ابن عباس[3] . ولعبد الله ابن عباس الصحابي ، المتوفى سنة ٦٨ هـ يعزى اول كتاب في غريب القرآن[4] ومما يشير الى ان نزعة التدوين والتأليف قديمـة عند العرب في فجر الاسلام ان عبد الله بن عمرو بن العاص كان يكتب كل ما يبلغه من احاديث رسول الله .. وكذلك كان الأمر بين علماء العربية الأوائل ، فكانت كتبهم عهدئذ بمثابة مدونات يسجلون فيها مادة علمهم ، ومعظمه كان يعتمد على سماعهم عـن الأعراب ، وقد روي أن أبا عمرو بن العلاء (٦٥ ـ ١٥٤ هـ) ملأت كتبه التي كتبها عن الأعراب الفصحاء بيتاً له الى قريب من السقف ، ثم انه تنسك فأحرقها كلها .

---

(١) الفهرست : (التجارية) ١٣٢ .
(٢) مروج الذهب : (باريس) ٥ : ٨ .
(٣) طبقات ابن سعد (ليون) ٥ : ١٣٣ ، ٢١٦ .
(٤) تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان ١ : ٣٣ ، المعجم العربي ، حسين نصار ١:٣٩

ولم تكن كتب هذه المرحلة ، خلال القرن الأول وأوائل الثاني ، سوى مباحث مفردة لا يتجاوز كل منها حدود المسألة التي يناقشها الى ما يتصل بها أو يدور حولها ، فكان الكتاب بمثابة فصل من فصول الكتب المتأخرة [١]

ولم تلبث حركة التأليف ان ازدهرت ازدهاراً رائعاً في اواخر القرن الثاني وطوال القرنين التاليين ، يدفعها ويعدها بأسباب الخصب والنماء إقامة صناعة الورق في بغداد ، ابتداء من عصر الرشيد وظهور طبقة جديدة في المجتمع العربي تعرف بطبقة الوراقين التي ينتمي اليها كثير من العلماء من امثال الجاحظ وابن النديم وياقوت .. وصناعة الوراقة كما يعرّفها ابن خلدون عملية « الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين » [٢] .

ولم تكن حوانيت الوراقة وأسواقها مجرد دور للنسخ وإنما كانت أماكن تجمع للعلماء والأدباء وملتقى فئات المثقفين ، بل كانت مراكز ثقافية حقيقية للنشاط الفكري ، ومستودعاً لكل ما كانت تبدعه القرائح المتفتحة والعقول المستنيرة في شتى فروع المعرفة . وتبعاً لذلك اتسعت الحياة العلمية وازداد الاقبال على الكتاب فازداد رواج المؤلفات وغزرت المخطوطات ، وصحب ذلك كله شيوع استعمال الورق وتكاثر الناسخين ، حتى شاع الميل الى اقتناء الكتب

---

(١) انظر تفصيل ذلك في مجلة الكتاب العربي ، اكتوبر ١٩٧٠ بقلم عبد الستار الحلوجي .

(٢) المقدمة (تحقيق علي عبد الواحد الوافي) ٢٦٢ .

فامتلأت الخزائن بالمصنفات . وقد شرع اولو الأمر في تكوين دور الكتب ورصد الأموال لها من خزانة الدولة كمكتبة بيت الحكمة التي أنشأها المأمون ومكتبة البرامكة التي كونها الفضل بن عيسى البرمكي في القرن الثاني ، ثم مكتبة على بن عيسى المنجم وابنه يحيى بن علي في القرن الثالث ، ومكتبة محمد بن يحيى الصولي في القرن الرابع .. وغير ذلك من الخزانات الرسمية والخاصة ، حتى غدا اقتناء الكتب وإنشاء الخزانات من علائم الجاه والظرف والرقي والتباهي . وقد نقل الجاحظ عن عيسى بن ماهان ان في مكتبة يحيى البرمكي ثلاث نسخ من كل كتاب . وعندما خرج اسحق الموصلي مع الرشيد حمل معه ما خف من كتبه فبلغ ثمانية عشر صندوقاً [1] .

هذا ما كان عليه الأمر في أواخر القرن الثاني . أما في القرون التالية فقد بلغت المكتبة العربية مدى هائلاً من الضخامة [2] ، فالصاحب بن عباد كان إذا ترحل اصطحب معه أربعين بعيراً محملة كتباً ، على حين أن ما عنده من الكتب كان يحتاج الى أن يحمل على أربعمئة بعير أو أكثر [3] . « وهذه الكتب كانت من الكثرة بحيث تعادل ما كان موجوداً في مكتبات اوربة مجتمعة ، وبلغت فهارسها عشرة مجلدات [4] » وقد عبر (وول ديورانت) عن

---

(١) معجم الأدباء : ياقوت ٦ : ٨

(٢) مجلة الكتاب العربي ، عدد اكتوبر ، عبد الستار الحلوجي

(٣) معجم الأدباء ٦ : ٢٥٩

(٤) مجلة الكتاب العربي ، عدد اكتوبر ، عبد الستار الحلوجي

روح ذلك العصر بقوله : [1] « لم يبلغ الشغف باقتناء الكتب في بلد آخر من بلاد العالم ـ اللهم إلا في بلاد الصين ـ ما بلغه في بلاد الاسلام في هذه القرون حين وصل الى ذروة حياته الثقافية ، وأن عدد العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الاسلامية من قرطبة إلى سمرقند لم يكونوا يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة » .

على أن ما يؤسف له كل الأسف أن الشطر الأكبر من تراثنا العلمي الحافل وثروتنا الأدبية الضخمة قد ضاع في غمار ما حل بالعالمين العربي والاسلامي من غزوات وحروب ، وفتن ومجاعات ، وحرائق وسرقات . . يضاف إلى ذلك أن القدامى أنفسهم كانوا في الزمن السالف قد درجوا على محو ما لديهم من على صفحات الكتب في بعض الأحيان ليعاودوا الكتابة في رقوقها بغية نسخ مؤلف جديد أو تدوين أمور أخرى ، وذلك بسبب ضآلة انتاج القراطيس من ورق البردي أو رقوق الجلد أو سعف النخل وارتفاع كلفتها في تلك العصور .

عصور الادب :

لقد تدفق التراث العربي الحافل خلال عهود مديدة كان يتراوح خلالها بين مد وجزر ، ونشاط وركود ، وتجديد وتقليد . ولا بد لنا من اتخاذ

---

(١) قصة الحضارة ١٣ : ١٧١

العصور التاريخية إطاراً لعهود العلوم والآداب والفنون حتى ندرك مسارها ونقف على حقيقة تطورها .

فالحقبة العباسية هي العصر الحقيقي للتدوين والتأليف ، وتعد أزهى الحقب العربية حضارة وثقافة ، فضلاً عن امتدادها خلال عهد طويل دام اكثر من خمسة قرون (١٣٢ ـ ٦٥٦) ، يمكننا أن نتبين فيه عدداً من العصور تبعاً للأحداث السياسية التي عاشت في ظلها الحركة العلمية والفكرية :

آ ـ العصر العباسي الأول ، ويبدأ من سنة قيام دولة بني العباس على انقاض دولة بني أمية سنة ١٣٢ هـ وينتهي بعد قرن من الزمان أي في سنة ٢٣٢ هـ سنة تولي المتوكل الخلافة . وهو العصر الذهبي في استقرار الحكم وهيبة الخلافة . وفيه ظهر عدد من العلماء الرواد في اللغة والنحو والفقه والتشريع كأبي عمرو بن العلاء والخليل وسيبويه والكسائي والأصمعي وعيسى بن عمر والفراء وأبي عبيدة وأبي زيد في اللغة والنحو ، والمفضل وحماد وأبي عمرو الشيباني وابن سلام وابن الأعرابي في رواية الشعر ونقده ، والشافعي وأبي حنيفة ومالك وابن حنبل في الفقه والتشريع ، وأبي العتاهية وبشار وأبي نواس وأبي تمام في الشعر وابن المقفع والجاحظ في النثر ... غير أن هذا الزاد العلمي الهام قد عبثت به الأيام فضاع جانب كبير منه ، شأنه في ذلك شأن الخطوات الرائدة في كل عصر .

ب ـ العصر العباسي الثاني ، وقد دام أيضاً زهاء قرن من الزمان (٢٣٢ ـ ٣٣٤) . فهو ينتهي في سنة تقلد البويهيين مقاليد الحكم في بغداد . وقد نشطت خلاله الحركة الأدبية نشاطاً ملحوظاً ، فازدهرت علوم العربية وظهر جيل من العلماء الكبار في الفقه والحديث مثل البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي والطبري والبغوي وعبد الله بن أبي داود السجستاني والحسن بن زكريا العدوي ويحيى بن محمد بن صاعد وأبي بكر بن مجاهد وأبي يعلى الموصلي .. يقابلهم ابن قتيبة وثعلب والمبرد في الأدب والأنباري وابن درستويه وابن دريد والزجاج والأخفش ونفطويه وابن الأزهر .. في اللغة والنحو ، والبحتري وابن الرومي ودعبل وابن المعتز في الشعر ، والكندي والفارابي والرازي في الفلسفة والطب والعلوم ..

حـ ـ العصر العباسي الثالث ، (٣٣٤ ـ ٤٤٧) وهو العصر الذي حكم خلالة البويهيون . وهو بحق أزهى العصور العربية حضارة ، ففيه بلغت الثقافة العربية أوج تفتحها واتسمت بالغنى والاتساع والتنوع . وقد عم هذا الازدهار أقطار المشرق والمغرب على السواء . انه عصر سيف الدولة والناصر والحكم ، عصر المتنبي وأبي فراس والمعري والرضي والمرتضى وابن هانيء وابن خالويه وأبي الفرج والقالي وابن فارس والأزهري والزبيدي والجوهري وقدامة وأبي حيان والصاحب وابن العميد والآمدي والعسكري والجرجاني والثعالبي والهمذاني ، وابن النديم والمسعودي وابن سينا والبيروني والخوارزمي ..

وقد غصت أبهاء المساجد وحلقات الدرس في هـذا العصر بطلاب العلم والمريدين ونشطت حركة تأليف الكتب ونسخها وعمرت المكتبات بآلاف المخطوطات . ويذكر المؤرخون أن مكتبة قرطبة كانت تضم نحواً من أربعمئة الف مجلد وأن عدد فهارس الدواوين والمجموعات الشعرية فيها أربعة وأربعون فهرساً .

د ـ العصر العباسي الرابع ، (٤٤٧ ـ ٦٥٦) وينحصر بين تسلط السلاجقة على بغداد وبين سقوط عاصمة الدولة العباسية آخر الأمر في أيدي التتار وزعيمهم هولاكو . وقد حفل هذا العصر بالاضطراب السياسي وكثرة الفتن والثورات والحروب ، وفي إبانه حدثت الغزوات الصليبية ، ثم اجتاح جنكيز خان القائد المغولي البلاد الاسلامية وكان عهده وعهـد هولاكو من بعده شؤماً على العلم ووبالاً على الحضارة الانسانية التي احتضنها العرب وحملوا شعلتها الوهاجة عدداً من القرون . وقد روي أن مياه دجلة جرت سوداً من كثرة ما ألقي فيها من الكتب والصحائف . ولم يعـد هناك من يرعى العلم ويشجع الشعراء ورجال الفكر والفن .

وممن نبغ في هذا العصر في الشعر ابن الفارض وابن مطروح والبهاء زهير والطغرائي وابن خفاجة وابن سهل وابن حمديس ، كما نبغ في اللغة والأدب التبريزي والحريري والجواليقي وابن الشجري والأنباري والعكبرى والزوزني وعبد القاهر والزمخشري والراغب الاصفهاني والميداني وابن بسام ،

وعرف في مضمار التاريخ والتراجم ابن عساكر وعز الدين بن الأثير والقفطي والسمعاني وياقوت ، وفي المعارف الفلسفية والفكرية ابن حزم والغزالي والشهرستاني وابن العربي وابن باجة وابن طفيل وابن رشد ...

* * *

وإذا تسقط بغداد ويطيح المغول بخلافتها تنتهي الحقبة العباسية لتبدأ حقبة أخرى تتسم بالانحطاط السياسي والضعف العلمي والحضاري . وكان الحكام في الغالب من غير العرب كالمغول والمماليك والأتراك . وفي ابان هذه الحقبة التي تمتد من سنة ٦٥٦ إلى ٩٢٣ هـ يتعرض الشرق العربي لحملة مغولية اخرى بزعامة تيمورلنك ثم لا يلبث العرب في اواخر هذا العصر ان يخرجوا من الأندلس .

وبعد ذلك يبدأ عهد آخر من الضعف والركود منذ دخول العثمانيين الى بلاد العرب سنة ٩٢٣ هـ حتى مجيء نابليون الى مصر سنة ١٢١٣ هـ .

وقد ظهر من الشعراء فى هذه الفترة البوصيرى وابن نباتة وصفي الدين الحلي .. وقلما نبغ سواهم في الشعر . أما التأليف فى اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا فقد كاد امره يقتصر على مصر والشام واتسم بمقدار من التقدم ؛ فكان من أبرز المصنفين في الأدب القلقشندي والنويري والأبشيهي وابن خلكان وفي التاريخ والجغرافيا ابن خلدون وابن العديم وابو الفداء والمقريزي

والقزويني وابن بطوطة ، وفي النحو واللغـة والمعاجم ابن مالك وابن هشام وابن آجروم وابن منظور والفيروز ابادي والسيوطي ...

وبعد ذلك تبزغ شمس النهضـة الحديثـة على بلاد العرب فاذا العـلوم والآداب تنطلق من جديد لتعيد سيرتها الأولى وتسير بالأمة العريقة قدماً في الإسهام في إغناء الحضارة الأنسانية .

مجموعات الشعر

★ ★ ★

الفصل الأول

رواية الشعر

إن المكتبة العربية العريقة بما حفلت به من كنوز المؤلفات خلال حقبة مديدة في التاريخ لتعد في طليعة المكتبات التي عرفتها الأمم . ومع ذلك فان ما بين أيدينا ليس إلا غيضاً من فيض . كما أننا لن نعرض في الفصول القادمة إلا إلى جانب يسير مما خلفه لنا الأجداد وضمن فلك العربية وآدابها فحسب . ومما يؤسف له أن شطراً كبيراً من تراثنا العلمي الحافل وثروتنا الأدبية الضخمة قد نسي أو ضاع وطواه العدم .

وقد روى ابن سلام في مقدمة كتابه « طبقات الشعراء » أن أبا عمرو ابن العلاء أحد الرواة الرواد كان يقول : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » . وذكر أيضاً عن عمر بن الخطاب قوله إن الشعر « كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو بلاد فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فألفَوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك

وذهب عنهم أكثره » كل ذلك يعني أن ما استطاع الرواة روايته وتدوينه كان نزراً يسيراً مما أبدعته قرائح العرب . على أن هذا النزر نفسه لم يسلم في معظمه أيضاً من الضياع . وتحدثنا كتب الأدب أن الرواة الأولين عنوا بجمع أشعار القبائل وأن أبا عمرو الشيباني وحده جمع شعر ثمانين قبيلة ، وأن أبا سعيد السكري جمع شعر خمس وعشرين قبيلة عدا ما جمعه الآخرون مثل الأصمعي وابن الأعرابي .. وإذا ما نظرنا إلى ما بين أيدينا من ذلك كله لم نقع إلا على مجموعة واحدة تتضمن أشعار هذيل . ومما ساعد على ضياع هذا الشطر من تراثنا أن الأمد طال عليه وهو يتناقل شفاهاً فلم يقيض له أن يدون في صحائف مكتوبة إلا بعد قرن أو أكثر من الزمان .

ومن هنا أيضاً أصبح المجال فسيحاً أمام بعض الرواة الذين راحوا يتزيدون في الشعر أو يخترعون قصائد معينة منه ثم ينسبونها إلى شعراء متقدمين . وهذا السبب نفسه أتاح لبعض رواة الحديث أيضاً أن يتزيدوا فيه . وقد عرف من أولئك الرواة بذلك حماد الرواية وخلف الأحمر ، وكانا من أقدر الناس على الرواية وأعلمهم بالشعر . وفي ذلك يقول ابن الأعرابي [1] « سمعت المفضل الضبي يقول : قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده ، فلا يصلح أبداً . فقيل له فكيف ذلك ، أيخطىء في روايته أو يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فان أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب . ولكنه رجل عالم بلغات العرب

(١) انظر معجم الأدباء ١٩ : ١٦٤ - ١٦٥ .

وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبّه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ » . ومن ذلك أيضاً أن الخليفة المهدي « قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها . ووصل المفضل بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روايته » [٢] . ومما ذكره ابن خلكان قول أبي زيد الأنصاري « حدثني خلف الأحمر قال : أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر ، فبخلوا عليّ به ، فكنت أعطيهم المنحول وآخذ الصحيح . ثم مرضت فقلت لهم ويلكم ، أنا تائب إلى الله ، هذا الشعر لي ، فلم يقبلوا مني فبقي منسوباً الى العرب لهذا السبب » .

والشعر العربي ــ في روايته وجمعه وتدوينه ــ كان محور كثير من العلوم والمعارف ، فهو يهم الأدباء والنقاد من الوجهة الفنية الجمالية ، كما يهم كلاً من اللغويين وأصحاب المعاجم والبلاغيين والعروضيين والنحويين ، ويهم أخيراً المفسرين وشراح الحديث والمهتمين بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ومختلف أحوالهم . وقد نجد في هذا الشعر أيضاً مجالاً لدراسات أخرى في هذا العصر تلقي مزيداً من الضوء على حياة العرب الاجتماعية ونزعاتهم النفسية واتجاهاتهم الفكرية .

---

(٢) المصدر السابق : ١٦٥ ــ ١٦٦ .

كان العرب في جاهليتهم وإسلامهم ينتجون أدباً ، شعراً ونثراً ، فيما يعرض من مناسبات وأحداث ، وما يجدُّ من بواعث وحوافز . تدعو دواع للخطابة فيخطبون وللمثل فيضربون وللشعر فينشدون . وكان يقابل عملية الانتاج والخلق هذه عملية أخرى تعقبها وتكملها ، وهي حفظ النتاج البديع . وان مرحلة التاريخ الأدبي تلي دائماً مرحلة الوجود الأدبي ، ثم تأتي أخيراً مرحلة النقد والتحليل بعد أن تكتمل مرحلة الرصد والتسجيل .

وفي فجر الإسلام بل منذ ما قبله كانت رواية الشعر تجري عفوية على بعض الألسنة وتتناقل على نطاق يتسع أو يضيق تبعاً لمكانة الشاعر وعلى حسب موقع القصيدة في النفوس . وإلى جانب هؤلاء جرى بعضهم على عادة أصبحت تقليداً ، وهي ان الشاعر الناشىء كثيراً ما كان يتتلمذ على شاعر آخر أرسخ قدماً في الشعر ، فيلازمه ويغدو راويته ، فكان زهير بن ابي سلمى راوية أوس بن حجر ، والحطيئة وكعب راويتي زهير ، وأبو ذؤيب راوية ساعدة بن جؤية الهذلي ، وكثير بن عبد الرحمن راوية جميل بن معمر .. الخ .. فكان هؤلاء وأولئك يدأبون في حفظ ما تبدعه قرائح العرب شفاها أيام فشو الأمية .

ثم كثر هؤلاء الرواة في أوائل العصر العباسي ونبه شأنهم وأصبح من بينهم محترفون للرواية منقطعون إليها ، وكان طليعتهم أبو عمرو بن العلاء الذي كان إماماً في اللغة والرواية والقراءات وشيخ جيل من العلماء ، وأبو عمرو

الشيباني والأصمعي وأبو زيد الانصاري وابو جعفر الرؤاسي ومحمد بن حبيب وعيسى بن عمر والمفضل الضبي وخلف الأحمر وحماد بن ميسرة وأبو الحسن الطوسي وابن الأعرابي وابن سلام الجمحي وأبو سعيد السكري .. وقد تصدى هؤلاء العلماء لجمع الشعر في جملة ما تصدوا لجمعه من لغة العرب وأيامهم وأخبارهم وأمثالهم ، يسعفهم على ذلك ذكاء وقاد وقريحة صافية وذاكرة عجيبة. فكانوا يروون معارفهم بتدفق ويرتجلونها عن ظهر قلب .

وكتب الأدب حافله بأخبار هذا الجيل من علماء العربية وغزارة علمهم واتساع محفوظهم . وقد ذكر عمر بن شبَّه أن الأصمعي كان يحفظ ستة عشر ألف ارجوزة عدا القصيد . كما أورد ابن قتيبة في مقدمة « الشعر والشعراء » أن واحداً من الرواة واسمه أبو ضمضم أنشد بعض الفتيان مرة لمائة شاعر ، وقال مرة أخرى لثمانين شاعراً كلهم اسمه عمرو . ولم يكن أبو ضمضم بأروى الناس .

واتخذ العلماء في روايتهم لشعر العرب طرائق جمع الحديث وحذوا في ذلك حذو علمائه ، من حرص على تسلسل الرواية وصحة الاسناد ، وإن لم يبلغوا في ذلك من التدقيق والتشدد ما بلغه الفقهاء والمحدثون . وفي هذا الصدد نقف على خبر ذكره ياقوت حول لغوي قديم من الكوفة توفي سنة ١٤٧ هـ اسمه عوانة بن الحكم الأعمى ، وكان عالماً بالفتوح والشعر ، وكان الأصمعي في جملة من أخذوا عنه الأخبار . هذا العالم كان فيما يبدو لا يعير

المصادر التي كان يستقي منها اهتماماً كبيراً ، فالأصمعي يذكر كيف ان عوانة أورد قصيدتين وانه سئل لمن عسى أن تكونا ، فأجاب بانفعال يشوبه المزاح قائلاً : « أنا تركت الحديث بغضاً مني للاسناد ، وليس أراكم تعفوني منه في الشعر !! »

وهذا يعني تشدد العلماء في الحرص على السند حتى في الشعر ، وأن قلة منهم في مقابل ذلك كانت تضيق ذرعاً بهذا التشدد .

★ ★ ★

كتب الاختيارات :

ولم يكد يمضي صدر العصر العباسي حتى كان لنا مجموعات ضخمة من المعارف والآداب بلسان الضاد من شعر ونثر وخطب وأمثال ونوادر وأخبار . وكان للشعر من ذلك أوفى نصيب . وبوسعنا أن نميز بين ثلاثة سبل سلكها الرواة في تصنيف الشعر العربي :

آ ـ تدوين أشعار القبائل ، وذلك انطلاقاً من طبيعة النظام الاجتماعي السائد عند العرب ، والحرص على مراعاة الشخصية القبلية التي قد تتميز بلهجتها وتستقل بشعرائها وتنفرد بأيامها ووقائعها . وقد عصفت الأيام بأكثر ما ألف في هذا اللون .

ب ـ صناعة دواوين الشعر ، فقد أولى الرواة من تقدمهم من الشعراء عناية كبيرة إلى جانب عنايتهم بجمع أشعار القبائل ، فظهرت لأول مرة دواوين امرىء القيس وزهير ولبيد والأعشى والنابغة والحطيئة والفرزدق .. والكثيرين من أمثال هؤلاء الشعراء . وهـذا اللون من التأليف طغى واتسع وساد ، والأمثلة عليه كثيرة معروفة .

حـ ـ تصنيف المجموعات الشعرية المختارة ، وهو النمط الذي حظي باهتمام خاص من العلماء والنقاد والذي يجدر بنا أن نقف عنده .

على أنه لا بد لنا أن نلاحظ أن هذه الأنماط من المجموعات الشعرية لا تشكل مراحل بالمعنى الصحيح ، فهي ليست في حقيقة الأمر إلا حركة واحدة دائبة في محاولة جمع الشعر واستيعابه وحفظه ، كانت تنطلق في أوجه متعـددة وتنطوي على أنماط متنوعة . والرواة أنفسهم كانوا يعنون بالتأليف في عدد من هذه الأنماط ، فأبو عمرو الشيباني وأبو سعيد السكري وأمثالهما كانوا يصنفون أشعار القبائل ويصنعون في الوقت نفسه الدواوين المنفردة للشعراء .

والأمر الآخـر أن هـذه المصنفات على تنوعهـا كانت تدور في الغالب داخل فلك الشعر القـديم دون أن تتعـداه إلا في القليـل أو النادر . وهـذه المجموعات كلها لم تكن في الواقع الا المدرسة الكبرى التي تخرج فيها الشعراء المحدثون في العصر العباسي .

لقد انطوت المجموعات الشعرية المختارة على جانب عزيز من أشعار العرب

المبددة ، وأكثرها عرف بأسماء رواته وجامعيه كالمفضليات والأصمعيات وحماسة أبي تمام وحماسة البحتري ... فقد بدا للرواة والمصنفين في إزاء تراكم هذا النتاج الشعري لدى العرب وغزارته ان من العسير الإحاطة به واستقصاءه وأن الخاصة فضلاً عن العامة ينوؤون بحمله . فكان لا بد من انبثاق ظاهرة الاختيار هذه .

وكانت ثمة بواعث أخرى على تأليف هذا النمط ونعني به الشعر المختار ، منها ارتباط الأدب الوثيق بمجالس الخلفاء والأمراء ، وهؤلاء يدرون المال حين يسرهم الكلام ويطربهم الشعر . والأدباء بحاجة الى المال يستعينون به على شؤون معيشتهم فلا عليهم أن يعكفوا على تخير ما يحسن أن يروى في هذه المجالس . ومن هذه الأسباب أيضاً أن هؤلاء العلماء والأدباء قد يعهد إليهم بتربية أولاد الخلفاء ، والأمراء كما كان شأن الجاحظ والمفضل والقالي والفراء والكسائي ...

ثم أن عملية الانتخاب هذه خضعت أيضاً لسنة النشوء والارتقاء ، فبدأت ساذجة لا يعنى فيها بأكثر من انتقاء النصوص وما يستحسن فيها من الأخبار والأشعار ، سواء أكان ذلك في كتب الأدب أم في مجموعات الشعر .

وهذه الظاهرة بادية فيما صنفه المفضل والأصمعي وفيما ألفه الجاحظ والمبرد .. دونما ضابط من نظام أو تبويب .

وانتقلت عملية الاختيار بعد ذلك خطوة أخرى نحو الكمال والترتيب

في مثل حماستي البحتري وأبي تمام وكتابي عيون الأخبار والعقد الفريد .. وما إلى هذه الكتب ، فأصبحت المختارات المتشابهة تتضامّ بعد تفرق لتنضوي تحت عنوان كبير واحد من مثل باب الحماسة أو المراثي ومثل كتاب الصفات أو الحرب .

وعلى الرغم من تشابه كتب المختارات واستقائها من مصادر واحدة فقد كان لكل كتاب طعم ينم على ذوق صانعه ولون يدل على شخصية مؤلفه ، فضلاً عن غلبة لون من الأدب على كتاب قد لا ينطوي عليه كتاب آخر .. وهكذا فان مثل هذه الكتب على تشابهه في كثير من الأحيان يكمل بعضه بعضاً ويرسم لنا صورة متكاملة للمنازع الذاتية والملامح الشخصية التي نسعى إلى تلمسها ورصدها في الوجدان العربي .

وإذا كانت مجموعات الشعر المختار تستوي مع مجموعات شعر القبائل ومع الدواوين الخاصة بكل شاعر من الشعراء في ان لها قيمة علمية وتاريخية كبرى ، فانها قد تمتاز عن النوعين الآخرين في انها تنطوي ايضاً على قدر - وإن يكن يسيراً - من النقد الأدبي بصورة غير مباشرة ، لأنها تقوم في الأصل على تحكيم الذوق في العناصر الفنية التي تسري في داخل قصائدها . إذ ليس مدار الأمر فيها على التتبع والتقصي والاكتفاء بالرصد والتسجيل بل على اصطفاء الأجمل وانتقاء الأفضل واختيار الأمثل . وهذا منطلق النقد وأساس الحكم الأدبي . ومن هنا أيضاً كان للمفضليات شأنها وكان لحماسة أبي تمام منزلتها . ومن هنا أيضاً كانت أمثال هذه المختارات أشمل في دلالتها على روح

عصرها وأبلغ في الشفوف عن ذوق صاحبها .

ولم يؤثر عن العرب قبل تصنيف هـذه المجموعات من الاختيار إلا ما يروى من استحسانهم لبيت او لمجموعة من أبيات وإلا ما يروى من تنازعهـم على أنفر بيت للعرب وأهجاه وأغزله ، وإلا ما يروى عن اختيار مبكـر في العصر الجاهلي للقصائد المعلقات التي تكون مرة سبعاً ومرة ثمانياً ومرة عشراً .

* * *

الحرص على الشعر القديم :

مما هو جدير بالملاحظة أن عناية الرواة الأوائل اتجهت في بادىء الأمر الى رواية الشعر القديم وبخاصة الجاهلي حتى كادت تقصر جهدها عليه . وهذه ظاهرة طبيعيـة تجاه نتاج أدبي حافل طال عليـه الأمـد قبل أن يحظى بالجمـع والتدوين ، ومع ذلك فقد تعرض جانب كبير منه للضياع قبل أن يتدارك أولئك الرواة ما تبقى منه ، وكان ذلك منهم عملاً جليلاً . فعلى الرغم من ان طبقـة جـديدة من الشعراء المحـدثين الذين عرفوا بالمولدين عاصرت أبرز رواة الشعر والأخبار ابتداء من القرن الثاني ، فانهـم لم يحظوا باهتمام اولئك الرواة والمدونين الذين كانوا منصرفين بدأب الى جمع القـديم واستيعابه ثم حفظـه في الصحائف والمدونات . وهذا أمر طبيعي ومألوف في تأريخ الآداب ؛ إذ كيف يجنح الرواة والمدونون الى جمع نتاج معاصريهـم من المتـأخرين على حين يبقى نتاج الرواد والسابقين مبدداً . ان عملية تأريخ الأدب بطبيعتها تالية لمرحلة النتاج

الأدبي والإبداع الفني ، وكان لا بد من انقضاء أمد حتى تنجلي الأمور وتقر المنازع وتتضح المعالم ، وحتى يقوم الزمن بغربلة النتاج ويتسنى للناس التمييز بين الغث والسمين مما صار اليهم من قرائح الأدباء .

يضاف الى ذلك ان الناس في كل زمان ومكان درجوا على قلة الاحتفال بأمر النوابغ من معاصريهم ، وقلما يبلغ الأحياء ما هم أهل له من الشهرة ونباهة الذكر ، على حين يفطن اليهم الناس بعد إغفال ، ويذكرونهم بعد نسيان . وقد ينسجون حولهم هالة من الاكبار والتعظيم ويبعثونهم من مراقدهم في كثير من الإجلال .

ولذلك قلما وقعنا فى تلك المجموعات الشعرية المختارة على شعر محدث ، على كثرة الشعراء المحدثين الذين عاصروا اولئك الرواة في إبان العصر العباسي . يؤيد ذلك ما تضمنته مجموعات المفضليات والأصمعيات وكتب الحماسة وسائر المختارات . حتى إن أكثر من صنَّف في الشعر عصرئذ كابن سلام وابن المعتز حصر اهتمامه في طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين دون ان يتعداهم إلى الشعراء العباسيين . وقد غالى بعضهم في ايثار ذلك الشعر القديم وبالغ في الاحتفال به ، على حين أشاح بوجهه وأعرض عن الشعر المحدث ، وبلغ ذلك بالكثيرين من العلماء حد التعصب لكل قديم والإزراء بكل جديد .

على أنه لم يكن أمام هذا الاندفاع إلا أن يتئد ، فتقر المنازع وتتطامن الحماسة للقديم ، فلا تلبث موجة التعصب والمغالاة أن تنحسر وبخاصة بعد أن

أثبت الشعر المحدث قوته ومضارعته للقديم حين نبغ في العصر العباسي عدد من الشعراء الفحول الذين أضافوا أمجاداً طارفة الى تالد الشعر العربي . وكان الأدب القديم قد دوّن في جملته ، ثم آن للعلماء أن يلتفتوا الى الشطر الآخر من التراث المتعاظم .

وقد صدرت أول بادرة من بوادر الاهتمام بالشعر المحدث وإنصافه والعطف على أصحابه عن علم من أعلام الرواية في الشعر القديم هو أبو عمرو ابن العلاء ، فقد راح يقول : « لقد كثر هذا الشعر المحدث وحسُن حتى لقد هممت بروايته » [1] . ولم تترجم هذه الرغبة إلى حقيقة علمية إلا بفضل ابن قتيبة في القرن الثالث حين نظر « بعين العدل على الفريقين » ، « إذ لم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوماً دون قوم »

على ان كسر طوق التعصب للقديم لم يكن أمراً ميسوراً لتغلغل مكانة القديم في النفوس وتمكن جذوره لدى الأجيال العربية الأولى . كما لم يكن من اليسير أن يحدث هذا الانعطاف في ظل الأعراف السائدة وتحت وطأة تقديس الماضي التليد . وهكذا كان الأمر شاقاً ، حتى ان ابن قتيبة نفسه حامل لواء التسوية بين الشعراء ، قدماء كانوا أم محدثين ، لم يستطع ـ عن قصد أو غير قصد ـ ان يخرج بآرائه تلك من حيز النظر الى حيز التطبيق ، وذلك حين جعل كتابه مقتصراً على الشعراء الجاهليين والاسلاميين دون أن يتعداهم الى المحدثين ، فكان شأنه في هذا المجال كشأن سواه من الرواة والمصنفين .

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ٦٣ ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر . دار المعارف ١٩٦٦

ثم أعقب ذلك جيل من العلماء أخذوا يعنون برواية الشعر المحدث ونقده وتحليله عنايتهم بالشعر القديم . ولم يمض أمد قصير حتى مال الكثيرون إلى الشعر المحدث من مثل أبي بكر الصولي والحسن بن بشر الآمدي وأبي الحسن الجرجاني ، ويحيى بن علي التبريزي وابن جني وابن خالويه . حتى إن بعضهم راح يقصر جهده على شعر المحدثين في مقابل ما كان من أمر أسلافهم تجاه شعر الأقدمين . ومن أبرز هؤلاء الأدباء والمؤلفين ابو منصور الثعالبي وابن بسام الاندلسي . وبرز جيل آخر من العلماء الذين اخذوا يوا كبون من يعاصرونهم من الشعراء ويحرصون على صناعة دواوينهم ورواية أخبارهم وشرح أشعارهم .

وجملة القول ان الشعر بحق ديوان العرب وترجمان أفكارهم ومعرض نبوغهم وعنوان مفاخرهم ، وهو إلى ذلك المرآة الصادقة لحياتهم والصورة الحية لنزعاتهم وافكارهم وآلامهم ومطامحهم . وهو الذي حفظ على العرب مجدهم الأدبي وتجلت فيه قدرتهم على البيان وبراعتهم في فن القول . وقد أثر عن النبي قوله « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين » . ولسنا نعرف أمة تغلغل الشعر في حياتها تغلغله في العرب . ونظرة واحدة إلي تراثنا الأدبي تجعلنا نخال ان جميع العرب شعراء فمن لم يمتلك موهبة نظم الشعر لا بد ان يتذوقه ويطرب له ويستشهد به . ولهذا حظي الشعر بعناية مبكرة من قبل العلماء وأقبلوا على روايته وتدوينه واتخاذه عمدة في تفسير آيات القرآن واحاديث الرسول وغير ذلك من ضروب المعرفة حتى غدا محور علوم العربية بما تشتمل عليه من لغة وصرف ونحو وبلاغة وعروض ..

كتب الاختيار

المفضليات

لا نعلم أحداً قبل المفضل الضبي المتوفي سنة ١٦٨ هـ ، ٦٨٧ م أقدم على على أن يصنع للناس اختياراً من الشعر. وعلى ذلك يكون كتاب «المفضليات» رائد المصنفات في هـذا المجال ، ويعود تأليفه إلى وقت مبكر نسبياً ، وذلك حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة . والمفضل علامة راوية للأخبار والآداب وأيام العرب موثق في روايته ، وأحد القراء البارزين ، وهو كوفي . قال عنه ابن سلام الجمحي : « أعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفي » .

أما سبب تأليفه الكتاب فتتحدث عنه كتب التراجم في قصة ذات صلة بالأحداث التاريخية في أوائل العصر العباسي ، وفحواها أن المفضل كان في جماعة ابراهيم بن عبد الله من ولد علي بن أبي طالب وخرج معه ثائراً فيمن خرج على الخليفة المنصور . وقد ظفر به أبو جعفر بعد ذلك بعد أن وقع بيده أسيراً . ثم عفا عنه ، وألزمه المهدي ابنه ليكون مؤدباً له . وللمهدي اختار هذه القصائد .

وفي رواية أخرى أوردها أبو الفرج الأصفهاني أن المفضل نفسه قال : « كان ابراهيم بن عبد الله بن الحسن متوارياً عندي فكنت أخرج وأتركه . فقال لي : إنك إذا خرجت ضاق صدري ، فأخرج إلي شيئاً من كتبك أتفرج به. فأخرجت إليه كتباً من الشعر ، فاختار منها السبعين قصيدة التي صدرت بها اختيار الشعراء ثم أتممت عليها باقي الكتاب » . وذكر أبو علي القالي في كتابه « الأمالي » : « ان المفضل أخرج من القصائد ثمانين للمهدي ، وقرئت بعدُ على الأصمعي فصارت مائة وعشرين » . ثم اختار أصحاب الأصمعي قصائد أخرى اختاروها وضموها إلى المفضليات . وفي رواية أخرى أوردها الأنباري في مستهل شرحه للمفضليات أن الخليفة المنصور هو الذي تقدم الى المفضل في قصائد للمهدي .

ومهما يكن من أمر فان هذه الاخبار تتفق في جوهرها على أن المفضل الضبي اختار الجانب الأوفى من الشعر القديم الذي تنطوي عليه تلك المجموعة الرائدة ، وتبلغ القصائد ١٢٨ قصيدة ، وقد تنقص عن ذلك قليلاً او تزيد فتصير ١٣٠ ، كما أن بعضها قد يتقدم أو يتأخر على حسب الرواية . والرواية المعتمدة هي التي رواها ابن الأعرابي عن المفضل .

أما تسمية المجموعة بـ « المفضليات » فيغلب على الظن أنها لم تطلق من قبل المفضل نفسه وإنما نسبت اليه وعرفت بذلك من بعده .

وتبوأ المفضليات منزلة رفيعة بين مجموعات الشعر القديم ، فهي بالاضافة

إلى قيمتها التاريخية وإبقائها على جانب هام من الشعر الجاهلي الذي كان عرضة للضياع وأنها أقدم مجموعة شعرية ، تمتاز أيضاً بأن قصائدها قد أثبتت فيها كاملة لم يجتزىء منها المفضل قليلاً ولا كثيراً ، وأنها أيضاً تحتوي نخبة من أشعار المقلين . والشعراء جلهم جاهلي وقليل منهم مخضرم وإسلامي ويبلغون ٦٦ ستة وستين شاعراً ، روي لهم في هذه المجموعة من الأشعار نحو من ٢٧٠٠ بيت. ونعد من بينهم تأبط شراً ، ومتمم بن نويرة ، والحصين بن الحمام المري ، والمزرد ، والشنفرى وسلامة بن جندل والمرقش الأكبر والمرقش الأصغر والمثقب العبدي وذا الإصبع العدواني ، وبشر بن أبي خازم ، وعامر بن الطفيل وأبا ذؤيب الهذلي ...

وقد حظيت المفضليات بعناية عدد من الشراح القدامى في مقدمتهم الأنباري - ٣٠٥ هـ وشرحه أقدم الشروح وأهمها وأوفاها ، ومنهم ابن النحاس - ٣٣٨ هـ ، والمرزوقي - ٤٢١ هـ ، والتبريزي - ٥٠٢ هـ ، والميداني - ٥١٨ هـ...

كذلك لقيت المفضليات اهتمام العلماء في عصرنا هذا فتوفر على نشرها وضبط نصوصها وتحقيق أصولها نخبة من المستشرقين ومن العرب . وكان ان صدرت في طبعات جيدة مفهرسة في أوربا وفي مصر [(١)] .

---

(١) ١ - طبعة لايبزغ ١٨٨٥ وهي أول طبعة صدرت للمفضليات بعناية المستشرق الالماني توربكه .

٢ - طبعة التقدم بمصر ١٩٠٦ وهي طبعة تجارية في شرح ضئيل . وتقع في نيف ومائة صفحة . =

الاصمعيات

يعد الأصمعي في الطليعة من العلماء الأقدمين ، كان قوي الذاكرة غزير المحفوظ متمكناً في اللغة عالماً بأنساب العرب وأيامها وأخبارها وأشعارها وأرجازها وصفه المبرد بأنه « بحر في اللغة لا يعرف مثله فيها وفي كثرة الرواية » .

---

٣ ـ طبعة مصرية ١٣٣٤ هـ ، ١٩١٥م في جزأين مع شرح بسيط لأبي بكر بن عمر داغستاني المدني .

٤ ـ طبعة مصرية ١٣٤٥ هـ ، ١٩٢٦ بشرح موجز لحسن السندوبي

٥ ـ طبعة بيروت ١٩٢٠ وقد أصدرها المستشرق الانكليزي كارلوس يعقوب لايل Lyall مع ترجمة للمفضليات الى الانكليزية ، بنفقة جامعة اكسفورد في مطبعة الآباء اليسوعيين وهي بشرح الأنباري المسهب ، وتقع في نحو ٩٠٠ صفحة من القطع الكبير ، وتمتاز بضبطها واتقان تشكيلها ، ولها مدخل باللغة الانكليزية ولهذا المجلد ملحق قيم ينطوي على مجموعة مفيدة من الفهارس صنعها المستشرق بيفان .

٦ ـ طبعات دار المعارف بمصر ، وهي عديدة صدرت أولاها عام ١٩٤٣ ، والثانية عام ١٩٥٢ والثالثة عام ١٩٦٥ . وتحتوي خلاصة مركزة للشروح على المفضليات وقد حققها وعلق عليها بعناية : أحمد محمد شاكر وعبـــد السلام هارون ، وتمتاز أيضاً بمجموعة قيمة من الفهارس الوافية .

٧ ـ عمد الدكتور فخر الدين قباوة أستاذ الأدب القديم بجامعة حلب الى تحقيق شرح المفضليات للخطيب التبريزي معتمداً على نسخة كتبها المؤلف بخطه . ثم أتبع ذلك دراسة تحليلية لمنهج الخطيب التبريزي في تصنيف شرح المفضليات . والدراستان أصل لرسالة جامعية ما تزال مخطوطة .

ومن كتبه العديدة مجموعته الشعرية المعروفة بـ « الأصمعيات » .

والأصمعيات هي المجموعة الشعرية الثانية بعد المفضليات وتعد متممة لها . وقد أطلق عليها هذا الاسم من قبل تلاميذ الأصمعي شأنها في ذلك شأن المفضليات قبلها تمييزاً لها من مجموعة المفضل ، ومع ذلك وقع الاختلاط بينهما وحدث التداخل بين بعض أشعارهما . وكثيراً ما جمع الوراقون في القديم بين المفضليات والأصمعيات في كتاب مخطوط واحد ، فالتبس الأمر على بعضهم فعد قصائد من المفضليات على أنها أصمعيات (١) .

كذلك اقتصرت مجموعة الأصمعيات على الشعر القديم وبخاصة الشعر الجاهلي وجانب من شعر المخضرمين والاسلاميين . وكثير من الشعراء نجدهم أيضاً في المفضليات ولكن في قصائد أخرى . وممن اختار لهم الأصمعي دريد ابن الصمة وعروة بن الورد وعمرو بن معديكرب ومهلهل بن ربيعة والمتلمس والمنخل والسموءل ومالك بن نويرة ... وبلغ عدد هؤلاء الشعر ٧٢ أثنين وسبعين شاعراً كانت قصائدهم ٩٢ أثنين وتسعين قصيدة ومجموع أبياتها ١٤٣٩ بيتاً .

نشرت الأصمعيات أول مرة في ليبزيغ بألمانيا سنة ١٩٠٢ ثم نشرت في طبعة علمية محققة بالقاهرة سنة ١٩٥٥ (٢) .

---

(١) عالج الدكتور فخر الدين قباوة ، في دراسة تاريخية نقدية ما تزال مخطوطه ، موضوع اختيار المفضليات والأصمعيات ، وصلة كل منها بالأخرى .

(٢) صدرت الطبعة الأوربية في لايبزيغ بعناية المستشرق الألماني أهلوارد Ahlwardt أو وليم بن الورد البروسي كما يسمي نفسه ، وذلك ضمن الجزء الأول من كتاب =

السبع الطوال

السبع الطوال هي القصائد الشهيرة لسبعة من فحول الشعر المتقدمين في العصر الجاهلي . وتعرف أيضاً باسم المعلقات وبعضهم يدعوها السبعيات أو المذهبات أو السموط ..

والشائع أن الراوية حماد بن ميسرة هو الذي جمع هذه القصائد . وكان حماد معاصراً للمفضل الضبي ، ويعد من أعلم الناس بالشعر وأرواهم له .

والآراء تتضارب عند القدماء وعند المعاصرين على السواء حول أصل تسمية هذه القصائد بالمعلقات ؛ فبعضهم ينكرها وبعضهم يثبتها . ومما جاء في العقد الفريد قول ابن عبد ربه[1] « لقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له ان عمدت الى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب

= الجزء الأول من كتاب يحمل اسم (مجموع أشعار العرب) غير ان الطبعة غير موفقة وتنطوي على أخطاء في رواية النصوص ، وقد أساء صاحبها الامانة العلمية من وجهين ، فقدم وأخر في القصائد واصطنع ترتيباً مغايراً للأصل ، ثم حذف ١٩ قصيدة من الاصمعيات بحجة انها مكررة في المفضليات .

وطبعة القاهرة صدرت سنة ١٩٥٥ بتحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . وهي جيدة تنطوي على فهارس وتعليقات قيمة .

(١) العقد الفريد ٥ : ٢٦٩ .

وعلقتها بين استار الكعبة ، فمنه يقال مذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير والمذهبات السبع . » ولا يخرج ما قاله ابن رشيق في كتابه (العمدة) عن ذلك . وقال البغدادي[1] : « ومعنى المعلقة أن العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يُعبأ به ولا ينشده أحد . حتى يأتي مكة موسم الحج فيعرضه على أندية قريش ، فان استحسنوه رُوي وكان فخراً لقائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر اليه ، وإن لم يستحسنوه طرح ولم يُعبأ به . وأول من علق شعره في الكعبة امرؤ القيس » .

وبعضهم ينسب الى حماد بن ميسرة جامع المعلقات وراويها أنه هو أيضاً أول من أطلق عليها اسم المعلقات . أما ابن النحاس (أحمد بن محمد ـ ٣٣٨) فهو يعتقد بأن حماداً هو الذي جمع السبع الطوال ورواها ، غير أنه يشك في قصة تعليقها فيقول : « ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة »[2] .

والحق أن اعلام المتقدمين كالجاحظ والمبرد وابن قتيبة وأبي الفرج لم يذكروها بهذا الاسم ولم يوردوا قصة تعليقها ، ما عدا أبا زيد القرشي ، فهو يذكرها باسم المعلقات في مجموعته الشعرية (جمهرة أشعار العرب) دون ان يعلق على تسميتها بشيء او يشير إلى أمر تعليقها أيضاً في مقدمته المسهبة . كما أن كبار الشراح الذين تصدوا لتفسير القصائد السبع لم يذكروا قصة تعليقها

(١) خزانة الادب ١ : ٦١ ، بولاق .
(٢) معجم الأدباء ١٠ : ٢٦٦ ، ونزهة الالباء ٤٣ .

نذكر منهم ابن الأنباري وابن النحاس والزوزني والتبريزي ..

ومهما يكن من أمر فقد كانت هذه القصائد في نظر الأقدمين فخر العرب في الجاهلية ومن عيون الشعر المختار . وبعضهم يصل بها إلى عشر قصائد معلقات .

وقد لقيت المعلقات لشهرتها عناية بالغة من اللغويين والنقاد وتوافر على شرحها كثيرون ، لعل أقدمهم الأنباري شارح المفضليات . وهو شرح مسهب ينم على فضل صاحبه وغزارة علمه ، فهو يشرحها من زوايا اللغة والنحو والتاريخ والأنساب ويعالجها معالجة وافية تعتمد على المقارنة الجيدة بإيراد الشواهد النادرة ، وتحرص على ايضاح ما له صلة فنية بأسلوب القرآن والحديث [1] . وثمة شروح أخرى أقل إسهاباً وتمتاز أيضاً بالتركيز والوضوح أشهرها شرح التبريزي وشرح الزوزني . ولهذين الشرحين شيوع بين أيدي المتأدبين ، وقد طبعا مرات كثيرة طبعات تتفاوت جودة وفضلاً .

جمهرة أشعار العرب

تنسب هذه المختارات الشعرية « جمهرة أشعار العرب » إلى أبي زيد

---

(١) صدرت المعلقات بشرح ابن الانباري باسم « شرح القصائد السبع الطوال » عن دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٣ ، وذلك بعناية عبد السلام هارون . وهي طبعة علمية محققة تمتاز بفهارسها وتعليقاتها .

القرشي ، محمد بن أبي الخطاب . وهو شخصية غير معروفة لدينا ، وتاريخ حياته وهويته يحيط بهما الغموض لأن الأقدمين لم يترجموا له فلم نعرف عنه أكثر مما عرفنا.ويجنح بعض الباحثين الى انه توفي نحو سنة ١٧٠ (١) ، أي أنه من الجيل الذي عاصر المفضل أو أدركه ، بدليل ما يرويه عنه مباشرة خلال مقدمة كتاب الجمهرة . والمرجح ان أبا زيد عاش بعد ذلك وأنه من رجال القرن الثالث ، وذلك لأن القرن الثاني لم يعرف فيه المؤلفون مثل هذه النزعة الى التنظيم والتبويب وكتابة المقدمات التي نلاحظها في كتاب القرشي ، فضلاً عما يعتقدة بعض المحققين من أن في مقدمة الكتاب خلطاً وقع فيه النساخ بين المفضل الضبي وبين المفضل المجبري فحصل التباس في بعض الأذهان (٢) .

وقد شاعت التسمية بالجمهرة خلال هذا القرن الثالث وما بعده كما شاعت تسمية مصنفات أخرى بالأمالي ، فكانت أيضاً جمهرة اللغة لابن دريد ثم جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ، وجمهرة الأنساب لابن حزم ، وجمهرة أنساب العرب لأبي الفرج ..

---

(١) انظر مقدمة الاليانذة بقلم سليمان البستاني ، وانظر ضحى الاسلام ٢ : ٢٧٦ .

(٢) وقع الاستاذ أحمد امين في هذا الالتباس . غير أن الدكتور أمجد الطرابلسي فطن إلى رأي وجيه نعتقده صواباً ، فقد جنح في كتابه « حركة التأليف عند العرب » ص ١٠٤ الى أن المفضل الذي ورد ذكره في مقدمة أبي زيد ليس المفضل الضبي بل شخصية أخرى هي المفضل بن عبد الله بن المجبر، وأن هذا يلي جيل المفضل الضبي . وعلى ذلك فان أبا زيد القرشي لا يمكنه بالتالي أن يأخذ عن المفضل الضبي بدليل أنه يروي أموراً عن أشخاص عاصرهم وبينهم وبين المفضل فاصل من الزمان لايسمح لابي زيد أن يدرك المفضل .

ويمتاز كتاب جمهرة أشعار العرب عما تقدمه من الكتب في موضوعه بأمرين : مقدمته النقدية المسهبة وتبويبه الدقيق المحكم .

أما المقدمة فلا نعرف كتاباً انطوى عليها فيما تقدم من الكتب المماثلة كالمفضليات والأصمعيات .. ويمكننا أن نتبين فيها ثلاثة أقسام :

آ ـ استهل أبو زيد كتابه بقوله : « هذا كتاب جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والاسلام الذين نزل القرآن بلغتهم ، واشتقت العربية من ألفاظهم، واتخذت الشواهد في معاني القرآن وغريب الحديث من أشعارهم ، وأسندت الحكمة والآداب إليهم .. » ثم يقارن المؤلف بين لغة الشعر ولغة القرآن مظهراً أن القرآن لم يأت العرب بلغة جديدة وأن ما فيه من مجاز غريب استعمله العرب في شعرهم .

ب ـ الكلام في أول من قال الشعر ، ونسبة أبيات من ذلك إلى آدم وإبليس والملائكة والجن والعمالقة وبعض العرب البائدة كعاد وثمود ..

حـ ـ ايراد رأي النبي في الشعر وأنه كان يسمعه ويجيزه . ثم الاسهاب في تعيين طبقات فحول الشعراء والمفاضلة بينهم وايراد طرف من أخبار متقدميهم .

والمقدمة خطوة رائدة في مضمار النقد الأدبي بالنسبة إلى عصرها . غير أنها مشوبة بهذه الروح الغيبية التي تنسب الشعر إلى قوى خارقة للطبيعة أو

إلى اناس موغلين في القدم دون إدراك واعٍ لسنة نشوء اللغات وتطورها .

أما صلب الكتاب وهو مجموع المختار من شعر الأقدمين فقد جعله مؤلفه في سبعة أقسام ، في كل قسم سبع قصائد لسبعة من الشعراء . وهذه الأقسام هي : المعلقات ، المجمهرات ، المنتقيات ، المذهبات ، المراثي ، المشوبات ، الملحمات . وأكثر هذه الأسماء صفات للقصائد ، فالمعلقات هي التي علقت أو تستحق أن تعلق على أستار الكعبة ، والمجمهرات في الأصل النوق القوية المتداخلة الخلق كأنها جمهور من رمل ، وقد شبهت بها القصائد في متانة سبكها وقوة حبكها . ومن هذا القبيل الملحمات أي القصائد التي تلاحمت أجزاؤها . والمنتقيات والمذهبات تشيران إلى جودة الشعر ، والمشوبات تعني أن أصحابها من المخضرمين أي الذين شابهم الكفر قبل أن يسلموا .

ومن الملاحظ أن أكثر هذه التسميات ليس في حقيقته إلا صفات متشابهة لا تمايز قصائدها فيما بينها في قليل أو كثير ، باستثناء المراثي التي يؤلف بينها جامع مشترك في وحدة موضوعها . وهذا يعني أن تقسيم ابي زيد لمادة كتابه لا يعتمد على أساس واضح معلل ، ولكنه على كل حال محاولة لا تنكر في مجال التنظيم والتبويب .

على أننا نجد هذا التبويب في جملته مصطنعاً لأنه التزم التقسيم السباعي. وما من ريب في أن أبا زيد تبنى ما تعارفت عليه العرب من قبل في جعل المعلقات سبعاً ثم ما كان من استحسانهم سبعاً غيرهن ، بدليل ما أورده في مقدمة

الكتاب ناقلاً عن شيخه المفضل قوله : « امرؤ القيس وزهير والنابغة ، ثم الأعشى ولبيد وطرفة وعمرو بن كلثوم أشعر الناس ، وهؤلاء اصحاب السبع الطوال ... وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون ان بعدهن سبعاً ما هن بدونهن ، وهن المجمهرات .. » ثم يمضي أبو زيد على هذا النحو في تقسيمه سائر قصائد المجموعة تقسيماً سباعياً دون سبب معقول ؛ وإلا فما معنى كون المراثي أو سواها سبعاً لا تزيد ولا تنقص ؟ ولم أيضاً كان للشاعر قصيدة واحدة فحسب أي أن في المجموعة تسعة وأربعين شاعراً لهم تسع وأربعون قصيدة ؟ يغلب على الظن أن هذا التقسيم السباعي قد استهوى المؤلف فالتزمه. ولايخفى ما للعدد ٧ من منزلة في الفكر العربي والاسلامي .

على أننا أيضاً نستشف من وراء هذا التقسيم نزعة نقدية تنم على مبدأ الطبقات الذي ذاع أمره بعد جيل ابي زيد . وبوسعنا أن نستنتج هذه الملامح مما أورده المؤلف في مقدمته حول إجماع العرب على تقديم فئة من فحول الجاهليين ، وهم أصحاب المعلقات الذين جعلهم طليعة كتابه ، ثم كلامه على « أن بعدهن سبعاً ما هن بدونهن » ، وهو يجعل المجمهرات في مجموعة تالية للمعلقات . وفي هذا تصنيف طبقي واضح يقوم على فكرة التفاضل بين فئات من الشعراء . غير أن معالم هذا التفاضل لا تلبث أن تغيب في سائر الشعراء الذين أورد أبو زيد قصائدهم بعد ذلك ؛ إذ لم يعد يعني هذا ان المراثي في منزلة أعلى من المشوبات أو أن الملحمات في منزلة أدنى من المشوبات او المراثي . وهذه خطوة أخرى خطاها الكتاب وان لم تكن كاملة في مضمار النقد الأدبي والتصنيف الطبقي.

وتبقى « جمهرة اشعار العرب » مجموعة قيمة من الشعر المختار تعد مكملة للمفضليات والأصمعيات ، وتنفرد بقصائد لا توجد في مصدر سواها . وقد نشرت اول مرة في مصر بمطبعة بولاق سنة ١٣٠٨ هـ ، ١٨٩٠ م ، ثم تلتها طبعات اخرى [١] ، كان آخرها عام ١٩٦٧ بعناية علي محمد البجاوي وهي في مجلدين يستغرقان نحو الف صفحة .

شرح ديوان الهذليين

كانت القبيلة في العصر الجاهلي المظهر البارز لحياة العرب الاجتماعية . وكانت لها شخصيتها المتميزة التي تعتمد على رفعة النسب وعراقة الأصل وتتجلى أمجادها في الكرم والوقائع ، كذلك كان للقبيلة شعراؤها الذين تباهي بهم سائر القبائل وتتخذ منهم درعاً واقية لأحسابها وأعراضها .

وهكذا عني الرواة الأوائل بجمع أيام القبيلة كما عنوا أيضاً بجمع أشعارها وبعد أبو عمرو الشيباني في طليعة من تصدى لهذه الغاية جاعلاً شعر كل قبيلة في ديوان خاص ، حتى إنه استطاع ان يجمع شعر ما يزيد على ثمانين قبيلة ، وجمع أبو سعيد السكري أشعار نحو من خمس وعشرين قبيلة ، وكان من هذا القبيل ابن الأعرابي والأصمعي ...

---

(١) طبعت المختارات ثانية في مصر سنة ١٣٣٠ هـ ، ١٩١١ م . ثم في المطبعة الخيرية سنة ١٩٢٦ م ، وأخيراً في بيروت ، دار صادر سنة ١٩٦٣ في شروح موجزة .

ومما يؤسف له أنه لم يصل الينا من ذلك كله سوى مجموعة واحدة هي « ديوان الهذليين » ولو حفظت لنا سائر أشعار القبائل لتكشفت لنا ملامح كل قبيلة ولهجتها وخصائصها مما يساعد على القيام بدراسات مقارنة اجتماعية ولغوية قد تلقي كثيراً من الضوء على جوانب ما تزال غامضة من تراثنا .

وهذيل قبيلة عربية تمتّ بأواصر القربى الى قبيلة قريش ، وكانت تسكن في ربوع مكة والطائف . وقد عرفت بفصاحتها وسلامة لغتها من الشوائب لأنها تعيش في وسط الجزيرة بعيدة عن مجاورة الأعاجم . واشتهرت هذيل بكثرة شعرائها حتى فاقت في ذلك سائر القبائل ومن هنا غدا الشعر الهذلي موضع اهتمام كبار الرواة كأبي عمرو الشيباني والأصمعي وابن الأعرابي، وأماثل الأئمة كالشافعي ، وصدور المؤلفين كأبي سعيد السكري وأبي الفرج الأصفهاني . ولعل عراقة هذيل بالشعر أصل عناية الرواة بجمع أقوال شعرائها واعتماد العلماء على شواهد من شعرها . والعلماء لشدة حرصهم وتوخيهم الدقة في جمع اللغة والحفاظ على بنيتها لا يستشهدون على سلامة التعبير بما تنطق به عامة القبائل وإنما كانوا يخصون ولا يعمون . فلم يأخذوا عن لخم وغسان لمجاورة المناذرة والغساسنة بلاد الفرس والروم ، كما لم يأخذوا عن تغلب وإياد وقضاعة والنمر ، على حين كانوا يأخذون العربية عن قريش وقيس وأسد وتميم وهذيل وبعض كنانة وطيء .. وهذيل في الطليعة فصاحة وبياناً وتمتّ إلى قريش بالنسب والمصاهرة والجوار وهم يرجعون جميعاً إلى مضر بن نزار .

والذين رووا شعر الهذليين عديدون منهم أبو عمرو الشيباني والأصمعي

وابن الاعرابي ، غير أن ما وصل الينا من هـذا الشعر كان في معظمه برواية أبي سعيد السكري عن الأصمعي. كما أن السكري تولى شرح هذه الأشعار، غير أنه لم يصل الينا من شروحه إلا شذور .

ويضم « ديوان الهذليين »[1] نحواً من تسعة وعشرين شاعراً من شعراء هذيل[2] يتفاوتون في شاعريتهم وفي عدد أشعار كل منهم غير أن أبا ذؤيب أبعدهم شهرة وأغزرهم شعراً، وبأشعاره تبدأ المجموعة الشعرية ، كما أن أولى القصائد فيها عينيته المشهورة في رثاء أولاده[3] .

---

(١) تعرف هذه المجموعة باسم « ديوان الهذليين » وقد نشرت بهذا الاسم . وذكرها ابن خير في فهرسته باسم « أشعار هذيل » ، رواية الأصمعي .

(٢) يتراوح عدد الشعراء تبعاً للأصول المخطوطة فيقتصر في بعضها على ٢٧ شاعراً .

(٣) حظي شعر الهذليين بعناية المحدثين فضلاً عن القدماء وقد نشر عدداً من المرات في في أوربا وفي مصر في طبعات تختلف فيما بينها بعض الاختلاف :

أ ـ لندن ١٨٥٤ بشرح السكري وتحتوي تسعة وعشرين شاعراً.

ب ـ برلين ١٨٨٤ وتحتوي سبعة وعشرين شاعراً . وفيها تعليقات قيمة وترجمة للشعر إلى الالمانية بقلم « فلهاوزن » .

حـ ـ ليبزيغ وهانوفر ١٩٢٦ ، ١٩٣٣ في جزأين ، وقد عني بهـذه الطبعة المستشرق يوسف هل . وتمتاز بفهارسها العديدة ، بالاضافة الى ترجمـة بالالمانية للمختارات الشعرية .

د ـ القاهرة ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠ في ثلاثة أجزاء صدرت عن دار الكتب المصـرية . وتمتاز بحسن إخراجها .

وقد أعيد نشر هذه الطبعة عن طريق التصوير عام ١٩٥٥ باشراف وزارة الثقافة . كما ظهرت طبعـة جديدة في القاهرة عن دار العروبة تمتاز عن الطبعات السابقة باضافات وأشعار كثيرة لم يسبق نشرها، وتعد أكمل مجموعة لشعر الهذليين .

مطلوب الحماسة

أبو تمام علم كبير من أعـلام الشعر العربي ، امتاز من شعراء عصره بنزعتـه إلى التجـديد في معاني الشعر وصوره ، وعرف بسعة ثقافتـه وغزارة محفوظه وحدة ذكائه . وقـد طار صيته بعيداً منذ أن ألف مختاراته الشعريه المعروفة بالحماسة .

وأبو تمام أول شاعر عربي ـ فيما نعلم ـ جنح للتأليف . ومختاراته الشعرية هذه تختلف بالتالي عن المختارات التي تقدمته ، لأن اختيار المرء كما يقال دليـل عقله . لقـد كان المفضل الضبي راوية واسع الاطلاع ، وكان الأصمعي وحماد وسواهما أيضاً من هذا القبيل ، وكلهم كان لغوياً عالماً بالشعر يؤثر فيه الفصيح الجزل . غير ان أبا تمام كان من طبيعـة أخرى ، فهو شاعر لطيف الحس مرهف النفس حسن الثقافة حافظ لقديم الشعر . وجدير بمثله أن يكون ذواقة للأدب بصيراً به ، وقادراً على التميز بين غثه وثمينه . فقـد جعل الجمال الفني رائده في اختيار الشعر بالإضافة إلى ما كان يتوخاه فيـه من فصاحة وجزالة . وهكذا حكـّم ذوقه فاختار ما اختار وأهمل ما أهمل ، فكانت مختاراته تبعـاً لذلك أسير على الألسنة .

ويبدو أن نزعة أبي تمام الفنية في تجويد الشعر وتنقيحه أبت إلا أن

تظهر أيضاً في مختاراته ، وهذا بارز في أمرين :

آ ـ أنه كان قلما يثبت القصيدة كاملة ، بل يختار معظمها او أقلها محكماً في ذلك ذوقه الشخصي ، على حين لم يجنح الضبي والأصمعي إلى مثل ذلك .

ب ـ أن أبا تمام كان يبيح لنفسه في بعض الأحيان ان يتصرف تصرفاً جزئياً فيما اختاره من شعر الآخرين كأن يستبدل لفظاً بآخر لم يعجبه ، او يحل عبارة محل أخرى يراها اجمل في النفس وأوقع في الأذن . وقد اشار إلى ذلك المرزوقي في مقدمته لشرح حماسة أبي تمام فقال : « .. حتى انك تراه ينتهي إلى الجيد فيه لفظة تشينه ، فيجبر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها في نقده » . وهذه التهمة ، تهمة ابي تمام بتغيير النصوص التي اختارها يدعمها المرزوقي في أثناء شرحه بما يظهرها ويقويها . وقد لا يتوافر بين ايدينا من النصوص المقارنة ما يسمح لنا باستنتاج دليل قوي على ذلك وبمعرفة طبيعة هذا التغيير ومداه ، كما ان ذلك قد يكون احياناً في رأينا بعضاً من اوجه روايات الشعر المتعددة . ونحن نرجح صحة ما ذهب اليه المرزوقي ، فهو ، من جهة ، اقرب الشراح عهد الى ابي تمام ، ثم ان ذلك التدخل من قبل ابي تمام من جهة اخرى في تلك الأشعار امر لا نجنح لنفيه لأنه يتفق مع مذهب ابي تمام الفني بصورة عامة في إيثاره المعاودة والتنقيح . ومثل هذا التصرف في بعض الأشعار وإن بدا محدوداً فقد كان جديراً بأن ينزل بقيمة « الحماسة » عند العلماء باعتبارها نصوصاً يستشهد بها في علوم اللغة العربية . وكان حرياً بالنقاد الأوائل في ذلك العصر وجلهم من اللغويين المتزمتين الذين يجلّون

الشعر الموروث أن ينكروا على ابي تمام تصرفه الشخصي في نصوص الآخرين على هذا النحو . غير انهم قبلوا ذلك منه واستملحوه ثقة منهم بذوقه وتقديراً لشاعريته . ونحن « نجد العلماء مجمعين على تزكية ابي تمام في (الحماسة) وعلى تزكية الحماسة ونصوصها . بل يعدون صنيعه في الحماسة داعية إلى الوثوق بشعر أبي تمام نفسه والاستشهاد بشعره »[1] . وفي ذلك يقول الزمخشري في صاحب الحماسة : « وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية ، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه »[2] .

والجدير في حماسة ابي تمام فضلاً عن ان عمله فيها ركن هام في حركة جمع الشعر إنما هو تبويبها ، فقد جعل المؤلف مجموعة مختاراته في عشرة ابواب هي :

باب الحماسة ، باب المراثي ، باب الأدب ، باب النسيب ، باب الهجاء ، باب الأضياف والمديح ، باب الصفات ، باب السير والنعاس ، باب الملح ، باب مذمة النساء .

والحق أننا لم نر احداً قبل ابي تمام قسم الشعر هذا التقسيم ، فقد كان الجمع والاختيار يجريان اتفاقاً ودونما قاعدة أو نسق ، كما هو الحال في المفضليات والأصمعيات . وواضح ان هذا التقسيم مستمد من طبيعة موضوعات الشعر

---

(١) انظر مقدمة عبد السلام هارون لشرح المرزوقي على الحماسة .
(٢) خزانه الأدب ، للبغدادي ١ : ٤ طبعة بولاق .

نفسه وتفرعه إلى أغراض متعددة . وبذلك خلا تقسيم الحماسة من الافتعال وكان أقرب إلى حال الشعر العربي ، ولا غرو في ذلك فأبو تمام شاعر في طليعة شعراء المعاني ، وقد غدا في كتابه رائد من ألفوا وصنفوا في المختارات على حسب المعاني الشعرية .

أما اسم الحماسة فأغلب الظن ان أبا تمام نفسه قد أطلقه على مجموعته المختارة ، وإن كان بعضهم يجنح الى أن التسمية لحقت بها بعد وفاة أبي تمام . وكان مألوفاً لدى العرب إطلاق البعض على الكل وتسمية الشيء باسم الجزء على غرار ما كان عليه بعض سور القرآن كالبقرة والأنعام والنمل . ثم انتشرت عادة تسمية الأشياء بأوائلها مثل « العين » للخليل الفراهيدي . وباب الحماسة أول الأبواب وأعظمها ويقارب نحواً من ثلث الأشعار في المجموعة . وقد عرف كل من القصائد والمقطعات بعد ذلك باسم الحماسية ويبلغ مجموع هذه الحماسيات في المجموعة ٨٨١ حماسية .

وأبو تمام ، شأنه في ذلك شأن المفضل والأصمعي وأبي زيد وحماد .. كان في اختياره متجهاً إلى الشعر القديم وبخاصة الجاهلي إلا قليلاً مما أورده لبعض الشعراء المحدثين كمسلم بن الوليد وأبي العتاهية ودعبل الخزاعي . وكان لشعراء طيىء قبيلته نصيب وافٍ من تلك الأشعار .

ومما تقدم يبدو لنا أبو تمام في اختياره الشعر على هذا النحو من تحكيمه ذوقه فيه واختياره بعضه وتركه بعضه الآخر ، ثم في تعديله وتنقيحه لما يأنس

فيه حاجة إلى تعديل او تنقيح ، بالإضافة إلى فرزه لموضوعات الشعر وتصنيفه إياها في كتابه على حسب أغراضه .. كل ذلك يجعل أبا تمام في نظرنا ناقداً وذواقة اكثر منه جامعاً لقصائد الشعر او مسجلاً لطائفة من نصوصه ، على الرغم من ان مثل هذا النقد تأثري محدود يرتكز الى التذوق وحده دون ان يشفع برأي معلل .

وقد اطنب القدماء من قبل في منزلة كتاب الحماسة واشادوا بفضل ابي تمام فيه . وفيه قال المرزوقي « وقع الإجماع من النقاد على انه لم يتفق في اختيار المقطعات انق مما جمعه ابو تمام ، ولا في المقصدات اوفى مما دوّنه المفضل » . وبلغ الأمر ببعضهم كما يروي التبريزي انهم كانوا يقولون : « إن ابا تمام في اختياره الحماسة اشعر منه في شعره » .

ونتيجة لاستفاضة شهرة هذا الكتاب وذيوع فضله فقد غدا نموذجاً يحتذى في موضوعه ، حتى إن اسم الحماسة أصبح رمزاً للشعر المختاز عامة بعد أبي تمام . وقد جنح الكثيرون على أثر ذلك الى تأليف كتب مماثلة في هذا المجال وهم يبلغون بضعة عشر رجلاً كلهم حذا حذو أبي تمام في حماسته وآثر لكتابه اسم الحماسة .

أما شراح الحماسة فكانوا أكثر من ذلك وتجاوزا العشرين عدداً ، أشهرهم المرزوقي والتبريزي ، ومنهم أبو بكر الصولي وابن جني والآمدي وابو هلال العسكري والأعلم الشنتمري ، وابو العلاء المعري وابن سيده والعكبري ...

وقد يكون للواحد من هؤلاء شروح متعددة كما هـو شأن التبريزي الذي تصدى لمجموعة الحماسة في ثلاثة شروح متفاوتة : موجز ومفصل ثم وسيط ، والأخير هو المتداول بين ايدينا .

وقد تختلف شروح اولئك العلماء في رواية اشعار الحماسة من حيث ترتيب نصوصها ، وزيادة او نقصان في بعض اشعارها .

ويعد شرح المرزوقي افضل الشروح التي بين ايدينا ، وذلك من وجوه عديدة ؛ فهو من اقدم الشروح واقربها إلى عصر ابي تمام ، كما انه من اوفى هذه الشروح واكثرها تقصياً . وهو برغم سبقه لشرح التبريزي يفضله بعبارته الرصينة المتخيرة وباهتمامه بالجانب النحوي في النصوص لغرض تفسيرها ، واخيراً يمتاز بمقدمته النقدية القيمة . على حين افاد التبريزي من شروح متقدميه وفيهم المرزوقي نفسه وعني بالاشتقاق واللغة وبمسائل التصريف ، وإيراد جانب من اخبار الشعر ومناسباته التاريخية ، والكلام على اسماء الشعراء واشتقاق اعلامهم . ويمكن القول إن المرزوقي كان اديباً محللاً على حين كان التبريزي مفسراً مدققاً (١) .

وقد طبع شرح التبريزي مرات عديدة في اوربا والهند والشرق العربي،

---

(١) قام الدكتور فخر الدين قباوة بعمل دراسة تحليلية لمنهج الخطيب التبريزي في شروحه للكتب الأدبية واللغوية من مثل حماسة أبي تمام وإصلاح المنطق لابن السكيت ، وذلك ضمن دراسة تاريخية عامة لنشوء الشروح الأدبية واتجاهاتها حتى القرن الخامس، عصر التبريزي .

وصدر اخيراً في اربعة اجزاء ، كما صدر شرح المرزوقي في اربعة اجزاء اخرى ، وهما طبعتان جيدتان [1] .

وحظيت « الحماسة » بعناية بعض علماء عصرنا ، فجنح أحدهم الى ترتيبها على اساس جديد يعتمد على الموضوعات وعلى الترتيب الزمني للشعراء [2] .

---

(١) طبعت أشعار الحماسة دون أي شرح في بيروت سنة ١٨٨٩ بمطبعة جمعية الفنون ، في نحو ٢٥٧ صفحة من القطع الصغير .

وقد طبع كتاب الحماسة بشرح التبريزي أول مرة في بون بألمانيا سنة ١٨٧٨م بتحقيق المستشرق فرايتاغ ، ثم في مصر سنة ١٢٩٦ هـ ، ١٨٧٨ م بمطبعة بولاق بعناية الشيخ محمد قاسم . وبعد ذلك طبع في القاهرة أيضاً بمطبعة السعادة سنة ١٩١٣ في جزءين يبلغان نحو ٩٠٠ صفحة . وأخيراً صدر في مصر بتحقيق محي الدين عبد الحميد سنة ١٩٣٨ في أربعة أجزاء تنطوي على فهارس وتعليقات حسنة .

أما شرح المرزوقي فلم ينشر الا متأخراً خلال ١٩٥١ – ١٩٥٣ وكان ذلك في أربعة أجزاء تستغرق نحواً من ٢٠٠٠ صفحة . وهذه الطبعة جيدة تمتاز بتعليقات وفهارس وافية ، وقد صدرت بعناية أحمد أمين وعبد السلام هارون .

(٢) عمد الشيخ المرصفي في القاهرة الى ترتيب حماسة ابي تمام ترتيباً جديداً وجعلها في قسمين : الأول ، الموضوعات الأدبية ، والثاني شعراء الوقائع الجاهلية والاسلامية . وقدم الشاعر الجاهلي على الاسلامي ، والاسلامي على الأموي .. غير أن هذا المصنف بقي مخطوطاً .

الحماسة الصغرى

تعرف هذه المجموعة بالحماسة الصغرى تمييزاً لها عن احماسة أو الحماسة الكبرى . وقد أسماها أبو تمام « الوحشيات » ، وهي صفة لأشعارها التي أشبهت وحوش الفلوات في كونها « أوابد وشوارد لا تعرف عامة ، وأغلبها للمقلين من الشعراء أو المغمورين منهم »(١) .

والثابت أن أبا تمام صنف الوحشيات بعد تصنيفه الحماسة ؛ وان الأمد بينهما كان قصيراً . ويورد أبو زكريا التبريزي شارح حماسة أبي تمام في مقدمة شرحه قصة تنطوي على الطرافة حول تأليف هاتين الحماستين . وخلاصتها ان أبا تمام قصد إلى خراسان وفيها عبد الله بن طاهر فمدحه وحظي بعطفه ، ثم قفل راجعاً إلى العراق . وفي طريقه اليها مر بهمذان فاستضافه أبو الوفاء بن سلمة ، فبات عنده . وعندما أفاق يروم متابعة سيره وجد ان ثلجاً عظيماً قد قطع عليه الطريق ومنع السابلة ، فاغتم ؛ على حين سر بذلك مضيفه فأبلغ شاعره أن وطّن نفسك على هذا المقام فان الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان . ثم أحضر عبد الله بن سلمة أبا تمام خزانة كتبه ، فطالعها واشتغل بها ، « وصنف

---

(١) انظر مقدمة الوحشيات بقلم العلامة الهندي عبد العزيز الميمني الراجكوتي ص ٦ .

خمسة كتب في الشعر ،منها كتاب الحماسة ، والوحشيات وهي قصائد طوال[1] »
وهكذا كانت المصادفة ـ إن صحت على هذا النحو ـ باعثاً على تأليف هذين الكتابين ، ورب ضارة نافعة .

وفي كتب القدماء « ان كتاب الحماسة بقي في خزائن آل سلمة يضنون به حتى تغيرت أحوالهم ، وورد أحدهم من دينور الى همذان حيث آل سلمة فظفر به وحمله الى اصحابه .. ثم شاع واشتهر » .

ومما جاء في صدر كتاب الوحشيات أيضاً مقدمة صغيرة للناسخ نصها : « اختاره أبو تمام حبيب بن أوس الطائي رحمه الله بعد اختياره كتاب الحماسة الكبرى . ولم يروه ، ولكن وجد بعده مكتوباً في مسودة بخطه مترجماً بكتاب الوحشيات » .

أما الكتب الأخرى الباقية من الخمسة والتي ينطوي عليها ذلك الخبر فنها ـ فيما نقدر ـ كتاب « فحول الشعر » وهو ما يزال مخطوطاً ، و « مختار أشعار القبائل » ولا نعلم عنه شيئاً . ولا ندري أيضاً ما اسم الكتاب الأخير .

وتبويب الحماسة الصغرى يكاد يطابق التبويب الذي ابتدعه أبو تمام في الحماسة الكبرى . فقد جعل فيه الأشعار أيضاً في عشرة أقسام هي : الحماسة والمراثي والأدب والنسيب ... عدا باب واحدٍ جديد أسماه « المشيب » وقد

---

(١) العبارة للتبريزي في مقدمة شرحه للحماسة .

جعله بدلاً من « السير والنعاس » الذي كان في الحماسة الكبرى .

وأشعار الوحشيات في مجموعها أقل من أشعار الحماسة . والقسم الأول فيها وهو باب الحماسة يشتمل على ٢٠٠ مقطوعة ، أي على نحو من ثلث الكتاب . وذلك على غرار نظيره في كتاب الحماسة أيضاً . على حين كان القسم الأخير وهو « مذمة النساء » غاية في الاقتضاب ولم يشتمل إلا على أربع مقطوعات لا تعدو تسعة أبيات .

والأشعار المختارة في الوحشيات يغلب عليها القصر فقد لا تتجاوز في كثير من الأحيان البيتين أو الثلاثة أو الأربعة عدداً ، وقلما بلغت بضعة عشر بيتاً . فهي بذلك مقطعات دون أشعار الحماسة في الطول .

ومما لا ريب فيه أن الوحشيات لا ترقى إلى شهرة الحماسة ، وقلما حفل بها الاقدمون أو ذكروها[١] . ويبدو أن التبريزي الذي ذكرها في مقدمة شرحه لحماسة أبي تمام لم يعرفها من كثب بدليل قوله عنها : « وهي قصائد طوال » . وإنما هي ديوان مقطعات .

وقد نشرت « الوحشيات » في مصر في طبعة علمية جيدة سنة ١٩٦٣[٢]

---

(١) ذكرها القاضي الباقلاني في كتابة : إعجاز القرآن .

(٢) صدرت « الوحشيات » في القاهرة عن دار المعارف سنة ١٩٦٣ في طبعة علمية محققة بعناية عبد العزيز الميمني ومحمود شاكر . وهي غنية بالتعليقات . غير أنها تفتقر إلى شروح وافية على غرار الحماسة وسائر كتب المختارات الشعرية .

حماسة البحتري

لا ريب في أن أبا تمام رائد من ألفوا وصنفوا في هـذا النمط من المختارات الشعرية ونعني بها الكتب التي جعل تبويبها على حسب أغراض الشعر وموضوعاته ومعانيه ، والتي عرفت بكتب الحماسة . « وهـذه التسمية صارت شهرة لكتب الاختيار التي بوبت لمعاني الشعر وان هذه قديمة جـدا ولا سيما انها قد اطلقت على حماسة البحتري وهو قريب العهد والمعاصرة لأبي تمام »[١]

وواضح أن استفاضة شهرة الحماسة التي صنفها أبو تمام قد أغرت الطائي الآخر بأن ينسج على منوال صنوه وأستاذه ، وجعلتـه يـؤلف كتاباً آخر في مختارات الشعر القديم استعار له أيضاً اسم الحماسة وعرف بحماسة البحتري . على ان البحتري لم يكن إلا أول المعارضين لأبي تمام في حماسته ، فقد أعقبه كثيرون آثروا تأليف كتب الحماسة على هذا الغرار ، ومنهم الشاعران الاخوان الخالديان وابن الشجري وأحمد بن فارس وابو هلال العسكري الذي عُرف كتابه بالحماسة العسكرية ، والأعلم الشنتمري الأندلسي وابو الحجاج البياسي الأندلسي وأبو الحسن البصري الذي أسمى كتابه « الحماسة البصرية » ... وغيرها من كتب

---

(١) انظر مقدمة الحماسة لأبي تمام ، بقلم عبد السلام هارون ، ص ٨ .

الحماسة [1]

وقد اختار البحتري أشعار حماسته للفتح بن خاقان وزير المتوكل [2] والبحتري أيضاً شاعر رقيق الطبع حسن الذوق كثير المحفوظ ، وهذا أيضاً ما رفع من شأن حماسته . كذلك كاد البحتري يقصر اهتمامه على الشعر القديم شأنه في ذلك شأن سلفه أبي تمام وسائر من صنفوا في هذا اللون من التأليف ، وثمة قلة من الشعراء المحدثين اختار لهم البحتري في مجموعته ، من مثل بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس . .

وتختلف حماسة البحتري فيما عدا ذلك عن حماسة أبي تمام من وجوه ، أهمها تبويبها الخاص الذي يقوم على مبدأ الموضوعات التفصيلية لا على مبدأ الأغراض الشعرية العامة الذي كان عليه كتاب ابي تمام . فقد فصّل البحتري في أبوابه تفصيلاً زائداً وجعل لكل معنى او موضوع عنواناً جزئياً خاصاً ، فكان مجموع هذه الأبواب ١٧٤ باباً . وطبيعي ان تكون هذه المعاني الجزئية متفرعة من الأغراض الكبيرة او الموضوعات العامة ، فموضوع الحماسة لم يفرد له البحتري باباً خاصاً به على الرغم من أنه أسمى مجموعته الشعرية بالحماسة .

---

(١) انظر تفصيل ذلك في مقدمة حماسة البحتري بقلم لويس شيخو ، وانظر أيضاً ما كتبه محققو حماسة أبي تمام . وانظر أخيراً كشف الظنون لحاجي خليفة . ومن الحماسات حماسة الشاطبي ، أبي عامر محمد بن يحيى بن خليفة الشاطبي الأندلسي النحوي ، نسبة الى شاطبة وهي بلدة . ولا نعرف عن هذه الحماسة شيئاً .

(٢) حماسة البحتري رواها أبو العباس أحمد بن محمد المعروف بابن أبي خالد الأحول عن أبيه عن البحتري .

ولكننا إذا استعرضنا الأبواب الأولى في المجموعة وجدناها تنطوي في الواقع على المعاني التفصيلية التي تتفرع من موضوع الحماسة الشامل من مثل : باب فيما قيل في حمل النفس على المكروه ، وباب فيما قيل في الفتك ، وفي ركوب الموت خشية العار ، وفي ذم الفرار والتعيير به ، وفي نبو السيف ، وفي إغاثة الملهوف ... الخ. وتمضي أبواب الحماسة على هذا النحو حتى تبلغ الثلاثين من الأبواب ، وكأن البحتري يورد من الشعر في نسق مفصل ما أورده سلفه أبو تمام في شكل مجمل .

وهذا التفريع في الأبواب في حماسة البحتري استتبع اجتزاء الأبيات من قصائدها في كثير من الأحيان في نحو (ما قيل في إخلاف الوعد) أو (في كتمان السر) أو (في فراق الإخوان) أو (في الشباب والشيب) . لأن مثل هذه الموضوعات تنضوي في الغالب تحت مقطعات الشعر ولا تستغرقها القصائد الطويلة . ومن هنا اضطر المؤلف إلى تفتيت القصيدة الواحدة إلى مقطوعات متعددة تناثرت أجزاؤها وتباعدت . فقصيدة أبي ذؤيب الهذلي في رثاء أولاده نجد بعضاً منها في مواضع متعددة ، فثمة بيتان في الباب التاسع والأربعين : (فيما قيل في غلبة الزمان وإفنائه الأمم) ثم بيتان آخران من العينية نفسها في الباب الثاني والخمسين : (فيما قيل في اليأس من البقاء وحذر الموت وترقبه وقلة الحيل فيه) ، ثم بيتان آخران في موضع ثالث هو الباب الخامس والسبعون : (فيما قيل في الصبر على المصائب والتجلد للشامتين وترك الاستكانة) ...

وقد تتقاصر المقطعات حتى لا تعدو بيتاً واحداً يدل على معنى جزئي مكتف بنفسه من حكمة أونحوها . كل هذا يتيح للقاريء الفائدة ويوفر عليه كثيراً من الجهد ، إلا أنه في نظر الكثيرين قد يسيء إلى وحدة القصيدة ويذهب برونقها . ومما لا شك فيه ان هـذا التبويب المفصل استغرق كثيراً من جهد البحتري وهو ينم على منحى تنظيمي لدى مؤلف الحماسة . وهـذا أيضاً ما جنح بعض الباحثين إلى ان يشككوا في نسبة هذه الحماسة الى البحتري مستندين إلى أن القرن الثالث ذلك القرن المبكر نسبياً لم يكن قد عرف مثل هذه النزعة التنظيمية والدقة في مناهج التأليف . كما علق بعض القدماء على هذا الموضوع بقوله (١) : « ولم نسمع ان للبحتري حماسة » .

وكان طبيعياً ـ تبعاً لهذا التقسيم التفصيلي لأشعار المجموعة ـ أن تتكاثر مقطوعات الحماسة فتبلغ ١٤٥٤ مقطوعة ، أي ما يقارب ضعف المقطوعات عند ابي تمام ، وان يكثر ايضاً الشعراء في حماسة البحتري فيبلغوا ٦٠٠ شاعر .

وقد تتفق حماستا ابي تمام والبحتري في بعض المروي من الشعر من نحو ما ورد لقطري بن الفجاءة والحارث بن هشام والفند الزماني . . . وهذا لا يضير البحتري في شيء لأنه وأبا تمام وأمثالهما إنما يروون ما أخذوه عن شيوخهم من الشعر الموروث وقد يقع الحافر على الحافر .

---

(١) العبارة لعبد القادر البغدادي في كتابه : خزانة الأدب ٣ : ٥٩١ وكان يعقب على عبارة العيني : « ذكره في حماسته » .

على أن ما يدعو إلى التساؤل إغفال البحترى في حماسته أشعار الغزل والنسيب . والنسيب غرض رئيسي في شعر العرب وقد جعل له أبو تمام باباً خاصاً ضمن أبوابه العشرة . ولعل ما يزيدنا استغراباً ان البحترى نفسه شاعر رقيق أجاد طرق موضوع الغزل وتصوير الطيف وحلاوة الحب ومرارته . وأغلب الظن ان البحتري عندما ألف حماسته كان قد تقدم في السن فعزف عن مثل هذا اللون من الشعر ، ولعله أخرج حماسته بعد مقتل الخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان الذي صنفت من أجله هذه المختارات في الأصل . وقد نجد في اتشاح بعض أبواب حماسة البحتري باللون القاتم ما يؤيد هذا لرأي من مثل ما يدور حول : « صحة المودة وحفظ الإخاء وغلبة الزمان والتبرم بالحياة ، وعتاب الدهر ، وذل من اغترب ، وما يلحق الرجل من الضيم اذا ضيم مولاه أو قريبه ، وترك ما نبا بك من المنازل والبلدان ، وفي تنقل الدول وتغير الأحوال ، وتعاقب اليسر والعسر ، والصبر على المصائب ، والغدر والخيانة ، وتقلب الدهر بأهله ورفعه قوماً وخفضه آخرين ، وتوقع الموت والحذر منه ، والاعداد للمعاد ، وخذلان بني العم عند الشدائد ، ونسيان ما مضى ، والجفاء بعد الصلة ، والمخافة والالتياع ... الخ » كل ذلك لا يعكس المرحلة التي كان البحتري يحياها في رغد آمنا من تقلب الدهر وهو في بلاط الخليفة ومجالس الأمراء .

ولا نعرف أحداً من القدماء تصدى لشرح حماسة البحتري كما فعلوا في حماسة أبي تمام . وهذا يؤكد أن منزلتها على رفعتها لا تبلغ شأو حماسة ابي تمام .

وقـد طبعت حماسة البحتري في بيروت اول الأمر سنة ١٩١٠ [١] ثم في مصر سنة ١٩٢٩ .

حماسة ابن الشجري

ابن الشجري هبة الله بن علي من رجال القرن السادس الهجري كان شيخ وقته في معرفة النحو واللغة والأدب . والأمالى اكبر تآليفه .

وكتابه « الحماسة » الذي نحا فيه منحى أبي تمام والبحترى ينطوي على خصائص ذينك الكتابين معاً ، فقد جعل جانباً من أبوابه على حسب الأغراض الشعرية أى : باب الحماسه والمراثي والهجاء والمديح والأدب والنسيب ... على حين كان سائر ابوابه على حسب معاني الشعر وموضوعاته الجزئية كأبواب الطيف والخيال ، وصف النار ، الليل والنجوم ، الشيب ... الخ . وبلغ مجموع هذه الأبواب المتفاوتة في حماسة ابن الشجرى ٣٦ باباً .

والأشعار المختارة في هذه الحماسة مقطعات قلما بلغت حـدود القصيـد ، ومن هنا كثر عدد شعرائها على الرغم من انها في حجمها لا تبلغ غزارة الشعر

(١) صدرت هذه الطبعة بعناية الأب لويس شيخو في مطبعة الآباء اليسوعيين عن مخطوطة نادرة في مكتبة ليدن . وهي تمتاز بالضبط ولكنها تفتقر الى الشرح والمزيد من التحقيق .

في حماستي ابي تمام والبحتري . وقد بلغ هؤلاء الشعراء نحو ٣٦٥ شاعراً عدا الأشعار التي أوردها ابن الشجري في مجموعته ، ولم ينسبها إلى قائل معين . كما بلغت حماسيات المجموعة ٩٤٤ حماسية .

ولعل اهم ما تمتاز به هذه الحماسة فضلاً عن تبويبها انها تشارك ما سبقها من المجموعات الشعرية في احتوائها الشعر القديم وتحتفل اكثر منها بالشعر المحدث او شعر المولدين ، فهي تنطوي على شطر ذي بال من شعر العصر العباسي لبشار وابي نواس وابي العتاهية وابي تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز ودعبل وابي دلامة وديك الجن وعلي بن الجهم والسري الرفاء والصنوبري وابي فراس والشريف والرضي ... وقد راق المصنف فيما يبدو ما بلغه الشعر المولد في ذلك العصر العباسي من رقة وعذوبة فأفرد بالإضافة إلى ذلك باباً اسماه : (مقطعات من غزل شعر جماعة من المحدثين) .

وقد نشرت حماسة ابن الشجرى في الهند اول الأمر في طبعة تفتقر إلى مزيد من العناية والضبط والتحقيق [١] . ثم صدرت مؤخراً في دمشق في طبعة جيدة مفهرسة [٢] .

---

(١) عني باصدار هذه الطبعة التي صدرت في حيدر باد سنة ١٣٤٥ هـ ، ١٩٢٦ م المستشرق الألماني فريتس كرنكو معتمداً على أصول مخطوطة في لندن وباريس والمتحف البريطاني . وقد خلت الطبعة من الشرح وقل فيها الشكل . غير أنها احتوت ترجمة لحياة ابن الشجري .

(٢) ثم صدرت « الحماسة الشجرية » في دمشق عن وزارة الثقافة عام ١٩٧٠ بتحقيق عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي ، وهي طبعة علمية في مجلدين استغرقت نحو ألف من الصفحات ، وامتازت بضبطها ووفرة فهارسها التي بلغت مائتي صفحة .

مختارات ابن الشجري

وهي مجموعة ثانية من الشعر الذي اختاره ايضاً ابن الشجري . وتعرف كذلك باسم (مختارات شعراء العرب) .

وتختلف هذه « المختارات » عن سابقتها « الحماسة » من وجـوه ، فهي تقتصر على الشعر القديم الجاهلي دون أن تفسح في ثناياها مجالاً للشعر المحدث. ويبدو أن المؤلف قصد الى هذا التمييز بين المجموعتين على هذا النحو كيلا يقع في التكرار ولتكون الواحدة منهما مكملة للأخرى . والوجـه الآخر أن أشعار هذه المختارات قصائد تامة في الغالب ولذلك اتسمت بالطول ، فهي بذلك أشبه بالمفضليات أو الأصمعيات . ومن هنا قل عدد القصائد في مختارات ابن الشجري فكانت خمسين قصيدة يتخللها عدد من المقطعات ، كما قل بالتالي عدد الشعراء الذين انطوت عليهم المجموعة فلم يزيدوا على ١٤ شاعراً من شعراء الجاهليـة . ومنهم : لقيط بن يعمر ، حاتم الطائي ، الشنفرى ، المتلمس ، طرفة ... الخ . وقد حظي زهير بن أبي سلمى والحطيئة باهتمام ابن الشجري فأكثر من الاختيار لهما .

ولعل ما تمتاز به هـذه المجموعة أخيراً أنها لم تقتصر على إيراد القصائد وحدها كما ألفنا فيما تقـدم من كتب الاختيار بل عُني فيها صاحبها بذكر

مقدمات نثرية وافية لتلك القصائد تنطوي على اخبار قائليها وتلقي ضوءاً حول مناسباتها . ومما يلاحظ على هذه المختارات عدم إخضاعها إلى تبويب معلوم ، فقد اكتفى ابن الشجري بايراد جميل الشعر على نحو يذكرنا بالمفضليات أيضاً .

وهذه المختارات معتدلة الحجم لا تتسم بالغزارة . وقد جعلها مؤلفها في ثلاثة أجزاء صغيرة مترابطة أشبه ما تكون بفصول متلاحقة في كتاب واحد .

وقد نشرت مختارات ابن الشجري في مصر في طبعة مناسبة عام ١٩٢٥ (١) .

الحماسة البصرية

ظهرت هذه الحماسة حوالي منتصف القرن السابع أي بعد حماسة ابن الشجري بأكثر من قرن . وقد صنفها صدر الدين ابن الحسن البصري وأطلق عليها اسمه لتعرف به وتتميز عن الحماسات الأخرى .

استمد البصري نصوص حماسته من مصادر عديدة تقدمته وفي جملتها حماسات أبي تمام والبحتري والخالديين (١) وابن الشجري ودواوين العديد من

---

(١) مطبعة الاعتماد . وقد ضبطها وشرحها محمود حسن زناتي . وكانت قد طبعت قبل ذلك في مصر أيضاً سنة ١٣٠٦ هـ ، ١٨٨٨ م ، ولكنها طبعة رديئة .

(١) صنفها الشاعران الاخوان الخالديان من شعراء بلاط سيف الدولة واسمها في الاصل « الاشباه والنظائر في المتقدمين والجاهلية والمخضرمين » انظر الحماسة البصرية ص ٢٥ .

الشعراء وجانب من كتب الأدب المتقدمة كذلك جمع البصري في مختاراته بين القدماء والمحدثين .

ويمكن القول إن البصري لم يأت بجديد في تبويب حماسته حين جعلها تتكىء في ذلك على تبويب أبي تمام . فقد صنفها على حسب أغراض الشعر وبلغت لديه ١٢ باباً . أولها الحماسة وهو أطول الأبواب ثم المديح والتقريظ ، فالتأبين والرثاء ، فالأدب ، فالنسيب والغزل ، فالأضياف ، فالإنابة والزهد ... الخ ، ولعل هذا هو الباب الجديد الذى أضافه البصري في حماسته بعد ان أصبح شعر الزهد غرضاً ذا شأن في ذلك العصر .

وتضم الحماسة البصرية نحو ٦ آلاف بيت لـ ٥٠٠ شاعر تقريباً ، صنع لها المصنف خطبة موجزة في مستهل كتابه أشاد فيها بفضل الاختيار في الشعر .

على أن هذه الحماسة البصرية تفتقر في نظرنا إلى الأصالة ، لأنها تستمد جانباً وفيراً من الشعر من بطون دواوين الشعراء المتداولة ، وليس في هذا كبير جدوى ، ولأنها أيضاً تستقي من معين كتب الاختيار السالفة كالأصمعيات وحماسة أبي تمام وحماسة البحتري ، وليس في هذا أيضاً كبير غناء . ونحن قد نقع على قصائد أو مقطعات سبق ان اطلعنا عليها في كتب المتقدمين ، حتى إن الأمر بلغ بالبصري حداً جعله يبدأ حماسته بأبيات عمرو بن الإطنابة نفسها التي استهل بها البحتري حماسته .

وقد نشرت الحماسة البصرية في الهند عام ١٩٦٤ في مجلدين وذيلت بفهارس عديدة [(١)].

مختارات البارودي

لعل هذا الكتاب آخر حلقة يعتد بها في سلسلة مجموعات الشعر المختار. وعلى الرغم من أن مؤلفها محمود سامي البارودي من رجال هذا العصر الحديث فانها تشابه نظائرها في أنها حوت جانباً كبيراً من شعر العصور العربية السابقة وما من شك في أن البارودي وهو الشاعر كان يطمح الى أن يصنع كتاباً ينسج فيه على منوال شاعرين ندّين من الفحول القدماء هما أبو تمام والبحتري، فكانت مختاراته هذه.

جمل البارودي مختاراته في سبعة أبواب هي : الأدب ، المديح ، الرثاء ، الصفات ، النسيب ، الهجاء ، الزهد . ولعل أبرز ما انفرد به البارودي في مجموعته أنه قصر اختياره فيها على شعر المولدين اعتقاداً منه بأن فيما صنفه سابقوه ما يغني فلا يدع زيادة لمستزيد . أما الشعراء الذين آثرهم بالاختيار فكانوا ثلاثين

---

(١) صدر الكتاب في حيدر أباد بعناية محقق هندي اسمه مختار الدين أحمد . غير أن المحقق برغم جهده القيم غير متمرس بالعربية ، ولا متمكن في عبارتها ، فضلاً عن أنه أتاح لنفسه حذف القصائد التي يمكن الوقوع عليها في دواوين الشعراء متذرعاً في ذلك بالاختصار .

شاعراً جعلهم في كتابه على حسب ترتيبهم الزمني ، وهم بشار بن برد ، العباس ابن الأحنف ، أبو نواس ، مسلم بن الوليد ، أبو العتاهية .. وفيهم المتنبي وأبو العلاء وابن هانيء .. إلى جانب لفيف من شعراء عصر الانحدار من مثل الأرّجاني والأبيوردي والطغرائي ..

وقد نهج البارودي في مختاراته نهجاً خاصاً ، فكان في كل باب من الأبواب السبعة يختار شعراً لكلٍ من هؤلاء الشعراء على التوالي ، فاذا ما استوفاهم انتقل إلى الباب الذي يليه ليعيد سيرته مع الشعراء أنفسهم . وقد يصادف ألاّ يقع لدى شاعر على شعر في الغرض الذي هو بصدده فيدعه إلى شاعر آخر ، وبذلك قد يقل الشعراء في بعض الأبواب عن ثلاثين شاعراً . وقد حرص المؤلف خلال ذلك على مراعاة ترتيب أشعار كل شاعر على حسب حروف المعجم ، فيستهل مثلاً ما اختاره لبشار في باب الرثاء بقصيدة على حرف الباء ثم يُتبعها قصيدة مماثلة في هذا الموضوع على حرف الراء وهكذا دواليك .

والأشعار المختارة قد تقصر فلا تعدو البيت أو البيتين ، وقد تطول فتبلغ بضع عشرات من الأبيات . وتبلغ في جملتها زهاء ٤٠ ألف بيت ، وهذه كمية كبيرة قل أن بلغها أحد ممن صنفوا في هذا الضرب ولهذا غدا حجم الكتاب كبيراً وكان في أربعة مجلدات ، واستغرق ذلك من البارودي ثلاث سنين .

على أن لنا مآخذ على مختارات البارودي من وجوه . وإذا كان فيما صنفه الأقدمون في هذا المجال ما يضم شتات تراثنا المفرق ويلم شعثه المبدد ويحفظه

من الضياع ، فان ما صنعه البارودي ليس فيه كبير غناء بعد أن غدت مجموعات الشعر ودواوين الشعراء متداولة بين الأيدي وبعد أن ظهرت الطباعة وانتشرت المصنفات السالفة بين الملأ .

أما تبويب الكتاب فليس موفقاً ، وذلك أيضاً من وجوه ؛ فقد اتبع البارودي تقسيماً بشبه تقسيم أبي تمام ، اي على حسب الأغراض الشعرية ، بل جمله أعم منه أي سبعة أبواب بدلاً من عشرة. وفي هذا ما يذهب بجدوى التصنيف بالنسبة إلى مجموعة ضخمة حوت هذا الشعر الغزير . وكان يجدر بالبارودي أن يزيد عدد الأبواب وأن يكون أدنى إلى تصنيف البحترى في حماسته وبذلك يغدو أقرب إلى روح عصرنا هذا . والغريب في الأمر أن البارودي وهو المعروف بشاعر السيف والقلم والذي نظم كثيراً من الشعر الحماسي الجزل قد شذ عمن سبقه في إغفاله باب الحماسة من مختاراته وهو أحوج ما تفتقر الى مثله أمة مكافحة كأمته . والأغرب من ذلك أنه أحل محل الحماسة الذى كان أهم الابواب عند متقدميه باباً للزهد وباباً للهجاء .. وهذه الأبواب أبعد ما تكون عن روح هذا العصر الحديث ، حتى ان البارودي خص باب المديح بما يقرب من نصف مختاراته أي بنحو ٢٠ ألف بيت . ومن هنا لم يكتب لمختارات البارودي الحياة .

ولم يقيض للبارودي أن ينشر مختاراته فى أثناء حياته فنشرت بعد مماته

وقد خلت من مقدمة وافية بقلمه ، فسد الناشر هـذا الفراغ بخطبة موجزة من عنده [1] .

(١) طبع الكتاب في أربعة مجلدات من القطع الكبير خلال السنوات ١٣٢٧ ـ ١٣٢٩هـ أي بعد وفاة مؤلفه . والنصوص فيه ضئيلة الشكل قليلة الشرح .

كتب الأدب

★ ★ ★

الفصل الثاني

تمهيد :

تشغل كتب الأدب حيزاً كبيراً في المكتبة العربية . والأدب كلمة واسعة الدلالة عند العرب في القديم وفي الحديث على السواء . فهي تفيد فن القول الذى تبدعه القريحة من شعر ونثر ، كما تفيد من جهة أخرى التهذيب والخلق الحسن من نحو قول محمد عليه السلام : « أدبني ربي فأحسن تأديبي ». ولا يخفى ما بين هذين المفهومين من تداخل حين ينظر إلى الكلمة الجميلة الطيبة على أنها باعث على الفضيلة تهذب النفس وتصقل الطبع وتجلو الذهن وتغذي الروح . ومن هنا أفرد كثير من مصنفي المجموعات الشعرية ومؤلفي الكتب الأدبية باباً للأدب ووجدوا فيه رسالة خير في الحياة .

على أن الأدب في مفهومه الاصطلاحي وحده يبقى أيضاً واسع الدلالة لانطوائه على عناصر كثيرة تشمل الشعر والنثر وما يتبع ذلك من خطابة وكتابة ورسائل ومقامات وحكم ووصايا وأخبار ونوادر وطرائف وأمثال وقصص وسير ... وهذا هو المفهوم السائد الذي صدر عنه كثير من العرب المتقدمين وما زال غالباً حتى يومنا هذا . غير أن معنى الأدب كان ذا مدلول أوسع عند جانب آخر من رجال العلم ، إذ يشمل فضلاً عما تقدم معارف أخرى تتصل

بشؤون الفكر وتنطوي على التاريخ والجغـرافيا والاجتماع الخ ... حتى إن الأدب في عرف أولئك الأقدمين يقارب مدلول الثقافة في مفهومنا الحديث . بل إن كلمة الأدب أو الآداب في عصرنا هذا ما زالت تعني عندنا وعند سائر الأمم تلك المعارف الانسانية التي ترتبط بالفكر المجرد أو الخيال وذلك في مقابل كلمة العلم أو العلوم ولغرض التمييز بين لونين بارزين من ألوان النشاط الفكري لدى الإنسان .

ومهما يكن من أمر فقد تميز كثير من المعارف عن سواه عند المؤلفين العرب في القديم وراحوا يؤلفون في موضوع الأدب باعتباره فنـاً من فنـون التعبير أساسه الـكلمة وقوامه الجمال وغايته الإمتاع .

كتاب الحيوان

يعد كتاب الحيوان للجاحظ في طليعة كتب الأدب التي تزدان بها المكتبة العربية . وهو كتاب طريف في موضوعه ، وتتجلى أهميته في أنه أول مصنف عربي جامع يتناول موضوع الحيوان على الرغم من أنه كان ثمة كتب أخرى قبيل حياة الجاحظ او في أثنائها تعرضت لشؤون الحيوان ، ولكنها كانت كتباً جزئيّة الطابع أشبه بالمعاجم الخاصة التي تُعنى بالتصنيف اللغوي للألفاظ المتعلقة بأوصاف الحيوانات وأعضائها وما إلى ذلك .. من نحو ما ألفه ابو عبيدة والأصمعي والنضر بن شميل وابو زيد الانصاري وابو حاتم السجستاني وابن الأعرابي وغيرهم من كتب في الإبل وفي الخيل وفي الغنم والشاء وفي الوحوش وفي الطير ... فقد كان الجاحظ علماً متفرداً بين معاصريه وإماماً فذاً من أئمة البيان العربي لا يدانيه أحد في اتقاد ذهنه واتساع ثقافته . وقد جاء في الفهرست لابن النديم « أنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين » .

ولم يكن هم الجاحظ في التأليف ان يقتصر على الجمع والرواية والحفظ ، وإنما كان همه ان يبتكر وان يقدم للناس الطريف من الوان الثقافة والمعرفة . والكتاب أضخم كتب الجاحظ إطلاقاً ولعله أجلها شأناً . ويعد دائرة معارف

واسعة الأفق كما يعد صورة بارزة لثقافة العصر العباسي المتشعبة الأطراف ، فقد حوى طائفة صالحة من المعارف الطبيعية والمسائل الفلسفية ، كما تحدث في سياسة الأقوام والأفراد وتكلم في نزاع أهل الكلام وسائر الطوائف الدينية . وتحدث الجاحظ في هذا الكتاب أيضاً في كثير من المسائل الجغرافية وفي خصائص كثير من البلدان ، وفي تأثير البيئة في الحيوان والانسان والشجر وتكلم على الطب وعلى الأمراض في الحيوان وفي الإنسان وذكر كثيراً من المفردات الطبية النباتية والحيوانية والمعدنية .. وغير ذلك من الشؤون والمعارف وفي خلال ذلك كله أورد الصفوة المختارة من الشعر العربي النادر ومن الأمثال السائرة والنوادر الطريفة ..

فالكتاب ذو شقين ، أدبي وعلمي وان لم تكن الحدود بين العلم والأدب متميزة لدى الجاحظ في أكثر جوانب كتابه ، إذ لم يكن العقل المستنير عند العرب وعند سائر الأمم في تلك العصور قد بلغ في الدقة والتميز مدى أبعد من ذلك لأن المعارف الإنسانية لم يستقل بعضها عن بعضها الآخر إلا في عهد متأخر . فالجاحظ كان يمزج العلم بالأدب في تلاحم شديد في بعض الأحيان كما هو شأنه في قصة قاضي البصرة التي ساقها في قالب أدبي شائق وأراد في الوقت نفسه ان يصور خاصية الإلحاح في الذباب . على حين نجده في مواضع أخرى من كتابه عالماً باحثاً يجنح للتجربة والمعاينة معتمداً على أبرز ما يعتمد عليه علماء هذا العصر . فقد يعمد إلى قطع أذناب بعض الضباب ليرى إلى ما تستطيعه من حركة دون سائر الجسم ، او يكسر بيض الحيات ليقف بنفسه على ما فيه ،

او يسكر بعض البهائم بالخمرة ويلاحظ ما تصدر عنه من تصرفات وأحوال . وربما دحض ما يُتناقل عن بعض الحيوان مما لا يقبله العقل فيرده بالحجة القوية والمنطق السديد على غرار ما كان منه تجاه قصة الحية ذات الرأسين ..

وقد فطن الجاحظ إلى طابع كتابه الشامل من هذه الزاوية العلمية فقال في خطبة الحيوان : « وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه العرب والعجم . لأنه وإن كان عربياً اعرابياً وإسلامياً جماعياً فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة » .

ولا يكاد يوجد حيوان في عصر الجاحظ وبيئته إلا ذكره ، من الفيل والتمساح والنسر إلى النمل والعنكبوت والصؤاب ، غير أنه لم يول السمك اهتمامه الكبير لأن العرب لم تحفل به كثيراً ، ولأنه من جهة أخرى كان بعيداً عن بيئة الجاحظ ومتناول يده .

ويمكننا ان نرجع مادة الجاحظ الغزيرة في كتابه الحيوان إلى مصادر عديدة منها : القرآن والحديث ، والشعر العربي الذي أكثر من روايته وبخاصة ما يتعلق بما نظمه البداة حول عالم الحيوان أنيسه ووحشيه ، وكتاب الحيوان لأرسطو الذي كان قد نقله إلى العربية ابن البطريق في عصر الجاحظ ، ثم علم الكلام الذي يتجلى فيه مذهب الجاحظ في الاعتزال ومنحاه في المناقشة والجدال والإثبات والنفي والجنوح إلى المناظرات في بعض الأحيان كالمناظرة بين صاحب الكلب وصاحب الديك وما يتصل من ذلك بالنزعة الشعوبية التي استفحلت

في ذلك العصر .. وأخيراً ما استمده الجاحظ من خبرته الطويلة في الحياة وممارسته لظروفها وأحوالها مما اكتسبه بنفسه او سمعه من الأعراب .. الخ .. كل هذه العناصر تلاحمت وتعانقت وانصهرت في بوتقة شخصية الجاحظ البارزة وصيغت بأسلوبه المرسل الشائق .

غير أن الكتاب ضم موضوعات شتى قد لا تمت إلى عالم الحيوان بصلة ، من مثل الكلام على الشعر وترجمته او على النار والضيف او على حفظ السر او على صدق الظن وجودة الفراسة .. وفي هذا ما ينافي وحدة الموضوع التي جعلها المؤلف في عنوان كتابه . حتى إن الجاحظ نفسه يستطرد داخل موضوعه نفسه فيبتعد عنه كثيراً حتى يصعب على القارىء تتبعه . والجاحظ نفسه الذي ألف كتابه هذا وهو مسن ومصاب بمرض مزمن من النقرس والفالج اعتذر عن ظاهرة الاستطراد في كتابه فقال :

« وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه ، أول ذلك العلة الشديدة ، والثانية قلة الأعوان ، والثالثة طول الكتاب » .

على أن الجاحظ فيما يبدو لا يرى في هذه الطريقة مأثماً بدليل انه يسعى بنفسه إلى هذا الاستطراد ويعتمد الخروج عن موضوعه بغية إمتاع القارىء كما يقول ، ولهذا نراه دائم التقدير لملل القارىء وغلبة السآمة عليه فيلتمس له ما ينشطه .

« وإن كنا قد أمللناك بالجد وبالاحتجاجات الصحيحة لتكثر الخواطر

وتشحذ العقـول فاننا سننشطك ببعض البطـالات وبذكـر العلل الطريفـة والاحتجاجات الغريبة » .

ومن هنا يخيب أمل القاريء في أن يقف على بحث شامل مستقصى في هذا الكتاب لأن مؤلفه قلما كان يتقيد بموضوعه ويستقر فيه على حال . وقد غدا هذا الاستطراد سنة غير حميدة ابتدعها الجاحظ وسار عليها من أتوا بعده حتى كأنهم لم يعودوا يستطيعون منها فـكاكا .

وجملة القول ان كتاب الحيوان عالم زاخر يضطرب بمختلف صور الحياة وتتمثل فيه ألوان الفكر المختلفة في ذلك العصر وتعرض فيه نزعات المجتمع الإسلامي ويظهر فيه عقل الجاحظ الدقيق النافذ وبيانه الأدبي الرفيع وذوقه الفني المرهف .

وقد طبع الحيوان في مصر بعناية عبد السلام هارون في سبعة أجزاء سنة ١٩٣٨ وصنعت له فهارس قيمة تيسر الانتفاع منه[١] .

(١) كان الحيوان قد طبع في مصر بمطبعة التقدم والسعادة أي الساسي في ٧ أجزاء في نحو ثلث حجم صفحات الطبعة الأخيرة وذلك خلال ١٩٠٥ – ١٩٠٧ .

ولعل من أشهر كتب الحيوان بعد الجاحظ « حياة الحيـوان » للدميري وقد جعل مؤلفه الحيوانات فيه مرتبة وفقاً لترتيب حروف أسمائها فهو يذكر مثلاً الأرضة فالأرقم فالأرنب والأوز . . وهو كثير النقل عن الجاحظ . ويبرز فيـه عيب الاستطراد إلى حد كبير ليختلط التاريخ بالأدب ...

البيان والتبيين

هذا ثاني كتب الجاحظ القيمة ، وقد ألفه بعد كتاب « الحيوان » لأنه يشير من خلاله إلى الحيوان ، ومن الجائز أنه كان يعمل فيه في أثناء وضعه لكتاب الحيوان. وقد أعجب به القدماء وقدموه ، وفيه قال المسعودي « وللجاحظ كتب حسان ، منها كتاب البيان والتبيين وهو أشرفها لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب.. » كما جعله بعضهم في طليعة كتب الأدب . وقد جاء في مقدمة ابن خلدون قوله : « سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه ـ يعني الأدب ـ أربعة دواوين وهي أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها » .

والبيان والتبيين كما ينم عليه عنوانه كتاب أدبي صرف وهو يكشف عن الجاحظ الأديب في نثره الفني الرفيع كما يكشف كتاب الحيوان عن نزعة الجاحظ العلمية واتساع ثقافته وقوة فكره . فالكتاب عربي في موضوعه وفي عناصره وفي مصادره وفي مراميه . وقد حوى جانباً هاماً وعزيزاً من تراث العرب القديم في الشعر والنثر والخطب والوصايا والحكم والأمثال والطرائف

والأخبار . وقلما داخله شيء من الثقافة الأجنبية الوافدة . وأغلب الظن أن أثر أرسطو في الكتاب كان ضئيلاً لأن كتابه « الخطابة » لم يكن فيما يبدو قد عرف ونقل إلى العربية ، كذلك لم يترجم كتابه « الشعر » إلا بعد حين . وعلة ذلك فيما نرى أن العرب لم يشعروا أول الأمر بحاجة ماسة إلى ترجمة هذين الكتابين لأن ما بين أيديهم من موارد الشعر والنثر وبلاغة القول كان جديراً بأن يبعث فيهم روح الاعتداد او الاكتفاء بما عندهم على الاقل ، على حين كانت حاجتهم إلى منطق ارسطو وفلسفته أمس ، فبادروا إلى ترجمة ما عن لهم من هذا الجانب . ومع ذلك نقع في البيان والتبين على شذور من آثار هذه الثقافات من مثل ايراد بعض الآراء عن مفهوم البلاغة عند كل من الفارسي واليوناني والرومي ووشل من أخبار أرسطو وأنه غير موصوف بالبيان وذكر لبعض أخبار جالينوس ومقاطع من رثاء الحكماء للاسكندر وما إلى ذلك .

وقد عني الجاحظ في كتابه بفن القول والأداء ، وأفاض في كلامه على الفصاحة والبلاغة والألفاظ ومخارج الحروف وعيوب النطق عند بعض الناس من لثغة أو لكنة أو حصر وعي . وقد استهل كتابه بالتعوذ من شر الحصر والعي وأن الصمت خير منهما ، وأشاد من خلال آيات قرآنية كثيرة وأشعار غزيرة بفضل الفصاحة والبيان كما عرض في كتابه إلى الكلام على اللحن في الأداء وإيراد جانب من أخبار اللاحنين من البلغاء .

وكان للخطابة حيز كبير في كتاب البيان والتبيين لأنها في عصر الجاحظ كانت عنوان الفصاحة والبلاغة وأداة الجدال وعلم الكلام ، فكان الوراقون

يعنون بجمع الخطب وتدوينها وإذاعتها استجابة لروح العصر . وأصبح للخطابة في كتاب الجاحظ أصول وقواعد وطرق وأساتذة كذلك كان فيها عيوب يجدر بالمرء تجنبها كما فعل شيخه المعتزلي واصل بن عطاء الذي راض نفسه على تجنب النطق بالراء للثغة كانت فيه . وثمة حروف متنافرة لا ينبغي اجتماعها في قول الخطيب كالجيم مع الظاء والقاف مع الطاء والغين .. الخ .. ويبدو أن الجاحظ كان يعد الخطابة صفة مميزة للعرب وأنهم تفردوا بها بين الأمم وعرفوا فيها بالبداهة والارتجال .

ومن خلال هذه المادة الأدبية الغزيرة في الشعر والنثر كان الجاحظ ينطلق كلما سنحت له الفرصة إلى الخوض في النزعة التي استفحلت في عصره وهي الشعوبية وما كان يردده غلاتها من الطعن على العرب والازراء بهم . فكان الجاحظ يشيد بالعرب وفصاحتهم وبعاداتهم وتقاليدهم ويتصدى للرد على مزاعم أولئك الشعوبية وسمومهم ، ولعل هذا من أهم مرامي الكتاب برغم أن الجاحظ لم يدخر وسعاً خلال كتاب الحيوان أيضاً في الرد على تلك الجماعة التي كانت تكيد للعرب وتتحلى باسم أهل التسوية . وما يؤكد أن هذا الموضوع كان يستأثر باهتمام الجاحظ ويشغل فكره أنه بالاضافة إلى تعرضه لأصحاب هذا المذهب في خلال الكتاب قد بادر في مستهل الجزءين الثاني والثالث إلى الوقوف عند هذا الموضوع وإيلائه الاهتمام الأول فيهما . حتى إن كلام الجاحظ في أولئك الشعوبيين مشحون أحياناً بالغضب وينم على مرارة وانفعال كشأنه حيث يقول [1] :

(١) البيان والتبيين ٣ : ٢٨ طبعة السندوبي .

« اعلم أنك لم تر قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكاً لعرضه ، ولا أطول نصبا ، ولا أقل غنما من أهل هذه النحلة ، وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم وتوقد نار الشنآن في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة .. » .

أما منهج الجاحظ في البيان والتبيين فلا نكاد نتبين له حدوداً واضحة شأنه في ذلك شأن كتابه « الحيوان » من حيث غلبة الاستطراد والخروج عن جادة الموضوع عن عمد أو من دون قصد ، ومن هنا كان الكتاب أيضاً أشبه بمنجم غني من المعادن الثمينة التي تناثرت وتداخل بعضها في بعض ، فعز على ناشدها الاهتداء بيسر إليها .

طبع البيان والتبيين عدة مرات في مصر أفضلها ما أصدره عبد السلام هارون في أربعة مجلدات محققة ومذيلة بفهارس قيمه[١] .

---

(١) صدرت الطبعة الأخيرة لهذا المحقق خلال ١٩٤٨ - ١٩٥٠ . وثمة طبعات أخرى بتحقيق حسن السندوبي آخرها طبعة رابعة في ثلاثة مجلدات صدرت سنة ١٩٥٦ .

كتاب الكامل

أبو العباس المبرد في طليعة علماء القرن الثالث الهجرى . عرف بتمكنه في اللغة والنحو والتصريف ، وملك ناصية الكتابة كما قرض الشعر . وقد وصف بأنه « كان حسن المحاضرة فصيحاً بليغاً مليح الأخبار ثقة فيما يرويه كثير النوادر ، فيه ظرافة ولباقة » تتلمذ على شيوخ عصره من اللغويين والنحاة كأبي عمر الجرمي وأبي حاتم السجستاني وأبي عثمان المازني . ثم صار إمام مذهب البصريين في بغداد ، وكان معاصراً لنده أبي العباس ثعلب الكوفي . وله مصنفات كثيرة في النحو والتصريف واللغة والأدب أبرزها الكامل [1] .

وكان من ألمع تلاميذ المبرد الأخفش الأصغر الذي كان له فيما يبدو

(١) من كتب المبرد القيمة « الفاضل » وهو كما يبدو صنو « الكامل » وعلى غراره ، غير أنه يختلف عنه في وجهين ، فهو دونه حجماً ويقع في مجلد واحد ، ولم يتضمن شيئاً من مسائل النحو والتصريف . وقد حوى مصفى الشعر ومنخول النثر وطريف الاخبار وغريب اللغة والنوادر ، حققه عبد العزيز الميمني وزاده تعليقاً وضبطاً احمد يوسف نجاتي : صدر عن دار الكتب المصرية في طبعة علمية قيمة . ومن كتبه الاخرى : « المقتضب » ، وهو في النحو ، « المدخل إلى النحو » ، « معنى كتاب سيبويه » ، « الرد على سيبويه » ، « شرح شواهد الكتاب » ، « التصريف » ، « الاشتقاق » ، « اعراب القرآن » ، « المذكر والمؤنث » ، « المقصور والممدود » ، « القوافي » ، « العروض » ، « البلاغة » ، « طبقات النحاة البصريين وأخبارهم » .. الخ .

مشاركة وافية في رواية كتاب الكامل وجمعه وتبويبه [٢] ، ومن ألمهم أيضاً أبو إسحق الزجاج الذي انفض عن ثعلب ولازمه . وقد روى ابن خلدون في مقدمته ـ كما سبق أن علمنا ـ أن الكامل كان في عداد الكتب الأربعة المتقدمة عند العرب .

وكتاب الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف . وقد تحدث مؤلفه عن محتواه في مستهل الخطبة فقال : « هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ، ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة . والنية أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً وافياً ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً » .

والواقع أن الكتاب في جملته ينطوي على مجموعة من الكتب في قضايا اللغة وفي مسائل النحو ويحوي جانباً غزيراً من منثور العرب ومنظومهم بالإضافة إلى ما بين دفتيه من أخبار المتقدمين في الحرب والسياسة والأدب . فهو يشبه البيان والتبيين في هتمامه بشؤون الأدب وايراد نصوصه ولكنه يفترق عنه في غلبة قضايا النحو عليه على حين لم يول الجاحظ هذا الجانب اهتمامه . ومن هنا ساد الكتاب بعض الجفاف العلمي خلافاً لما نراه عند الجاحظ من خفة روح وميل إلى الدعابة ، وما ذلك إلا لأن المبرد عني بدقائق النحو واللغة من

---

(٢) انظر : « تراث الانسانية » ، المجلد ٦ العدد ١ .

خلال ما كان يورده من نصوص . ومن هنا فان قراءة هذا الكتاب تحتاج إلى تدبر وإمعان نظر فهو كتاب مفيد ولكنه قل أن يمتع . وواضح أن ثقافة المبرد عربية صرف لم يكد ينفذ إليها شيء من روافد الثقافات الدخيلة التي كان يزخر بها العصر العباسي الذهبي .

وفي كتاب الكامل ما في كتب الجاحظ من غلبة الاستطراد عليه . وعلى الرغم من أن المبرد يجعل مادة كتابه المتنوعة في مجموعة كبيرة من الأبواب فاننا لا نكاد نتبين طبيعة كل باب من هذه الأبواب ، وما هي إلا مسائل متفرقة في النحو أو التاريخ كان يعرض لها المؤلف وسرعان ما يقفز منها إلى سواها دونما منهج ثابت معلوم .

على أن الكتاب يبقى برغم عيب الاستطراد الذي فشا في أكثر مؤلفات القدامى من خير ما ورثناه عن السلف في موضوعه وذلك لخوضه في كثير من مسائل النحو والتصريف من خلال مجموعة أدبية مختارة من عيون الشعر والنثر .

طبع الكامل مرات ، أولاها في لايبزيغ بألمانيا وهي ذات فهارس قيمة ، ثم طبع في استامبول وبعد ذلك في مصر حيث تكررت طباعته . وقد عني بشرحه والتعليق عليه سيد المرصفي فأسماه : « رغبة الآمل من كتاب الكامل » جمع فيه بين المتن والشرح على صعيد واحد ، وبلغ الكتاب ثمانية مجلدات[١] .

---

(١) تولى المرصفي تدريس الكامل على هذا النحو في جامعة الازهر عدداً من السنين =

صدرت عام ١٩٢٧ . ثم طبع متن الكتاب في ثلاثة أجزاء وألحق بها جزء رابع خاص بمجموعة قيمة من الفهارس . وقد عمد بعض الباحثين المعاصرين إلى اختصاره (٢) .

وهذه الشروح والتعليقات المستفيضة زادته نفعاً وأربت في غزارتها على متن الكتاب.

وتعد طبعة لايبزيغ الجيدة أساساً لما بعدها فقد ظهرت سنة ١٨٦٤ بعناية المستشرق رايت الانكليزي الذي أمضى في هذه المهمة ٨ سنوات وهي طبعة متقنة مشكولة صدرت في مجلدين كبيرين ، ومجلد ثالث ألحق بها يحتوي استدراكات وتعليقات وفهارس ، وقد ظهر سنة ١٨٩٢ . وكان نشر الكتاب من قبل جمعية الاستشراق الالمانية عن المخطوطات الموجودة في ليدن وبطرسبرج وبرلين كما طبع بعد ذلك في الآستانة سنة ١٨٧٠

أما الطبعات المصرية فلم يوفق أكثرها مثل طبعة المطبعة الخيرية سنة ١٣٠٨ هـ ، ١٨٩٠ م في جزأين وطبعة التقدم سنة ١٣٢٣ هـ ، ١٩٠٥ م وبهامشها كتاب الفصول المختارة للجاحظ .

ثم صدرت طبعة البابي الحلبي سنة ١٩٣٦ بعناية زكي مبارك وأحمد محمد شاكر وهي حسنة في ثلاثة أجزاء . ثم ألحق بها فهارس صنعها محمد سيد الكيلاني في جزء رابع صدر سنة ١٩٥٦ .

(٢) اختصره حسين نصار في نحو ربع حجمه وصدر في مصر عن وزارة الثقافة باسم « المختار من كتاب الكامل » .

عيون الاخبار

ابن قتيبة عالم أديب من أبرز رجال القرن الثالث الهجري . كان حسن الاسلوب متمكناً في اللغة والتصريف وعلوم القرآن والحديث ، ويعد من رواد النقد الأدبي . وهو من أصل فارسي . تلمذ على شيوخ بغداد ومنهم أبو حاتم السجستاني استاذ المبرد وعبد الرحمن ابن أخي الأصمعي . قيل فيه : « هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ، فانه خطيب السنة كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة ». وقد عرف بتنوع ثقافته وغزارة مؤلفاته التي منها : أدب الكاتب وهو معدود أحد الكتب الأربعة المتقدمة بين كتب الأدب ، والشعر والشعراء وهو في مقدمته القيمة من أجلِّ ما كتبه الأوائل في النقد الأدبي ، وعيون الأخبار وسواها [1] .

والكتاب غزير المادة ، وطابعه أدبي صرف لا يتعرض فيه مؤلفه لمسائل اللغة والنحو والصرف . وهو كتاب ممتع لما حواه من روائع النصوص وعيون الاخبار . وبوسعنا أن نستنتج من خلال ما اورده ابن قتيبة في خطبة كتابه

---

(١) من كتبه أيضاً : غريب القرآن ، معاني القرآن ، القراءات ، الرد على القائل بخلق القرآن ، غريب الحديث ، معاني الشعر الكبير ، المعارف ، الميسر والقداح ، فضل العرب على العجم ، الشراب ، الشعر ، الخيل ، الأنواء .

أن أمداً طويلاً انقضى عليه وكان في خلاله يتلقط مادة كتابه ويدونها ويجمعها ثم يعمد إلى تصنيفها حتى خرج على هذه الصورة .

وعيون الاخبار في جوهره لا يختلف عن أكثر كتب الأدب القديمة من غزارة المادة الشعرية والنثرية والاخبارية وغلبة ظاهرة الجمع والرواية ، إذ قلما كان ابن قتيبة يدلي بدلوه بين الدلاء . ولعل هذا من قبيل التواضع والرغبة عن الادعاء مما نراه سائداً لدى كثير من العلماء .

فابن قتيبة يبدو لنا من خلال خطبة كتابه مؤلفاً كبيراً وعالماً جليلاً يتسم بقوة الشخصية واستقلال التفكير والجرأة في الحق . ومما قاله في مستهل كتابه « إن هذا الكتاب وإن لم يكن في القرآن والسنة وشرائع الدين وعلم الحلال والحرام ، دال على معالي الأمور ، مرشد لكريم الأخلاق ، زاجر عن الدناءة ، ناه عن القبح ، باعث على صواب التدبير ، وحسن التقدير ، ورفق السياسة ، وعمارة الأرض . وليس الطريق إلى الله واحداً ، ولا كل الخير مجتمعاً في تهجد الليل وسرد الصيام وعلم الحلال والحرام » .

وخطبة الكتاب تنطوي على نزعة واقعية جديرة بالتقدير ، كما تنم على فكر ناقد متحرر . وقد عرف ابن قتيبة بمقدماته القيمة .

ولعل أهم ما يميز ابن قتيبة في هذا الكتاب على أقرانه ومعاصريه نزعته إلى التنظيم والتبويب ، هذه النزعة التي نفتقدها في كتب الجاحظ والمبرد

وثعلب .. فقد حرص المؤلف منذ البداية على أن يرسم لنفسه طريقاً يسلكه في كتابه ، وفي ذلك يقول في خطبته : « .. وهذه عيون الأخبار صنفتها أبواباً ، وقرنت الباب بشكله والخبر بمثله والكلمة بأختها ليسهل على المتعلم علمها وعلى الدارس حفظها وعلى الناشد طلبها .. » .

أما هذه الأبواب التي أشار اليها فقد فصل فيها القول في مقدمة كتابه ورأى أن تكون عشرة أبواب أو عشرة كتب كما آثر ان يسميها . والحق أن كلاً منها يصلح ان يكون كتاباً قائماً بنفسه مستقلاً بموضوعه . غير أن ابن قتيبة جمع بينها لأن خيطاً من الأدب ينظمها ، على حين أفرد لبعض المعارف الأخرى كتباً خاصة بها من نحو كتاب أدب الكاتب في اللغة وكتاب الشعر والشعراء في النقد وفي التراجم الخ .. وهذه الأبواب العشرة هي :

١ ـ كتاب السلطان ، أي ما يتعلق بأمور الراعى تجاه رعيته ، واختيار عماله وآداب صحبته ، والمشاورة والرأي ، والقضاء بين الناس ، والعدل والظلم. ومثل هذا الموضوع أصبح ذا شأن في العصر العباسي منذ استقر نظام الدولة . ويعد ابن المقفع أول من عالج شؤون الحكم وآدابه وما يتعلق بحقوق الحاكم وواجباته في كتابه « الأدب الكبير » .

٢ ـ كتاب الحرب ، وما يتصل بآداب الحروب ومعاملة النساء والأطفال ، وفي الخدع والمكايد ، وفي العدة والسلاح ، وفي أخبار الجبناء والشجعان .. الخ ويتخلل ذلك نصوص أدبية وافية من أشعار وخطب ووصايا ..

٣ ـ كتاب السؤدد ، أي الشرف والمجد وما يتصل بذلك من الحلم والغضب ، والعز والذل ، والمروءة والحياء والعقل والتحلي بأخلاق السادة والاعتدال في كل شيء .

٤ ـ كتاب الطبائع والأخلاق ، ويضم هذا الباب كثيراً من العادات الذميمة التي لا تحمد في المرء من حسد وسعاية ، ثم ما ينطوي عليه بعض الحيوان من طباع كالأسد وغيره .

٥ ـ كتاب العلم والبيان ، يتكلم فيه المؤلف على منزلة العلم والمعرفة وفضل الكتب وأهميه الحفظ ، ثم قيمة القرآن ، ومكانة الشعر والخطابة ، وعنصر التشبيه .. والفصاحة والبداهة والارتجال ..

٦ ـ كتاب الزهد ، وينطوي على عناصر الدعاء والمناجاة والتهجد والوعظ والكبر والمشيب والموت ، وفيه جانب من كلام النساك والزهاد وأخبارهم وأشعارهم .

٧ ـ كتاب الإخوان ، ويتعرض فيه المؤلف للعلاقات الاجتماعية بين الناس من مثل الحث على المحبة والمعاتبة والوداع والهدايا والتعازي ..

٨ ـ كتاب الحوائج ، أي فيما يحتاج إليه المرء ، وما ينبغي عليه أن يتلطف من أجله المسؤول عند السؤال ، وما يتصل بذلك من الشكر والثناء .

٩ ـ كتاب الطعام ، ويورد فيه ابن قتيبة صنوف الأطعمة وأنواع الفاكهة ، ويتكلم في خلاله على الجوع والصيام والحمية والدواء ..

١٠ ـ كتاب النساء ، ويبحث في أخلاق المرأة وصفاتها ، وما تتسم به من حسن وجمال أو دمامة وقبح وتفصيل ما يكون مستحباً فيها من سواد العيون وطول القامة وحسن الحديث ، أو ما يقابل ذلك من العيوب كالبخر والنتن والعرج ، ثم المهور والزواج والطلاق والولادة والعشق ..

وهذا التقسيم مبني ـ كما هو واضح ـ على مبدأ الموضوعات الأساسية ويذكرنا من جهة أخرى بالتقسيم المقابل الذى اصطنعه أبو تمام في الشعر حين اعتمد أيضاً على مبدأ الأغراض الشعرية البارزة وجعلها كذلك في عشرة أبواب . حتى إننا نجد تشابهاً بين بعض الأبواب من حيث المضمون ، فكتاب الحرب يقابل باب الحماسة ، وكتاب النساء يقابل باب مذمة النساء ، الخ ..

على أننا برغم تقديرنا لهذه الخطوة التي خطاها ابن قتيبة في مضمار التهيج والتنسيق لا بد لنا من أن نتحفظ في هذا الأمر فلا نذهب فيه إلى مداه . فابن قتيبة يظل أبداً ابن عصره فلا يستطيع فكاكاً من الاستطراد لأنه أصبح لدى المؤلفين بمثابة مذهب يصدرون عنه ويلزمون أنفسهم به . وابن قتيبة نفسه بعد أن يتكلم على ميزة التبويب في كتابه لا يلبث أن يقول : « ولم أُخلِ الكتاب مع ذلك من نادرة طريفة وفطنة لطيفة وكلمة معجبة وأخرى مضحكة ، لأروح بذلك على القارىء من كد الجِد وإتعاب الحق ، فان الأذن مجاجة

وللنفس حمضة . وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين .. » .

عني المستشرق الكبير كارل بروكلمان بنشر هذا الكتاب وتحقيقه في المانيا . ثم طبع في مصر اكثر من مرة آخرها طبعة دار الكتب المصرية في أربعة في أجزاء [1] .

---

(١) طبع من عيون الأخبار الأجزاء الأربعة الأولى في « غوتنجن » بألمانيا خلال ١٨٩٩ – ١٩٠٨ بعناية « بروكلمان » وهي طبعة محققة متقنة . وهي كتب السلطان الحرب ـ السؤدد ـ الطبائع ـ الأخلاق .

ثم أعيد طبع الجزء الاول أي كتاب السلطان عام ١٩٠٧ في مصر .

وأخيراً صدر عن دار الكتب المصرية في ٤ مجلدات تباً في الاعوام ١٩٢٤ ، ١٩٢٦ ، ١٩٢٨ ، ١٩٣٠ . وهي طبعة علمية تمتاز بجودة حرفها وحسن ضبطها وإتقان تحقيقها وغنى فهارسها . وقد أعيد نشر هذه الطبعة بطريقة التصوير من قبل وزارة الثقافة في مصر عام ١٩٦٣ .

وعمد أحمد البردوني في مصر إلى اختصار الكتاب فأسماه « المختار من عيون الأخبار » وقد صدر عن وزارة الثقافة .

يعد العقد الفريد في الطليعة من كتب الأدب ، ويقرن مع البيان والتبيين وعيون الأخبار وكامل المبرد وأمالي القالي .. ومؤلفه أحمد بن عبد ربه أندلسي نشأ في قرطبة وعاش في العصر الذهبي الذي بلغت فيه الأندلس أوج ازدهارها ، وأدرك حقبة من حكم الخليفة الناصر في ضحى القرن الرابع .

ويشترك الكتاب مع سائر كتب الأدب في الخصائص التي سادت المؤلفات في ذلك العصر . فهو ذو طابع أدبي موسوعي تتسم مادته بالغزارة والتنوع ، وحوى جانباً وافياً من نصوص الشعر والنثر والخطب والوصايا والرسائل ، كما حوى معارف في الفقه والحديث والتاريخ والعروض واللغة والأخبار . وقد تكلم على ذلك في خطبة كتابه فقال :

« وقد ألفت هذا الكتاب ، وتخيرت جواهره من متخيَّر جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب . وإنما لي فيه تأليف الاختيار ، وحسن الاختصار » .

غير أن لكل كتاب طعماً ومذاقاً ، ولم يكن صاحب العقد جامعاً أو مصنفاً فحسب ، فشخصيته في كتابه كانت أكثر بروزاً ووضوحاً مما عهدنا

لدى كثير من المؤلفين أمثاله . ويتجلى لنا ذلك من وجوه ، منها انعكاس ثقافته الخاصة وميوله المتميزة في كتابه ، من شغف بالموسيقى والغناء والملاحة والحسن ، وميل إلى وصف مجالس اللهو والطرب والشراب . وهذه ملامح اتسم بها أهل الأندلس وعرفوا بها بين أهل المشرق .

ومما يتميز به الكتاب أيضاً أن صاحبه كان شاعراً مبدعاً وكاتباً بليغاً ، فلم يشأ أن يهدر هذه الموهبة الخلاقة دون ان يجري مع فحول الشعر وفرسان الأدب . ويبدو أن اعلام المؤلفين في المشرق كانوا يتحرجون من إدخال منثورهم ومنظومهم في كتبهم ويقتصرون على ما يروونه عن شيوخهم من نتاج المتقدمين في تواضع جم . غير أن ابن عبد ربه كان معتداً بنفسه وأدبه ولا تربطه وشائج التلمذة بكثير من تعرض لأدبهم في عقده ، ولهذا كان يدلي بدلوه بين الدلاء ، فيورد شيئاً من شعره كلما وجد إلى ذلك سبيلاً ، كأن يقول بعد أن يورد لفيفاً من كلام النبي وبعض خلفائه ومن أقوال عدد من الشعراء : « ومن قولنا في هذا المعنى وغيره من مكارم الاخلاق :

المال إن أصلحته يصلح وإن أفسدت يفسد
والعلم ما وعت الصدو ر وليس ما : الكتب يخلد

وقد أعلن المؤلف في خطبة كتابه هذا العزم فقال : « وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الاخبار في معانيها وتوافقها في مذاهبها . وقرنت بها غرائب شعري ، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته ،

وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور » .

وقد دأب ابن عبد ربه في عقده أيضاً على إيراد شذور من نثره المتأنق ، فكان يستهل كل باب من أبواب كتابه بتمهيد من إنشائه لطيف الأسلوب جيد المعاني يسميه « الفرش » يجعله بمثابة مدخل إلى موضوعه . وبذلك كان صاحب العقد مختاراً ومنشئاً معاً .

والظاهرة الأخرى التي انفرد بها ابن عبد ربه أنه عمد إلى حذف الأسانيد من متن كتابه مكتفياً بنسبة القول إلى صاحبه دون أن يورد سلسلة الرواة التقليدية التي درج عليها المؤلفون تحرجاً من مخالفة الأئمة في هذه السنة وتفاديا لما قد يكون من طعن على أمانة المؤلف وصدقه . أما دافع ابن عبد ربه إلى ذلك فكان طلباً للاستخفاف والإيجاز . والحق أن إغفال الأسانيد بات ضروريا بعد أن غزر النتاج الأدبي وبات مثقلاً بها . كما أن أسباب وجوده نفسها قد زالت بعد أن دوّن التراث القديم وأثبت في بطون الكتب . يضاف إلى ذلك أن الحاجة إلى الأسانيد في مجال الفقه والتشريع والحديث أمسّ منها في الشعر والنثر .

كل ذلك ينم على أن شخصية ابن عبد ربه في كتابه لا تختفي وراء ركام ما جمعه من نتاج العرب الغزير في المشرق والمغرب .

على أن هذا الكتاب على جلال قدره لم يصادف هوى في نفوس بعض أهل المشرق لأن ابن عبد ربه وهو المؤلف الأندلسي القرطبي قصر مادة كتابه

أو كاد على أدب المشارقة وحدهم ، فكان يورد أقوالاً وأخباراً عن الأصمعي وأبي عبيدة وأبي عمرو الشيباني وابن الاعرابي والمبرد والجاحظ .. حتى لنخاله لم يبرح بغداد أو البصرة وهو يعكف على تصنيف كتابه ، على حين أنه لم يرحل إلى الشرق قط . والمشارقة كانوا يتلهفون على كل ما يرشح إليهم من نتاج فرعهم الزاكي من وراء البحر . ومن هنا عبر الصاحب بن عباد عن شعور الخيبة تجاه العقد في قولته الشهيرة : « هذه بضاعتنا ردت الينا » .

وأغلب الظن أن ابن عبد ربه بشخصيته النامية ومواهبه المتعددة كان يرى بأسى ومرارة إلى ما كان عليه قومه في الأندلس من إقبال مسرف على أدب المشارقة وإغفال مجحف لأدب رجال الاندلس والمغرب ، فقصد من كتابه إلى غاية مزدوجة ؛ أن يثبت لقومه أن في الأندلس من مثله أناساً يضارعون أعلام الأدب من المشارقة ، كما حرص في الوقت نفسه على أن يرضي فيهم تعطشهم إلي ما كان يصدر عن أبناء أرومتهم في الشرق من اقوال واخبار واحوال ..

ان ابن عبد ربه نفسه على بروز شخصيته بروزاً محدوداً في كتابه لم يستطع ان يخرج عن فلك المشارقة في روايه ادبهم فكان شأنه ايضاً شأن سائر اهل الأندلس . بل إنه ايضاً كان عالة عليهم في منهج كتابه نفسه . فقد قسم كتابه ابواباً ، بينها وبين ابواب كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة شبه كبير ؛ فالباب الأول عنده في السلطان والثاني في الحروب على غرار نظيريهما في عيون الاخبار . كما ان ابواب العلم والأدب ، المواعظ والزهد ، الطبائع ،

الطعام ، النساء ، سبق ايضاً ان رأيناها في كتاب ابن قتيبة . كما اسمى ابن عبد ربه كل باب كتاباً على غرار ما فعل سلفه في عيون الاخبار . حتى إننا نجد ملامح هذا التأثر في فقرات من خطبة العقد نفسها وفي بعض ما تضمنه صلب الكتاب . والحق ان شهرة ابن قتيبة في الأندلس كانت واسعة حتى لتعاب كل مكتبة لاتحوي بعضاً من مصنفاته بأنها لا خير فيها . ومن الغريب أن ابن عبد ربه برغم اتكائه على عيون الاخبار إلى هذا المدى أغفل الاشارة إلى سلفه فلم يذكر في ذلك فضل المتقدم ، وهكذا غمطه حقه .

على أن منهج ابن عبد ربه في العقد الفريد يمتاز في الوقت نفسه بطرافة عرف بها أهل الأندلس وتنم على ميلهم إلى الزخرفة والتلوين وجنوحهم إلى التنظيم والتناظر . فقد تصور كتابه عقداً كما آثر ان يسميه [1] . فجعله مؤلفاً من خمس وعشرين جوهرة كريمة ، اثنتا عشرة في جانب ، وهي : اللؤلؤة ، الفريدة ، الزبرجدة ، الجمانة ، المرجانة ، الياقوتة ، الجوهرة ، الزمردة ، الدرة ، اليتيمة ، العسجدة ، المجنبة . واثنتا عشرة أخرى تقابلها في جانب العقد الآخر ، تناظر فيه كل حبه مثيلتها في الجانب الاول وتحمل اسمها نفسه . وثمة حبة تتوسط طرفي العقد أسماها « الواسطة » وهي عادة أنفس جواهر العقد .

---

(١) يغلب على الظن أن نعت العقد بالفريد إنما لحق باسم الكتاب بعد عهد مؤلفه . وابن خير الذي يعد عمدة في تراجم علماء الأندلس يورد الكتاب في فهرسته باسم « العقد » فيقول : « كتاب العقد لابي عمر احمد بن محمد بن عبد ربه ... وكان شيخ أدباء الاندلس ... » .

وهكذا كان الباب الاول في الكتاب : « اللؤلؤة » في السلطان والباب الثاني : « الفريدة » في الحروب . . وبعد ذلك الباب الثاني عشر : « المجنبة » في الأجوبة فباب « الواسطة » في الخطب . وبعد ذلك تبدأ أبواب الجانب الآخر بباب : « المجنبة الثانية » « فالمسجدة الثانية » حتى تنتهي أبواب الكتاب كما ابتدأت بباب : « اللؤلؤة الثانية » في الفكاهات والملح . وبذلك يكتمل العقد .

وقد طبع كتاب العقد الفريد طبعات كثيرة معظمها رديء ، حتى قيض له أن ينشر نشراً علمياً . ففي عام ١٩٤٠ ظهرت له طبعتان جيدتان الاولى بتحقيق محمد سعيد العريان في ثمانية أجزاء ، والاخرى بتحقيق أحمد أمين ورفيقيه ، وهي في سبعة أجزاء يقتصر الاخير منها على فهارس كثيرة قيمة [1] .

---

(١) سبق للعقد الفريد أن طبع في مصر ببولاق سنة ١٢٩٣ هـ ، ١٨٧٦ م ثم في ١٣٠٢ هـ ، ١٨٨٤ م ثم في ١٣٠٥ هـ ، ١٨٨٧ م ، ثم في ١٣١٦ هـ ، ١٨٩٨ م ، ثم في ١٣٢١ هـ ، ١٩٠٣ م ، ثم في ١٣٣١ هـ ، ١٩١٢ م ، ثم في ١٣٥٣ هـ ، ١٩٣٤ م .. وأكثرها غير محقق ولامضبوط .

وقد ظهرت طبعة العريان سنة ١٩٤٠ عن مطبعة الاستقامة ثم أعيد نشرها سنة ١٩٥٣ . والطبعة الاخرى للعقد كانت بعناية أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الابياري وصدرت عن لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ثم اعيد نشرها ثانية ، ثم ثالثة سنة ١٩٦٥ . وتمتاز طبعة أحمد أمين بفارسها الوافية وتبلغ اثنى عشر فهرساً ، وهي أفضل الطبعات .

كتاب الامالي

الأمالي جمع إملاء على غير قياس أو أنها جمع املية كأغنية وأحجية وأثفية وأمسية . قال حاجي خليفة صاحب « كشف الظنون » يصف التأليف في هذا الفن : « هو أن يقعد عالم وحوله تلاميذه بالمحابر والقراطيس ، فيتكلم عما فتح الله سبحانه وتعالى عليه ، ويكتبه التلاميذ فيصير كتاباً ، ويسمونه الإملاء والأمالي . وكذلك كان السلف من الفقهاء والمحدثين وأهل العربية » .

فالأمالي كل ما يمليه شيخ على طلابه في العلوم والمعارف المختلفة من فقه وتفسير وحديث نبوي ولغة ونحو وأدب . وهي في رأينا تطابق في مدلولها كلمة « المحاضرة » في العصر الحديث . وليس من فارق بين الأمالي وبين المحاضرات سوى أن الامالي تملى في الغالب من الذاكرة وارتجالاً عن ظهر قلب ، على حين تتلى المحاضرة من أوراق أعدت من قبل . وبتعبير آخر ان المحاضرة صورة جديدة ومتطورة للاملاء تتسم بالتركيز ووحدة الموضوع .

وكثيراً ما كان المؤلفون في القديم يستعيضون عن كلمة أملية أو إملاء بكلمة « مجلس » وثمة كتب تحمل هذا الاسم أهمها « مجالس ثعلب » وتعرف أيضاً بأمالي ثعلب .

ومن هنا كثرت الكتب التي تحمل اسم الأمالي كثرة بالغة في تراثنا العربي . ولا يعنينا من هذه الكتب إلا ما كان في اللغة والأدب وهو أيضاً كثير يتعذر عده [1] .

أما كتاب الأمالي لأبي علي القالي البغدادي فلعله أشهر كتب الأمالي قاطبة . ولذلك يمكننا أن نتخذه نموذجاً ينم على سائر الكتب في الموضوع . وكثيراً ما يطلق على أمالي القالي اسم « النوادر » ولعل هذه التسمية من قبيل إطلاق الجزء على الكل ، فالمعروف أن جزءاً من الكتاب يلي الأمالي كان مؤلفه قد ألحقه به وأسماه « النوادر » كما أن الكتاب يعرف أيضاً باسم « النوادر والأمالي » .

وقد عرف القدماء فضل الأمالي وقدموه فجعلوه ، كما يروي ابن خلدون ، أحد الكتب الأربعة المتقدمة إلى جانب الكامل والبيان والتبيين وأدب الكاتب .

ألف ابو علي البغدادي كتابه الأمالي في قرطبة بعد ان رحل إلى

---

(١) من هذه الكتب : أمالي ثعلب – ٢٩١ هـ ، ٩٠٣ م ، أمالي اليزيدي – ٣١٠ هـ ٩٢٢ م ، أمالي ابن دريد – ٣٢١ هـ ، ٩٣٣ م ، أمالي أبي بكر الانباري – ٣٢٨ هـ ، ٩٣٩ م ، أمالي الزجاج – ٣١٦ هـ ، ٣٢١ م ، أمالي الزجاجي – ٣٤٠ هـ ، ٩٥١ م ، أمالي القالي – ٣٥٦ هـ ، ٩٦٦ م ، أمالي بديع الزمان الهمذاني – ٣٩٨ هـ ، ١٠٠٧ م ، أمالي المرزوقي – ٤٣١ هـ ، ١٠٣٩ م ، أمالي المرتضى – ٤٤٦ هـ ، ١٠٥٤ م ، أمالي أبي العلاء – ٤٤٩ هـ ، ١٠٥٧ م ، أمالي ابن الشجري – ٥٤٢ هـ ، ١١٤٧ م ، أمالي الزمخشري – ٥٣٨ هـ ، ١١٤٣ م أمالي ابن الحاجب – ٦٧٢ هـ ، ١٢٧٣ م . . .

الأندلس ملياً دعوة خليفتها الناصر ثم أهداه إلى ابنه الحكم الأموي .

والكتاب ليس أدبياً محضاً ، فقد غلب عنصر اللغة على كثير من جوانبه فهو أقرب ما يكون إلى كامل المبرد ومجالس ثعلب . قال ابن حزم : « كتاب نوادر أبي علي مبار لكتاب الكامل الذي جمعه المبرد . ولئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحواً وخبراً فان كتاب أبي على أكثر لغة وشعراً »[1] . والقالي نفسه يتكلم على محتوى كتابه فيقول في خطبته : « .. واودعته فنوناً من الأخبار وضروباً من الأشعار وأنواعاً من الأمثال وغرائب اللغات . على أني لم أذكر فيه بابا من اللغة إلا أشبعته ولا ضرباً من الشعر إلا اخترته ولا فناً من الخبر إلا انتخلته ولا نوعاً من المعاني والمثل إلا استجدته . ثم لم أخله من غريب القرآن وحديث الرسول » .

فادة الأمالي كما أرادها أبو علي أمشاج من الأخبار والأشعار والأمثال يتخللها شيء من تفسير القرآن وحديث الرسول . ويغلب على ذلك كله الطابع اللغوي الذي يميز الكتاب .

إن غزارة المادة في أمالي القالي سمة بارزة فيه ، فهو غني بنصوص الشعر والنثر مما يعز وجوده في كثير من الكتب . ولكننا إذا تساءلنا عن المنهج الذي آثره القالي في كتابه القيم هذا خاب أملنا . انه أشبه بمنجم من المعادن الثمينة تناثرت كنوزه وتوعرت اليه الدروب . وهذه السنة في التأليف ابتدعها

---

(١) معجم الأدباء ٧ : ٢٨ .

الجاحظ وقلما استطاع المؤلفون بعده ان يتحرروا منها . وكان جديراً بالقالي وقد عاش في القرن الرابع أي بعد المرحلة الجاحظية بأكثر من قرن ان يعمد إلى شيء من تنسيق الاشباه والنظائر في كتابه . فقد رأينا عدداً ممن عاصره بل سبقوه كابن قتيبة وابن عبد ربه يعمدون إلى نوع من التبويب في مصنفاتهم الكبيرة برغم بقاء ظاهرة الاستطراد فيها . ولعل من أسباب ضعف التبويب وقلة التنظيم في كتاب الأمالي أن مؤلفه كان يعتمد على طريقة الإلقاء والإملاء من محفوظه وعن ظهر قلبه . وقد كان جمع ما صدر عن شيوخ العلم المتقدمين شاغله الأول . ومما قاله ابو علي في ذلك :

« . فأمللت هذا الكتاب من حفظي في الأخمسة بقرطبة وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة » ثم يقول : « لما رأيت العلم أنفس بضاعة أعملت نفسي في جمعه ، وشغلت ذهني بحفظه ، حتى حويت خطيره ، واحرزت رفيعه ، ورويت جليله ، وعقلت شارده ، ورويت نادره .. » وهذا النص واضح الدلالة على حرص ابي علي على الجمع والاستيعاب ، شأنه في ذلك شأن اكثر المؤلفين القدامى . وقد ذكر ابن بسام ان ابا علي كان يقول لأهل الأندلس : « إن علمي علم رواية وليس بعلم دراية ، فخذوا عني ما نقلت » وفي هذا القول ايضاً ما يكشف عن طابع كتاب ابي علي فضلاً عن انه ينم على تواضعه وهو ما هو بين العلماء في عصره . وقلما نقع خلال الأمالي على فقرة لا تبدأ باحدى العبارات التقليدية المألوفة : حدثنا او أنشدنا او قرأت على فلان ..

وأغلب الظن ان أبا علي كان يأنس من أهل الاندلس وجمهور قرطبة

شغفاً بأخبار المشارقة وإقبالاً على علمهم وأدبهم فيعمد من جهته إلى ارضاء هذا التطلع في نفوسهم ويحرص على أن يبهرهم بسعة محفوظه وغزارة علمه ، وكأنه يضع بين يديهم حصيلة ما حواه شيوخه وما آل اليه منهم ، ومما يؤيد هذه الرغبة في نفسه أنه وهو المعدود على مذهب البصريين كان لا يتردد في النقل عن الكوفيين وأحياناً عن بعض الكوفيين غير الموثقين .

على انا قد نظلم القالي إذا عددناه في كتابه جامعاً حافظاً للنصوص فحسب، فالحق انه فقيه لغوي قل نظيره ، مقتدر على شرح العويص من معاني الألفاظ ، بل انه فوق ذلك ذواقة للنصوص ، بصير بجميل الشعر والنثر . ولعل قيمة كتابه الحقيقية انما تكمن في هذه الناحية . إن كتاب الأمالي قبل كل شيء مختارات أدبية رفيعة تمتاز في الغالب بالأصالة والندرة وتنطوي في الوقت نفسه على الفائدة والمتعة .

وقد نشر كتاب الأمالي أول مرة في مصر بمطبعة بولاق سنة ١٣٢٤ هـ ، ١٩٠٦ م . ثم طبع في دار الكتب المصرية عام ١٩٢٦ وتكررت بعد ذلك طبعاته (١) .

---

(١) طبعة دار الكتب تتألف من جزءين يليهما جزء ثالث هو ذيل الأمالي والنوادر . ثم جزء رابع صغير هو كتاب النوادر .

وكان من أصداء شهرة الأمالي أن أبا عبيد البكري الأندلسي نشط لشرحه وتفسير نوادره في كتابين يحمل احدهما اسم « اللآلي في شرح أمالي القالي » ، والثاني « التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه » .

كتاب الاغاني

أبو الفرج علي بن الحسين عالم اديب من اصبهان قرشي الأصل بغدادي المنشأ . كان عالماً بأيام العرب وانسابهم وسيرهم واخبارهم ومغازيهم ، حافظاً للشعر والحديث ، ملماً بالطب والفلك والموسيقا ، وكان شاعراً كاتباً ناقداً . وقد عاش إبان القرن الرابع الهجري ، وتوفي سنة ٣٥٦ ﻫ ، ٩٦٦ م ، وهي ايضاً سنة وفاة القالي وسيف الدولة وكافور ..

ومؤلفات أبي الفرج كثيرة[١] ، وكان يؤلفها سراً لأمراء الأندلس ويبعث بها اليهم ، فيبعثون اليه بالجوائز ، غير ان اعظمها كتاب الأغاني . وقد قدمه إلى سيف الدولة فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه لقلة المبلغ . وكان الحكم الأندلسي « قد بعث في كتاب الأغاني الى مصنفه ابي الفرج الاصفهاني وارسل اليه فيه بألف دينار من الذهب العين فبعث اليه بنسخة منه قبل ان يخرجه الى العراق »[٢] . ويروى ان الصاحب بن عباد كان يستصحب حمل ثلاثين جملاً

(١) من هذه الكتب : القيان ، كتاب الخمارين والخمارات ، الاماء ، الشواعر ، الديارات ، النغم ، الحانات ، مقاتل الطالبيين ، أيام العرب ، ادب السماع ، كتاب الغلمان المغنين ، أخبار الطفيليين ، كما جمع ديوان ابي تمام وديوان البحتري ولم يرتبهما على الحروف بل على الأنواع .

(٢) المقّري ، في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١ : ٣٦٢

من الكتب فاستغنى عنها باصطحاب كتاب الأغاني . فهـو مكتبة في كتاب ، ويقال انه جمعه في خمسين سنة .

وكتاب الأغاني لا يدانى في منزلته وغزارة مادته ، فقد اجتمع فيـه ما لم يجتمع لسواه من تراث العرب الأدبي . وقد استوعب ثقافة عصره وحصيلة معارفه وحوى عيون النثر والشعر والقصص والأخبار والتاريخ والاجتماع والمجون والجد والغناء وتراجم الأدباء ..

والأغاني فضلاً عن ذلك كله يعد في مادته مصدراً ثميناً لدراسة الحيـاة الاجتماعية في عصره . وهنا تكمن قيمته الحقيقية برغم ان ابا الفرج نفسه لم يفطن إلى اهمية هذا الجانب عندما كان يؤلف كتابه . فنحن بعـد الف عام نرى من خلاله كيف كانت الكتاتيب في تلك الأيام وكيف كان الطلاب يختلفون إلى المساجد . كما نلمس فيـه ايضاً تقاليد النـاس وعاداتهم وما كانت عليه مجالس طربهم واجناس شرابهم وأنواع زينتهم ومآكلهم وأزيائهم . وهو ينطوي على وصف حي للجواري والقيان وآلات الطرب ، وفيه تصوير طريف لحياة القصور وانماط بنائها وأثاثها وحياة الترف في جنباتها . ومن خلال الأغاني أيضاً نقف على حال المرأة وما كان يعتري حياة الناس من مظاهر الحرية والعبودية والترف والحرمان والنعيم والشقاء .

« جمع أبو الفرج في كتابه ـ كما يقول ابن خلدون ـ أخبـار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم . وجعـل مبناه على الغناء في مئة الصوت

التي اختارها المغنون للرشيد . . » وقد استهل المؤلف كتابه الكبير بالكلام على الأصوات التي بنى عليها كتابه، فأورد ما ذكره اسحق بن إبراهيم الموصلي من أن الرشيد أمر أباه إبراهيم باختيار أصوات من الغناء القديم فاختار له من من غناء أهل كل عصر ما اجتمع علماؤهم على براعته وإحكام صنعته ونسبته الى من شدا به ، ثم أتى الى المحدثين واخذ يورد لهم ما يطابق هذه الاصوات. وبعد ان اختار إبراهيم وابن جامع الأصوات المائة أمرهم باختيار عشرة فاختاروها، ثم ان يختاروا ثلاثة ، ومنها لحن المغني معبد في شعر أبي قطيفة الشاعر القرشي الذي نفاه عبد الله بن الزبير ، ثم لحن ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة ، ثم لحن ابن محرز في شعر نُصيب ...

ولنستمع إلى أبي الفرج نفسه يتكلم على منهجه في كتابه فيقول : « هذا كتاب ألفه أبو الفرج .. وجمع فيه ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية قديمها وحديثها ، ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره وصانع لحنه وطريقته من إيقاعه ، وإصبعه التي ينسب إليها من طريقته . . وأتى في كل فصل من ذلك بنتف تشاكله ولمع تليق به ، وفقر إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلاً بها من فائدة إلى مثلها ومتصرفاً فيها بين جد وهزل وآثار وأخبار وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة » .

ونستنتج من خطبة أبي الفرج في كتابه ان الباعث الأول على تأليفه الكتاب وعلى تبويبه إنما هو جمع الاغاني وأنه اضطر الى اتباع هذا المنهج الخاص لأنه كان عليه أن يبدأ بذكر الأصوات الثلاثة المختارة وما استتبع ذلك

من ارتباطها بشعراء متأخرين في الزمان وليسوا من المشهورين او المعدودين في المتقدمين . ومن هنا فانسا لا نجد للأغاني ، باعتباره كتاباً أدبياً بين أيدينا ، منهجاً معلوماً تندرج فيه المادة الغزيرة تحت أبواب أو تتسلسل على حسب أزمان أو نحو ذلك من نظام . ومن هنا تدفقت المادة في الكتاب أخلاطاً كما كان شأنها في سائر كتب الأدب القديم ، وكان يلفها الاستطراد أيضاً في كثير من الاحيان .

حتى ان ما سبق ان أورده الجاحظ في هـذا الصدد نسمعه ثانية من أبي الفرج وهو يقول : « وفي طباع البشر محبة الانتقال من شيء الى شيء ، والاستراحة من معهود إلى مستجد ، وكل منتقل اليه أشهى الى النفس من المنتقل عنه . فما رتبناه أحلى وأحسن ليكون القارىء له بانتقاله من خبر إلى غيره ومن قصة إلى سواها ومليك إلى سوقة وجـد إلى هزل أنشط لقراءته وأشهى لتصفح فنونه » .

ولا شك أن ما رآه أبو الفرج مزية نراه نحن اليوم عيباً لأن في ذلك الاستطراد والتنقل ما يخل باتساق البحث ووحدة الموضوع . ويبقى كتاب الأغاني في الذروة من كتب الأدب ليس بوسع باحث أن يستغني عنه .

وقد طبع الأغاني عدداً من المرات بعضها لم يتم وأشهرها طبعة الساسي في مصر وهي في ٢١ جزءاً عـدا جزءي الفهارس ، ثم طبعة دار الكتب المصرية

وهي أجود الطبعات غير أنه لم يصدر منها سوى ١٦ جزءاً [١] .

وقد عني القدماء والمحدثون بهذا الكتاب فعملوا على تلخيصه أو اعادة ترتيبه ، كما عني احد المستشرقين بوضع فهارس شاملة له . وكانت حصيلة ذلك كتباً كثيرة [١] .

---

(١) صدرت طبعة محمد الساسي سنة ١٣٢٣ هـ ، ١٨٠٨ م ، وطبعة دار الكتب سنة ١٩٢٧ م ثم صدرت في بيروت طبعات أخرى .

(٢) من هؤلاء في القديم : ابن ناقيا البغدادي (٤١٠ - ٤٨٥ هـ) ، وقد ذكر ابن خلكان أنه في مجلد واحد . واسم كتابه « مختصر الأغاني » ، وابن واصل الحموي (- ٦٩٧ هـ) في كتابه « تجريد الاغاني من ذكر المثالث والمثانى »، وقد تولى تحقيقه طه حسين وابراهيم الأبياري ، وهو في سبعة أجزاء . ومختصر ابن واصل هذا يحافظ على ترتيب الكتاب الأم . ولصاحب « لسان العرب » ابن منظور (- ٧١١ هـ) مختصر آخر اسمه « مختار الأغاني في الاخبار والتهاني » غير أنه خالف فيه الأصل فرتب الشعراء والمغنين ترتيباً معجمياً . وقد نشره معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية وصدر في سلسلة « تراثنا » عن الدار المصرية للتأليف والترجمة ، وهو في ثمانية أجزاء ، حققها تباعاً ابراهيم الأبياري وعبد الستار فراج وأبو الفضل ابراهيم وطه الحاجري وحسين النصار ..

أما الأحدثون ففي طليعتهم أنطون الصالحاني الذي اختصر كتاب الأغاني في مجلدين اثنين وأسماه « رنات المثالث والمثاني في روايات الأغاني » وقد طبع سنة ١٨٨٨ في بيروت ثم اعيد طبعه سنة ١٩٢٣ .

وقد اختصر محمد الخضري كتاب الأغاني وعلق عليه . وقد استغرق ذلك منه ثمانية أجزاء صدرت باسم « مهذب الأغاني » . وهذا المهذب ينطوي على تصرف كبير أباحه الخضري لنفسه في اصل الكتاب ، فقد حذف منه الاسانيد وما لم يستحسن ذكره من الفحش . كما غير في ترتيبه فجعله في قسمين : الاول

زهر الآداب

أبو إسحق الحصري القيرواني أديب من المغرب العربي عاش في القيرواني خلال النصف الأول من القرن الخامس . كان شاعراً وناثراً [1] .

واسم كتابه « زهر الآداب وثمر الألباب » وهو كتاب أدبي محض

للشعراء ، والثاني للمغنين . والشعراء صنفهم طبقات على حسب العصور الثلاثة ، ومهد لذلك كله بمقدمة انتقد فيها منهج ابي الفرج واستطراده .

أما فهرسة الأغاني فهي عمل جليل قام به مستشرق فرنسي . وهذا الفهرس هو الدليل الذي لا يخيب ويرشد بيسر الى بغية الباحث في تضاعيف الكتاب الكبير . وقد نقله الى العربية (محمد مسعود) وقام بمطابقته على صفحات الطبعة العربية (وهي طبعة الساسي) .

وينطوي فهرست الاغاني على مجموعة من الفهارس عددها أربعة ، ويبلغ مجموع صفحاتها اكثر من ٩٠٠ صفحة وهي :

١ - فهرس اسماء الشعراء .
٢ - فهرس القوافي .
٣ - فهرس اسماء الرجال والنساء والقبائل ، وهو معظم الفهرست .
٤ - فهرس اسماء الامكنة والجبال . وهو اصغر الفهارس .

(١) أبو اسحق هذا ابراهيم بن علي المتوفي سنة ٤٥٣ هـ ، ١٠٦١ م غير أبي الحسن علي بن عبد الغني القيرواني وان كانت بينهما قرابة . وأبو الحسن القيرواني المتوفي سنة ٤٨٨ هـ ، ١٠٩٥ م شاعر عرف بقصيدته التي مطلعها :

ياليل الصب متى غده ... اقيام الساعة موعده

لم يعن فيه صاحبه بالنحو والتصريف واللغة ، وإنما قصر فيه الكلام على فن القول من شعر ونثر وما يتصل بذلك من ضروب البلاغة وجمال الصياغة واصابة التشبيه وحسن الانشاء وجودة الخطابة .

وتتجلى ظاهرة الجمع بارزة في كتابه حيث يعمد في غالب الأحيان الى سرد النصوص وايراد الأخبار دون أن تبدو له مشاركة من رأي أو تعليق. كما ان كتابه يفتقر الى شيء من نظام أو تنسيق ، فهو مثلاً يتكلم في مستهل كتابه على الزبرقان بن بدر ثم على علية بنت المهدي ثم على الشعر والبيان عامة ثم على الرسول وبعض اقواله وبعد ذلك يتكلم في زهير وشعره.. وهكذا يمضي دون التقيد بعصر أو بموضوع . وقد وصفه بعض القدماء بأنه (جمع كل غريبة) وهذا الوصف مطابق لحال الكتاب .

يغلب الجد على كتاب ابي إسحق فيحرص على أن يكون في دائرة الخلق والدين بعيداً عن العبث والمجون [١] ، ويعنى باخبار الصحابة والتابعين وبأقوالهم تدينا منه وورعا .

ومما يعلنه المؤلف في خطبة كتابه قوله : (وبعد ، فهذا كتاب اخترت

(١) أبو إسحق هذا ابراهيم الحصري ألف كتاباً خاصاً في الملح والنوادر أسماه « جمع الجواهر في الملح والنوادر » ويعرف أيضاً باسم ذيل زهر الآداب . وقد نشر في جزء واحد في طبعة علمية جيدة .

فيه قطعة كافية من البلاغات في الشعر والخبر والفصول والفقر مما حسن لفظه ومعناه ... وليس لي في تأليفه من الافتخار أكثر من حسن الاختيار . واختيار المرء قطعة من عقله »

وقد عني أبو اسحق بموضوع الوصف عناية خاصة فأكثر من ايراد النصوص في وصف الليل ووصف البلاغة ووصف الماء ووصف الرعد والبرق ووصف الحسن ووصف المشيب .. وقد غلب السجع على عبارته بعد أن أصبح ذلك ظاهرة فنية من أسلوب هذا العصر ، فكان مما ذكره واصفاً محاسن المرأة : « بدر التم يضيء تحت نقابها ، ونبت الدر من فمها ، وملقط الورد من خدها ، ومنبع السحر من طرفها ، ومبادي الليل من شعرها ، ومغرس الغصن من قدها .. » .

وقد طبع « زهر الآداب » مرات في مصر آخرها طبعة مشروحة مضبوطة صدرت عام ١٩٥٣ بعناية محي الدين عبد الحميد [١] .

---

(١) طبع زهر الآداب أول الأمر في مصر على هامش العقد الفريد . ثم طبع على انفراد طبعة رديئة . وفي عام ١٩٢٥ صدر بعناية زكي مبارك بشروح موجزة في أربعة أجزاء ثم تكررت طباعته عام ١٩٢٩ . وأخيراً كانت طبعة محي الدين عبد الحميد وهي من أجود الطبعات عام ١٩٥٣ ، وطبعة علي البجاوي في العام نفسه وهي متقنة ذات فهارس .

نهاية الأرب

منذ أن اجتاح التتار بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، ١٢٥٨ م ، دالت دولة العباسيين وابتدأ عهد من الضعف والركود في الفكر والأدب ، عرف بعصر الانحدار أو الانحطاط . غير أن هذا العصر شهد في مصر والشام نشاطاً ملحوظاً في تأليف المصنفات الواسعة في اللغة والأدب والتاريخ والاجتماع . وكان طابع هذه المصنفات موسوعياً مسهباً .

وكتاب « نهاية الأرب في فنون الأدب » نموذج بارز لهذا اللون من التأليف . فقد ألفه شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري المصري المتوفي سنة ٧٣٣ هـ ، ١٣٣٢ م ، واستغرق أثنين وثلاثين مجلداً . وهو يضم مادة وافية مطولة في معارف شتى ، منها الأدب والتاريخ والجغرافيا والفلك وتقويم البلدان والحيوان والنبات . . الخ ولم يعن فيه صاحبه بالنحو واللغة .

والكتاب وان كان شأنه شأن أكثر المصنفات في عصره من حيث افتقاره إلى الأصالة والابتكار لكنه يمتاز بحسن تأليفه وإحكام تبويبه ، فقد بلغ فن التأليف آنئذ مرحلة متقدمة .

جعل النويري كتابه خمسة فنون كبرى ، وكل فن يحتوي خمسة أقسام ،

وكل قسم يتضمن عدداً من الأبواب تقل أو تكثر وذلك على النحو التالي :

الفن الأول : في السماء والآثار العلوية والارض والمعالم السفلية

القسم الأول : في السماء وما فيها (خلق السماء ، الملائكة ، الكواكب ..)
القسم الثاني : في الآثار العلوية (السحاب ، الثلج ، الهواء ، النار ..)
القسم الثالث : في الليالي والأيام والشهور والأعوام ..
القسم الرابع : في خلق الأرض والجبال والبحار والأنهار ..
القسم الخامس : في طبائع البلاد وأخلاق سكانها .

الفن الثاني : في الانسان وما يتعلق به ، وهو أيضاً في خمسة أقسام والاقسام تتفرع بدورها إلى فصول على غرار ما سبق .

الفن الثالث : في الحيوان .

الفن الرابع : في النبات .

الفن الخامس : في التاريخ وهو أطول الفنون ، يبدأ فيه القول منذ عهد آدم حتى عهد السلاجقة والتتار .

وقد طبعته دار الكتب المصرية طباعة جيدة ولكنها لم تنجزه كاملاً [1] .

---

(١) لم تنجز دار الكتب المصرية نشر الكتاب فبقي ناقصاً كالاغاني . فقد أصدرت ١٨ جزءاً منه يقف الجزء الثامن عشر منها عند تاريخ الخلفاء الراشدين على حين ما زال باقي الكتاب ــ ويستغرق نحو ١٤ جزءاً ــ مخطوطاً .

صبح الأعشى

أبو العباس القلقشندي مصنف مصري آخر من مخضرمي القرنين الثامن والتاسع . كان فقيهاً وكاتباً لديوان المماليك . وبرع في الإنشاء على مذهب عصره في إيثار المحسنات البديعية والتزام السجع وهو ما عرف به أيضاً القاضي الفاضل في نثرة المقيد . وهذا واضح من عنوان كتابه « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » .

والكتاب ذو طابع موسوعي مسهب شأن نهاية الأرب قبله وإن يكن دون حجمه . وموضوعه يدور في فلك أضيق من كتاب النويري ويقتصر على تناول صناعة النثر الفني وكتابة الإنشاء ، وما يتطلبه الكاتب من معرفة اللغة والنحو والتصريف والبيان والبديع وحفظ القرآن والأمثال والأنساب وأنماط الخطوط . ويعرض فيه للمكاتبات وأصولها والدواوين ومصطلحاتها ، وأحوال الممالك الإسلامية والولايات والعهود والمواثيق ومبايعة الملوك والخلفاء ، والسنة الشمسية والقمرية ثم نظام البريد والرسائل والحمام الزاجل . . والإجازات التي يمنحها العلماء طلابهم في الفتيا والتدريس ..

وللمؤلف في خلال كتابه عناية بذكر الأوائل في مختلف المجالات ، ففي موضوع الحرب وآلاته يذكر أن أول من ركب الخيل إسماعيل وأول من

اتخذ الدروع داود وأول من اتخذ المنجنيق وادرأ بالحصون الاسكندر ، وأول حرب في الاسلام صفين وأول لواء في الاسلام عقده النبي لحمزة . كذلك أول من قصد القصائد مهلهل وكانت قبله مقطعات وأول من أطال الرجز العجّاج وكان قبله شطوراً وأجزاء . وقد تخلل ذلك كله نصوص وافية من الشعر والنثر والرسائل والخطب والأخبار ...

أما المنهج الذي اصطنعه صاحب صبح الأعشى فهو شبيه بمنهج نهاية الأرب . وقد أوضح القلقشندي ذلك في خطبة كتابه فقال : « وقد رتّبته على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة » . والمقدمة عنده مسهبة تنطوي على عدد من الأبواب وكل باب يضم عدداً من الفصول يتناول فيها بالتفصيل فضل الكتابة وترجيح النثر على الشعر ونشوء ديوان الانشاء في الاسلام وتطوره .

وأما المقالات ـ وهي تقابل الفنون في نهاية الأرب ـ فعددها عشر ، وكل مقالة تضم عدداً من الأبواب الكبيره ، وكل باب يتفرع بدوره إلى عدد من الفصول .

صدر صبح الاعشى في مصر في ١٤ جزءاً (١) .

---

(١) استغرق صدوره عشر سنين من ١٩١٠ – ١٩٢٠ ثم أعيدت طباعته تصويراً في سنة ١٩٦٣ في سلسلة « تراثنا » عن وزارة الثقافة والارشاد القومي .

ولصبح الاعشى مختصر للمؤلف نفسه اسمه « ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر » . طبع الجزء الاول منه في مصر ١٣٢٤ ﻫ ، ١٩٠٦ م .

نفح الطيب

يعد أبو العباس المقّري خاتمة المؤلفين الكبار من السلف [1] . له بضعة عشر مصنفاً ، أهمها « نفح الطيب في غصن الأندلس والرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » . ولد في تلمسان بالجزائر وانتقل إلى فاس في أقصى المغرب ثم قصد إلى الحج واستقر في مصر وراح يدرّس في الأزهر إلى أن توفي سنة ١٠٤١ هـ ، ١٦٣١ م .

والكتاب من المؤلفات المسهبة القليلة التي قصرت مادتها الأدبية على الأندلس . وكانت نية المؤلف أن يكتفي في كتابه بالتعريف بلسان الدين بن الخطيب أديب الأندلس ومؤرخها ووزيرها ، لأنه كان معجباً به أشد الإعجاب . ولكنه ـ كما ذكر في خطبة كتابه ـ رأى أن يوسع نطاق بحثه ليشمل سائر الحياة الأدبية في الأندلس . ولعل هذا الانتقال من زاوية إلى أخرى في البحث مثال بارز أيضاً على ظاهرة الاستطراد التي لازمت مصادر التراث العربي وتجلت بوجه خاص في نفح الطيب . ففي الكتاب عدا ذلك استطرادات جمة وتنقل

---

(١) المقري بالتشديد نسبة الى قرية مقّرة في شمالي افريقية وبعض العلماء يرجح السكون في القاف . انظر تفصيل ذلك في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، عدد كانون الثاني ١٩٧١ بقلم عبد القادر زمامة .

عابر ضمن الموضوع الواحد ، وتكرار في مواضع متعددة .

وطابع الكتاب أدبي ، فقد حوى نصوصاً وافية من الشعر والنثر وطائفة كبيرة من شؤون التاريخ والاجتماع . وهو في الوقت نفسه كتاب في التراجم تكلم فيه على كثير من أعلام الأندلس في مقدمتهم لسان الدين بن الخطيب . وهذه العناصر كلها متداخلة لا تخضع لنسق معين . أما الاسلوب فيغلب عليه التأنق اللفظي والتزام السجع إلى حد التكلف أحياناً .

وقد وضع المقري لكتابه الكبير مقدمة مسهبة تحدث فيها باسهاب عن ارتحاله من المغرب قاصداً إلى ربوع المشرق . وفي نهايتها يوضح منهجه في كتابه . أما سائر الكتاب فقد جعله في قسمين كبيرين في كل قسم عدد من الأبواب :

القسم الأول : في الأندلس ووصفها وجغرافيتها ومناخها وفتح العرب لها ، وذكر بلدانها وأحوال سكانها ومن رحل عنها إلى المشرق ومن وفد اليها من المشرق ، وأخيراً سقوط الأندلس . وهذا القسم يستغرق أكثر من نصف الكتاب ويفوق القسم الثاني في أهميته .

القسم الثاني : في التعريف بلسان الدين بن الخطيب . وتتضمن أبوابه كل ما يتصل بهذا الوزير الأديب باسهاب من حيث نسبه وبيئته وأسرته

ثم حياته الأدبية والسياسية ومشايخه وتلامذته ونثره ونظمه وموشحاته ومؤلفاته

وقد طبع الكتاب طبعات متعددة في مصر آخرها بتحقيق محي الدين عبد الحميد [1] وصدرت عام ١٩٤٩ .

---

(١) طبع نفح الطيب في مصر بمطبعة بولاق سنة ١٢٧٩ هـ ، ١٨٦٢ م . ثم طبع في المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢ هـ ، ١٨٨٤ م ، وهي تكرار للأولي وأكثر أخطاء منها .

وفي ليدن طبع القسم الأول من الكتاب وهو القسم الخاص بالاندلس ويشكل أكثر من نصف الكتاب وذلك سنة ١٨٥٥ .

وقد عمدت دار المأمون في مصر الى طبع الكتاب ولكنها لم تنجز منه سوى ٩ أجزاء تشكل أقل من ربع الكتاب . وهذه الطبعة جيدة مشكولة .

وثمة طبعة صدرت في مصر عام ١٩٤٩ لمحي الدين عبد الحميد لا بأس بها وتحتاج الى مزيد من الضبط والاتقان والشرح والتعليق ، وهي في عشرة اجزاء وصدرت آخر الأمر لنفح الطيب طبعة في بيروت بتحقيق احسان عباس ، وتقع في ٨ مجلدات ، وتنطوي على عدد من الفهارس .

كتب اللغة

★ ★ ★

الفصل الثالث

تمهيد :

جمع اللغة

ظلت لغة العرب دائرة على ألسنة الناطقين بها حتى انقضاء القرن الأول الهجري دون أن يقيض لها أن تدون في رسائل أو مصنفات أو معاجم، شأنها في ذلك شأن سائر أوجه النشاط . فكان مستهل العصر العباسي بداية حركة التدوين الواسعة التي انطلقت على نحو رائع وشملت مختلف ضروب النتاج العلمي والأدبي ، في الشعر واللغة والتاريخ والمغازي والسيرة والتفسير والحديث .. وقد سار تدوين هذه المعارف على صعيد واحد وفي خلال أوقات متقاربة .

وكان الحافز على ذلك كله أول الأمر خدمة القرآن والحديث وإعلاء شأن علوم الدين . ولكن الأمر لم يلبث أن صار غاية بعد أن كان وسيلة . فأخذ العلماء يطلبون تلك العلوم والمعارف لذاتها . وقد أوضح اللغويون العرب هذا الأمر ومنهم الأزهري صاحب « تهذيب اللغة » فقال :

« نزل القرآن الكريم والمخاطبون به قوم عرب أولو بيان فاضل وفهم بارع .. فتدربوا به يعرفون وجوه خطابه ، ويفهمون فنون نظامه، ولا يحتاجون إلى تعلم مشكله وغريب ألفاظه حاجة المولدين الناشئين . ويبّن النبي ﷺ

للمخاطبين من أصحابه ما عسى الحاجة اليه من معرفة بيان لمجمل الكتاب وغامضه ومتشابهه .. فاستغنوا بذلك عما نحن اليه محتاجون من معرفة لغة العرب والتبحر فيها والاجتهاد في تعلم العربية الصحيحة التي بها نزل الكتاب .. وقال الشافعي : إن تعلم العربية التي بها يتوصل إلى تعلم ما به تجري الصلاة من تنزيل وذكر فرض على عامة المسلمين . وان على الخاصة ـ التي تقوم بكفاية العامة فيما يحتاجون اليه لدينهم ـ الاجتهاد في تعلم لسان العرب ولغاتها التي بها تمام التوصل إلى معرفة ما في الكتاب والسنن والآثار » .

وكان طبيعياً في بداية الأمر أن يشمر العلماء لجمع مفردات اللغة بدأب كبير يتفق مع جلال الغاية واتساع قاعدة اللسان العربي . وقد جنحوا في سبيل ذلك للخروج الى البادية حيث ما زالت اللغة تحتفظ بسلامتها ونقائها . وكانت تلك الحركة الناشطة أجلّ ما حظيت به العربية من جهد وعناية . فقد كان العلماء يلازمون الأعراب الأقحاح ويتنافسون في السماع منهم ، وفي تلقف ما يتفوهون به من ألفاظ وأشعار وأخبار وأمثال .. وبذلك غدا هذا المصدر الحي ركناً أساسياً وهاماً في حركة تدوين اللغة يضاف إلى المصدر العمدة في هذا المجال وهو القرآن .

وكان من الطبيعي في مرحلة ابتدائية كهذه أن تتسم حركة جمع اللغة بالعفوية ، وأن يجري التدوين خلالها بعيداً عن التنسيق أو الترتيب دونما قاعدة واضحة أو تخطيط مسبق ، على غرار ما كانت عليه حركة جمع الشعر أيضاً . فقد كانت الغاية متجهة الى لمّ المتفرق وتجميع المتناثر في محاولة بعيدة المدى في

حركه رصد اللغة واستيعابها .

ومما يؤسف له أن كثيراً من محاولات أولئك العلماء الرواد لم يصل الينا ، فبقي أصحابها الجنود المجهولين الذين وضعوا اللبنة الأولى في أساس صرح الدراسات اللغوية الوافية عند العرب . وكان أكثر هذه الجهود الفردية الأولى محدود النطاق جزئي الطابع ، صدر في شكل مجموعات صغيرة ورسائل متفرقة . ولو رجعنا الى كتاب الفهرست لابن النديم او غيره من المصنفات في العلوم والتراجم لوجدنا في أخبار اللغويين والنحويين كتباً كثيرة متشابهة الأسماء تحمل عنوان : « خَلق الإنسان ، والخيل ، والإبل والأنواء ، والنبات ، والشجر ، والوحوش ، والسلاح .. » ، كما نجد الى جانب هذه الرسائل الخاصه او الكتب الجزئية كتباً أخرى في الغريبين : غريب القرآن وغريب الحديث ، وفي نوادر اللغة وأضدادها ..

وبوسعنا أن نتبين في صدد جمع اللغة وتدوينها مرحلتين أساسيتين :

١ ـ مرحلة رصد اللغة وجمها واستيعابها وتسجيلها .

٢ ـ مرحلة تنسيق ما دوّن منها وتصنيفه وتبويبه .

على ان هاتين المرحلتين لم تكونا متعاقبتين بل كانتا في كثير من الاحيان متصاحبتين متداخلتين . وغالباً ما نجد فئة من المؤلفين بعينها قد تصدت للتأليف في مختلف ضروب هذه الكتب كأبي زيد والأصمعي وقطرب والنضر بن شميل والأخفش ..

ثم ما لبثت مرحلة الجمع والتدوين ان اخذت في الانحسار بعد حين ، وبدأت كتب اللغة تتطور من البساطة الى التعقيد ، فظهرت كتب كثيرة في اللغة والنحو تتسم بالشمول لابن السكيت وسيبويه والأخفش والجرمي والمازني .. كما ظهرت في مرحلة تالية مصنفات لغوية تتسم بالنضج وتنم على ارتقاء كبير في صناعة التأليف اللغوي سواء في ذلك المعاجم العديدة المتنوعة كجمهرة اللغة لابن دريد وتهذيب اللغة للأزهري والمحكم لابن سيدة .. أو الدراسات الكثيرة المبتكرة والبحوث الوافية المتعمقة ، مثل كتاب الصاحبي في اللغة لابن فارس والخصائص لابن جني ، وفقه اللغة للثعالبي . .

كتب الغريبين

وفي طليعة ما وصل الينا من كتب اللغة في تلك المرحلة المبكرة ما كان متصلاً بالقرآن والحديث و تعرف بكتب الغريبين أي غريب القرآن وغريب الحديث .

يعزى أول كتاب في غريب القرآن إلى الصحابي عبد الله بن عباس المتوفي سنة ٦٨ ﻫ ، ٦٨٧ م [١] ، ثم تعاقبت كتب كثيرة بعد ذلك في غريب القرآن للأصمعي وأبي عبيدة وابن سلام وثعلب و كثيرين غير هؤلاء.

---

(١) انظر : المعجم العربي ، حسين نصار ١ : ٣٩ ، وبروكلمان ١ : ٣٣

ولكن جميع هذه الكتب قد ضاعت ولم يصل الينا من تلك الفئة المتقدمة سوى كتاب ابن قتيبة « غريب القرآن » كذلك توالت كتب كثيرة أخرى بعد كتب ابن قتيبة في الموضوع نفسه (١) .

أما كتب غريب الحديث فقد تألفت بعد كتب غريب القرآن وكان ذلك متفقاً مع مرحلة تدوين الحديث نفسه التي تأخرت عن مرحلة جمع القرآن المبكرة وتسجيله في المصاحف . ويعزو بعضهم أول كتاب في هذا الموضوع إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى . والذين ألفوا في غريب الحديث أيضاً كثيرون منهم النضر بن الشميل وأبو عمرو الشيباني وقطرب والأصمعي وأبو زيد وابن الأعرابي وابن قتيبة والمبرد وثعلب ..

مما يجدر قوله إن أكثر كتب الغريبين هذه كانت كتباً لغوية في الدرجة الأولى كما كان أصحابها لغويين من الطراز الأول . غير أن شأنها كان كشأن سائر كتب اللغة الأولى من حيث افتقارها إلى التبويب . إذ لم تكن الكتب التي ألفت في القرن الثاني وأحياناً حتى أوائل القرن الثالث تسير على نهج معلوم ولا تبويب مرسوم .

كتب النوادر

وفي طليعة ما وصل الينا من تلك المحاولات الرائدة خلال المرحلة الأولى

---

(١) المعجم العربي ، حسين نصار ١ : ٥٠ .

من حركة جمع اللغة زمرة من الكتب تحمل اسم النوادر [1] . وقد شاع التأليف في النوادر على الأيام واستمر في ازدياد واطراد طوال قرن من الزمان ، أي إلى أواسط القرن الثالث من الهجرة . ولا نكاد نجد عالماً من علماء اللغة ورواتها في تلك الفترة لم يضع كتاباً في النوادر ، من مثل أبي عمرو بن العلاء وأبي زيد الانصاري وأبي مسحل الأعرابي وقطرب وأبي عمرو الشيباني والكسائي والفراء والأصمعي وابن دريد وأبي علي القالي .. حتى أن عدد هذه الكتب يقدر بأكثر من أربعين [2] .

وأغلب الظن أن المدلول الضيق لكلمة النوادر أخذ ينحسر عن اللفظ حتى بات يراد به مجرد الألفاظ اللغوية الفصيحة بصورة عامة . فثمة كتب عديدة في النوادر لم يكن دأب اللغويين فيها مقصوراً على هذا النمط من الألفاظ الغريبة ، ولم يكن ذلك ليمنعهم من إيراد الفصيح والمشهور من اللغة أيضاً . وكأن القصد معرفة نسبة الشاذ والنادر إلى الفصيح المشهور ، ومدى ندرته وشذوذه ومعرفة معناه وموضع استعماله .

كما ألفت في الوقت نفسه الى جانب كتب النوادر كتب في الفصيح والجيد من اللغة مثل « الفصيح » لثعلب ، و « إصلاح المنطق » لابن السكيت ..

---

(١) اول من ينسب اليه كتاب في النوادر هو أبو عمرو بن العلاء شيخ نحاة البصرة ولغوييها .

(٢) انظر كتاب « النوادر » لأبي مسحل الأعرابي ، مقدمة المحقق عزة حسن ١ : ٢٦ .

والحقيقة أنه لدى المقارنة بين هذين النوعين من الكتب في النادر والمشهور لا نجد فرقاً كبيراً بينهما على الرغم من اختلاف الغاية التي رمى اليها الرواة والعلماء في تدوينهم مثل هذه الكتب (١) ومن العجيب أننا عند التحري والتدقيق نجد أن كتب النوادر تفيض بالفصيح من ألفاظ اللغة وان كتب الفصيح والجيد مطوية على كثير من نوادر اللغة وغرائبها أيضاً .

ومن كتب النوادر المبكرة ما ألفه أيضاً أبو عمرو بن العلاء ثم يونس بن حبيب والكسائي وقطرب وأبو عمرو الشيباني والأصمعي وأبو عبيدة والفراء والأخفش وابن الاعرابي وابن السكيت وابن قتيبة وثعلب .

كتب الهمز :

ذلك اللون من التأليف الذي تمثل فيه مرحلة الجمع العفوي للغة كانت تصحبه في الوقت نفسه مرحلة جمع أخرى تتسم بشيء من التنسيق ، فالمرحلتان كانتا في الواقع وجهين لحركة واحدة ، حتى إننا نرى شخصاً بعينه كأبي زيد الانصاري يؤلف كتاباً في النوادر دون أن تنسلك مادته في نسق واضح ، ثم

---

(١) انظر كتاب « النوادر » لأبي مسحل الأعرابي ، مقدمة المحقق الدكتور عزة حسن ١ : ٢٣ .

يؤلف في الوقت نفسه كتاباً اسمه « الهمز »[1] يقتصر فيه على ذكر الكلمات المهموزة وشرحها ، وكتاب الهمز هذا رسالة في اللغة لا تتعدى صفحاتها الثلاثين . وقد شغل حرف الهمزة اللغويين والنحويين ولقوا منه عنتاً كبيراً . والذين لم يخصوه بكتاب أفردوا له في كتبهم فصولاً مسهبة .

وهذا الجمع يمثل خطوة إلى الأمام ، لأنه محاولة لتصنيف الاشباه والنظائر برغم أنه يفتقر إلى مزيد من التنظيم . فأبو زيد مثلاً لا يراعي الترتيب الهجائي في فصول كتاب الهمز ، كما أن ألفاظه المهموزة ضمن الباب ليست مرتبة بدقة ، كأن تتوالى على هذا النحو : بسأ ـ برأ ـ بدأ ـ بكأ ـ بذأ .

وهذه الجهود على كل حال خطوة هامة في طريق تأليف المعاجم اللغوية التي تفسر معاني الألفاظ التي يطلبها الباحث .

وثمة لون آخر من كتب اللغة يهتم بناحية معينة من الألفاظ التي تتسم بطابع معين من مثل كتب الأضداد .

---

(١) يبدو أن كتباً في الهمز ألفت قبل كتاب أبي زيد ، فقد جاء في « مراتب النحويين » لأبي الطيب اللغوي أن « عبد الله بن اسحق تكلم في الهمز حتى عمل فيه كتاب مما أملاه » ص ١٢ ولعله من أقدم ما كتب في الهمز لأن ابن اسحق متقدم ، وكانت وفاته في حدود ١٣٧ هـ . على أن حسين نصار يرى في كتابه « المعجم العربي » ١ : ١١٦ أن من أول اللغويين الذين ألفوا في الهمز أيضاً قطرب المتوفى سنة ٢٠٦ هـ .

كتب الأضداد :

وكان التأليف في الأضداد نمطاً آخر في حركة تدوين اللغة وتصنيف مفرداتها . وهذا اللون من التأليف أملته طبيعة اللغة العربية نفسها من حيث تفردها بوجود الفاظ معينة يفيد كل منها معنيين متضادين ، وتعرف بالأضداد . وقد استهوى هذا الموضوع اللغويين القدامى فأفردوا له مؤلفات خاصة ، وأبرزهم الأصمعي وقطرب وابن السكيت وابو حاتم السجستاني وابو بكر بن الانباري وابو الطيب اللغوي .. [1] .

على أن من اللغويين من أنكروا الأضداد أصلاً في اللغة وذهبوا إلى أن العرب لا يأتون باسم واحد للشيء وضده . وقد حاولوا تأويل ما ورد من الأضداد في كلام العرب ، وألفوا كتباً في إبطال الأضداد . ورأس هذا المذهب ابن درستويه . ويبقى هؤلاء قلة إلى جانب من أثبت الأضداد من العلماء ، وفيهم ابن فارس في كتاب « الصاحبي » .

كتب الحيوان :

كذلك نجد نمطاً آخر من هذه الرسائل اللغوية كان الأساس الذي

---

(١) نشر من كتب الأضداد أربعة كتب في مجموعة واحدة في بيروت سنة ١٩١٣ بعناية المستشرق أوغست هفنر وانطون صالحاني ، وهي : أضداد الأصمعي والسجستاني وابن السكيت والصغاني . .

ارتكزت إليه بعد ذلك معاجم المعاني وهي التي تقدم لنا لفظاً أو عدداً من الألفاظ لمعنى يتراوح في ذهننا دون أن يكون لدينا ما يقابله . وكثير من هذه الرسائل اللغوية صدر أيضاً في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث وكان أصحابها من الاعلام في اللغة والرواية أيضاً . وقد كان لأبي زيد الانصاري كتاب المطر وكتاب اللبأ واللبن ، كما كان للأصمعي عدد أكبر من هذه الرسائل التي ألفها في اللغة مثل كتاب الإبل وكتاب الخيل وكتاب الشاء وكتاب أسماء الوحوش وصفاتها وكتاب النبات والشجر ..

وقد نال الحيوان عناية كبيرة من اللغويين تضاهي العناية التي لاقاها عند العرب أنفسهم . فألفوا في أجناسه المختلفة ، وأسمائه ، وصفاته ، وأعضائه وما تعلق به من أدواء وغير ذلك . ولكن القسط الأكبر من الاهتمام كان موجهاً الى الانسان والخيل والإبل ، ثم إلى الحشرات [1] .

ففي الخيل مثلاً ألف النضر بن شميل ، وابو عمرو الشيباني وقطرب وابو عبيدة والأصمعي وابن الاعرابي وابن قتيبة .. ثم الانباري وولده وأبو علي القالي .. الخ .

(١) لم تكن العرب تطلق لفظ الحشرات بمعناه العلمي المعروف اليوم ولذلك تناول اللغويون تحت هذا الاسم الحشرات والزواحف والهوام، مثل اليربوع والضب والقنفذ والفأرة والجرذ والحرباء والثعلب والهر والأرنب . .

كتاب النوادر

يعد كتاب النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري أقدم ما وصل الينا في موضوعه . ومؤلفه إمام في رواية اللغه وعلم كبير من أعلام العربية الأوائل خلال القرن الثاني الهجري. كان استاذاً لسيبويه . وقد قيل : « الأصمعي أحفظ الناس ، وأبو عبيدة أجمعهم ، وأبو زيد أوثقهم » . وكان الاصمعي يجله ويجلس بين يديه ويقر برياسته .

وكتاب أبي زيد « النوادر في اللغة » واحد من كتب كثيرة في ألفها اللغة [1] . ويبدو للمتأمل فيه أنه ليس من تأليفه كاملاً وإنما زيد علية في الغالب ممن جاء بعده من تلاميذه ، وكثيراً ما نرى في أسانيد الكتاب ما يشير الى إضافات أتت متأخرة عن عصر أبي زيد من مثل ما يرويه الأخفش الأصغر عن المبرد وعن السجستاني عن أبي زيد صاحب الكتاب ..

ونوادر أبي زيد كتاب معتدل الحجم شأن كثير من كتب اللغة في هذه المرحلة المبكرة نسبياً ، ولكنه غزير المادة اللغوية ، وينطوي على قدر

(١) لأبي زيد الانصاري من الكتب في اللغة : القوس والترس ، القضيب ، الابل ، الوحوش ، اللبن ، خلق الانسان ، المطر ، اللغات ، الجمع والتثنية ، فعلت وأفعلت ، الهمز . .

كبير من الالفاظ الغريبة كما يشير إلى ذلك عنوانه .

والكتاب في طريقته لا يخضع لنسق محدد أو نهج معلوم ؛ فهو لا يخرج عن أمالٍ عامة في اللغة وغريبها يوردها أبو زيد ايراداً عفوياً دون أن يضمها في اطار من نظام أو تبويب . ومن أشق الأمور على القارىء أن يطلب مادة لغوية معينة في هذا الكتاب . فأبو زيد يورد في الغالب نصاً من الشعر القديم أو من الرجز ثم يتناول بعض ألفاظه الغريبة بالشرح ويحرص في صدر ذلك على إيراد جوانب الاشتقاق الأخرى من الكلمة وما يتفرع عن ذلك من معان . وقد يعمد المؤلف الى ذكر ما كان لدى بعض قبائل العرب من لغات خاصة في الكلام أو من لهجاتهم .

ومما يسترعي الانتباه أن نصوص الرجز تشكل جانباً هاماً من مادة الكتاب ، وهذا طبيعي في مثل هذا النمط من التأليف اللغوي ، وقد عرف عن اللغويين القدامى إيثارهم هذا الفن الذى ينطوي على مادة لغوية غزيرة تتسم في كثير من الاحيان بالغرابة لإيغال الرجّاز في البداوة ، فكانت كتبهم تتضمن الكثير من اراجيز العجّاج ورؤبة وأبي النجم العجلي وغيرهم ، ويجدون في ذلك ما يرضي نزوعهم الى اقتناص شوارد اللغة وغرائبها .

ونجتزىء من كتاب النوادر هذا المقطع الذي يعد نموذجاً لسائر محتوى الكتاب : « قال أبو زيد : ويقال : جئت من القوم أي من عندهم وتقول : شَغَبْتُ القوم أشغَبُهم شَغْباً ، وشغبت عليهم . وتقول : شبعت خبزاً ولحماً،

ورويت ماء ولبناً . ويقال : لبث الرجل يلبَث لَبْثاً ولباثاً ، قال أبو حاتم : لَباثة ولِبثة ولم يَحك لباثاً ولا لُبثة . قال أبو الحسن : وحكى لنا في غير هـذا الموضع لَبثت لبثاً فأنا لَبِث ، كقولك فَرِقت فَرَقاً فأنا فَرِق ، وبَطِرت بَطَراً فأنا بطِر .. ويقال : رحت بي فلان أرُوحهم رَواحاً ، اذا رحت إليهم أو رحت من عندهم .. ويقال جعل القوم حبولهم على غواربهم ؛ الحبول واحدها حبل ، وهي الارسان ، والغوارب جمع غارب وهي أعالي كل شيء » .

وفي مكان آخر من نوادر أبي زيد نجد قوله : « .. ويقال رجل وضيع في قومه بيّن الضِّعة . والضعه فتح وكسر ، لم يذكر أبو حاتم الضعة بالفتح . ورفيع بيّن الرفعة ، وقد رَفُع ووَضُع ضَعة ورِفعة . ويقال : بعير جروز ، وقد جَرُز جرازة إذا اشتد اكله .. وسيف جُراز اذا استوفى الضريبة ، والأرض الجُرُز التي كأنها تأكل نبتها .. »

وقد صدر كتاب النوادر لأبي زيد في بيروت مذيلاً بتعليقات بقلم سعيد الخوري الشرتوني [1] .

---

(١) صدر النوادر سنة ١٨٩٤ عن المطبعة الكاثوليكية في حروف مشكولة .

نوادر أبي زيد ونوادر أبي مسحل صنوان ، وان كانت شهره أبي زيد في نوادره طاغية . وأبو مسحل أعرابي لا نعرف عنه الكثير ، عاش زمن المأمون وأخذ عن الكسائي ، كما أخذ عنه ثعلب ؛ فهو معاصر لأبي زيد والاصمعي أو متأخر عنهما قليلاً . ولكن قل من يذكره في كتب القدماء ، ولذا لم يشتهر أمره ، وأكثر كتابه هذا مروي عن تلميذه ثعلب .

ومادة الكتاب لا تختلف في جوهرها عن مادة نوادر أبي زيد ، حتى إننا نجد مواد لغوية عديدة متشابهة بينهما من نحو مَجَل ونفِط .. ولكن الفرق الملاحظ بينهما ان أبا زيد كثيراً ما يورد نصوص الشعر والرجز ليفسر غريبها او نادرها ، على حين يعمد ابو مسحل إلى ذكر الألفاظ النادرة ومشتقاتها ثم يؤيد ذلك في بعض الأحيان بشواهد من الشعر . ومن هنا كانت النصوص الشعرية في نوادر أبي مسحل أقل منها في نوادر أبي زيد ؛ وكانت المادة اللغوية في مقابل ذلك أغزر .

ويلاحظ أيضاً على مادة أبي مسحل الأعرابي أنها اكثر إسهابا وتقصياً وطلباً للمترادف من الالفاظ من نحو قوله :

« يقال ذهب دم فلان فِرْغا وفَرْغا ، وطِلقا ودَلها ولَغا وَظلَفا وظليفا وُبطلاً وضماراً وُطلاً - وهو من قولهم ُطلّ دمه - وَهدَراً وَطلَفا وَطليفا وُجباراً .. » ونقع مثلاً على نموذج آخر في نوادر ابي مسحل ومنه : « يقال كلأت الرجل بحقي إذا لزمته به وكلأته بالعصا إذا ضربته ، وكلأت القوم إذا حرستهم ، وكلأت إلى القوم إذا تقدمت إليهم ، وكلأت في الطعام وأكلأت وكلأت وذلك إذا اسلفت فيه » .

وقد صدر كتاب « النوادر في اللغة » لأبي مسحل الاعرابي في دمشق عن مجمع اللغة العربية في تحقيق جيد وعناية فائقة [1] .

كتاب الأضداد

صاحب « الأضداد » ابو بكر بن الانباري الذي روى شرح المفضليات عن ابيه ابي محمد الأنباري . كان اشهر تلاميذ ثعلب ومن افذاذ علماء الكوفة في اللغة والنحو والقراءات والأدب والتفسير . وقد شاع التأليف في هذا اللون من الكتب قبل عصر ابن الأنباري .

يعرّض ابن الأنباري في خطبة كتابه بأهل البدع والزيغ والازراء على

(١) نشر الكتاب الدكتور عزة حسن عن مخطوطة وحيدة في استامبول وقدم له بمقدمة جيدة وذيّله بفهارس قيمة ووافية ، وهو في جزءين .

العرب ، ويقصد بهم الشعوبيين ، لأنهم كانوا يعيبون على لغة العرب اشمالها على الأضداد وان ذلك منهم لنقصان حكمتهم وقلة بلاغتهم وكثرة الالتباس في محاوراتهم . وهو يدحض ذلك الافتراء بأن الكلمة مرتبطة بسياق الكلام ، وان معناها يتعين في موقعها منه . فكلمة (جلل) ذات معنيين احدهما : يسير ، كقول الشاعر :

كل شيء ما خلا الموتَ جللْ
والفتى يسعى ويلهيه الأمل

والمعنى الآخر : عظيم ، كقول الشاعر :

فلئن عفوت لأعفونْ جللاً
ولئن سطوت لأُوهِنن عظمي

فيوضح ابن الأنباري أن العقل هو الذي يميز المعنى المراد ، لأن الإنسان لا يفخر بصفحه عن ذنب حقير ، وبذلك يزول اللبس المزعوم .

ولا يبدو لنا أن ابن الانباري قد اتبع في كتابه منهجاً معلوماً فهو يسوق أضداده دونما نسق ولا نظام ، وذلك على غرار ما عهدناه في كتاب « النوادر » لأبي زيد الأنصاري .

ومن أمثلة ما يورده المؤلف من ألفاظ الأضداد قوله : « وثب : حرف

من الأضداد ، يقال : وثب الرجل إذا نهض وطفَر من موضع إلى موضع . وحِمير تقول وثب الرجل ، إذا قعد . وقال الأصمعي وغيره : دخل رجل على ملك من ملوك حمير وكان الملك جالساً في موضع مشرف فارتقى اليـه . فقال له الملك : ثِب ، يريد اجلس . فطفر فسقط ، فاندقت عنقـه . فقال الملك : من دخل ظَفارِ حمّر أي تكلم بلسان حمير » .

ومن ذلك أيضاً : « والسليم حـرف من الأضـداد . يقال سليم للسالم وسليم للملدوغ . جاء رجل إلى النبي فقال : « إن في الحي سليما . أي ملدوغاً » .. « والصريم من الأضداد . يقال لليل صريم وللنهار صريم ، لأن كل واحد منهما يتصرم من صاحبه » .. وعَنوة من الأضداد ، يقال أخذ الشيء عَنوة إذا أخذه غصباً وغلبة ، وأخذه عنوة إذا أخذه بمحبة ورضى من المأخوذ منه » .

ويوضح ابن الأنباري في مقدمة كتابه أن معنى الأضداد لا يقتصر على الكلمات المتضادة في المعنى بل يشمل أيضاً اختـلاف معنيين أو تباينهما في لفظ واحد ، ويطلق عليه اسم الحروف المشبهة للأضداد :

« ومن الحروف المشبهة لـلأضداد : الكأس . قال ابن السكيت « قال أبو عبيـدة » يقال للاناء كأس وللشراب الذي فيه كأس .. ويقال أحـوى للأخضر من النبات الطري الريان من الماء ، ويقال « أحوى للنبات الذي اسود وجف .. » .

وقد اجتمع لابن الأنباري في كتابه زهاء ثلاثمئة لفظ من الفاظ الأضداد

طبع (الأضداد) عدداً من المرات ، آخرها طبعة علميـة مفهرسة في الكويت [1] .

الاضداد في كلام العرب

كتاب « الأضداد » أو كتاب « الأضداد في كلام العرب » كما أسماه مؤلفـه على الارجح حلقـة أخرى في سلسلة الكتب التي ألفت في موضوع الاضداد . وقد ألفه أبو الطيب اللغوي أحد النحاة واللغويين البارزين في القرن الرابع . جذبه بلاط سيف الدولة في حلب فعاش فيها بقية حياته . ومن مصنفاته الكثيرة « مراتب النحويين » و « الإبدال » .

ويعد أضداد أبي الطيب خطوة إلى الامام في هـذا الموضوع ولا ريب

---

(١) نشر المستشرق هوتسما كتاب الاضداد أول مرة في ليدن سنة ١٨٨١ في طبعة علمية جيدة ووضع له فهارس منوعة وعني باخراجه عناية مشكورة . ثم عن هذه الطبعة أعيد طبعه بمصر سنة ١٩٠٧ دون تحقيق أو ضبط . وأخيراً كانت طبعة الكويت المتقنة والمفهرسة بتحقيق محمـد أبي الفضل ابراهيم ، وصدرت سنة ١٩٦٠ عن مخطوطة نفيسة في ليدن كانت هي نفسها أصلاً لطبعة هوتسما الأولى . وتنطوي هذه الطبعة في ذيلها على تسعة من الفهارس القيمة لما ورد في الكتاب ألفـاظ الأضداد وآيات القرآن والأحاديث النبوية وقوافي الأشعار والأرجاز ، ثم فهرس الأعـلام وآخر للقبائل والامم وأخير للأماكن .

في أنه أفاد من كتب الاضداد قبله . فهو يأخذ عن قطرب وأبي حاتم السجستاني والاصمعي بكثرة ، على حين لا نجد في كتابه أثراً لاقوال ابن الانباري مما يدل على أنه لم يطلع على كتابه في الأضداد . ومع ذلك اعتمد أبو الطيب على جهود أسلافه في هذا المجال وتوافرت في كتابه خصائص متعددة ، منها

١ ـ انه غزير المادة من حيث احتواؤه عدداً وافياً من ألفاظ الأضداد .

٢ ـ انه معرض حافل للشواهد من أشعار العرب وأراجيزهم ومن آيات القرآن وأحاديث الرسول ومن أقوال الفصحاء الثقات من العرب مع شرح لغرائبها ومعانيها وتحقيق لرواياتها المختلفة ، وتصويب لما وقع فيها من أوهام وأغاليط . ولذلك كان أوسع حجماً من أضداد ابن الأنباري وأغنى مادة .

٣ ـ ان ألفاظ الأضداد في الكتاب مرتبة على حروف الهجاء . فهو أشبه بمعجم لهذا النوع من الكلمات . وبذلك يكون كتاب أبي الطيب أول كتاب يتبع فيه مؤلفه هذه الطريقة . وكانت سائر الكتب قبله وفيها اضداد ابن الانباري تفتقر إلى مثل هذا النسق ولا تخضع لمنهج واضح .

غير ان أبا الطيب لا يراعي ترتيب الألفاظ كأن يبدأ باب الجيم بلفظ « جلل » ثم « جون » ثم « جمد » وبعد ذلك الجرموز والجديد والجحجاح والجمهرة .. وقد وجدنا أيضاً أكثر المصنفات في التراجم لم تكن عصرئذ تولي هذا الترتيب التفصيلي اهتماماً . حتى ان بعض المعاجم التي تألفت في تلك

الفترة كانت تنطوي على مثل هذا العيب .

نشر كتاب « الأضداد في كلام العرب » في دمشق في سلسلة مطبوعات مجمع اللغة العربية [1] . وهذه الطبعة تمتاز بإتقانها وكثرة فهارسها .

اصلاح المنطق

يعقوب بن السكيت لغوي كبير من علماء النصف الأول من القرن الثالث أخذ اللغة والنحو عن عدد من أئمة الكوفة والبصرة . ومؤلفات ابن السكيت أكثر من عشرين غير ان شهرته تقوم على كتابين اثنين : « كتاب الألفاظ » و « إصلاح المنطق » [2] .

أما « إصلاح المنطق » فكانت له منزلة خاصة عند اللغويين الأقدمين . وقد أشادوا به وعرفوا فضله ، وفيه يقول المبرد : « ما رأيت للبغداديين أحسن من كتاب يعقوب بن السكيت في المنطق » . وقد حظي الكتاب باهتمام

(١) تولى تحقيق الكتاب ونشره الدكتور عزة حسن وأصدره عام ١٩٦٣ في جزءين وهو مصدر بمقدمة مفيدة ومذيل بفهارس حسنة . وقد ضبطت مادته ضبطاً جيداً وشرحت بتعليقات وافية . واستغرقت فهارسه العشرة الوافية اكثر من مائة وخمسين صفحة تناولت ما ورد في الكتاب من الفاظ الاضداد والالفاظ المشروحة والآيات والاحاديث والاشعار والامثال والاقوال والاعلام والقبائل والبلدان والاماكن .

(٢) من كتبه أيضاً « الاضداد » و « القلب والابدال » وقد نشرا في بيروت .

علماء كثيرين دأبوا في شرح شواهـده وترتيبه وتلخيصه وتهذيبه والزيادة عليه [1] .

وقد روى (اصلاح المنطق) ـ كما يبدو من مستهله ـ أبو محمد الانباري من أفذاذ علماء الكوفة . ولسنا نقع فيه على مقدمة تفصح عن نية ابن السكيت وقصده من تأليف كتابه . وأغلب الظن أنه شأن أمثاله في تلك الحقبة لم يكن يعنى بمثل هذا الامر .

قصد ابن السكيت في كتابه هذا الى إصلاح المنطق ، وأراد به أن يعالج داء كان استشرى في لغة العرب والمستعربة ، وهو داء اللحن والخطأ في الكلام فعمد الى ان يؤلف كتابه ويضمنه ابوابا يمكن بها ضبط جمهرة من لغة العرب ، والتمييز بين ما يتشابه نطقه منها ، وما يمكن ان يؤدي من هذه الالفاظ الى الاختلاف واللبس نتيجة هـذا التشابه . وقـد اشتمل الكتاب على النواحي التالية :

الألفاظ المتفقة في الوزن الواحد مع اختلاف المعنى .

الألفاظ المختلفة في الوزن مع اتفاق المعنى .

---

(١) منهـم أبو العباس المريسي ، وأبو منصور الازهري ، وأبو زكريا التبريزي ، وأبو البقاء العكبري . وعلماء آخرون .. انظر مقدمة « اصلاح المنطق » بقلم عبد السلام هارون .

ما فيه لغتان أو أكثر .

ما يهمز وما لا يهمز .

ما تغلط فيه العامة .

ومثل هذه الموضوعات وسواها تتفرع في الكتاب الى أبواب تفصيلية تحمل المقاييس الصرفية عناوين لها ، من مثل ما كان على صيغة فُعله ، وفِعله ، وفِعالة وفَعالة بمعنى واحد . أو ما كان من ذلك أو نحوه بمعنى مختلف ..

ومن أمثلة ما يورده ابن السكيت في الكتاب قوله : « الرَّق : ما يكتب فيه ، والرِّق من الملك ويقال عبد مرقوق . . والشِّق : الصَّدع في عود أو حائط أو زجاجة ، والشق نصف الشيء ، الشق أيضاً المشقة ، قال الله تعالى : « إلا بشقِ الأنفس .. » ويقول « يقال خَطوة وخُطوة ، وجَرعة وجُرعة، ونَغبة ونُغبة . . ويقال كِسوة وكُسوة ، وإِسوة وأسوة ، ورِشوة ، ورُشوة ، وقِدوة وقُدوة ، ومِدية ومُدية » .

وفي باب مفعِل ومفعَل يقول : « فاذا كان يفعَل مضموم العين آثرت العرب في الاسم والمصدر فتح العين ، قالوا دخل يدخُل مدخَلاً .. إلا أحرفاً من الأسماء الزموها كسر العين . من ذلك المسجِد والمطلِع والمغرِب والمشرِق والمسقِط و المفرِق والمنبِت ، وقد روي المسكِن والمسكَن ، وسمعت المسجِد والمسجَد والمطلِع والمطلَع » .

وفي باب ما يقال بالهمز مرة وبالواو أخرى يقول : وكّدت العهد توكيداً ، وأكدته تأكيداً . وقد أرّخت الكتاب تأريخاً وورّخته توريخاً » .

وفي باب مايُغلط فيه فيُتكلم بالياء وإنما هو بالواو يقول : « هجوته فهو مهجو ولا تقل هجيته . . ويقال جلوت الصُّفر اجلوه جلاء ، ولا تقل جليته . وقد جلوت عن البلد فأنا أجلو جلاء . وقد عفوت عن الرجل بالواو لاغير » .

وفي باب ما يتكلم فيه بفعلت مما تغلط فيه العامة فيتكلمون بأفعلت ، يقول : « نعشه الله ينعشُه اي رفعه الله ، ومنه سمي النعش نعشاً لارتفاعه ، ولا يقال انعشه الله » .

ومن هذا القبيل ايضاً قوله : « وهي درع الحديد والجمع القليل ادراع فاذا كثرت فهي الدروع . وهو درع المرأة لقميصها والجمع ادراع .. وهو السكين ، قال الكسائي وقد يؤنث . والدلو : الغالب عليها التأنيث وتصغيرها دُليَّة ، وقد تذكر .. والفأس مؤنثة وكذلك القَدُوم والقوس والحرب والسلم والسبيل والطريق . »

وفي باب ما جاء مثنى يقول ابن السكيت « الملوان : الليل والنهار ، وهما الجديدان . والحجران : الذهب والفضة . والأبيضان : اللبن والماء . والأصفران : الذهب والزعفران ويقال الورس والزعفران . والأحمران : الشراب واللحم . والأصغران : القلب واللسان . والخافقان : المشرق والمغرب لأن الليل والنهار

يحققان فيهما . والمصران : الكوفة والبصرة ، وهما العراقان . وقول الله عز وجل (لو لا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) يعني مكة والطائف . والرافدان : دجلة والفرات . والأبوان : الأب والأم » .

وعلى هذا الغرار يمضي ابن السكيت في كثير من التتبع والتقصي بحث تغدو المادة اللغوية غزيرة شاملة وتنطوي في الوقت نفسه على كثير من خصائص العربية وأسرارها . ونحن نستشف من وراء هذه المادة معيناً طيباً استقت منه المعاجم العربية وأفادت منه أجل فائدة .

وابن السكيت حريص في عرض مادته على التركيز والتزام موضوعه ، وقلما كان يستطرد خلاله أو يحيد عنه . وكان يستشهد بالقرآن وبالشعر والرجز كلما وجد إلى ذلك سبيلاً .

ويبدو لنا ابن السكيت أكثر نقلاً عن لغويي الكوفة ونحاتها وأشد اعتماداً على أقوالهم من مثل أبي عمرو الشيباني والفراء والكسائي على حين تبدو رواياته عن البصريين كالأصمعي وأبي عبيدة في حدود أضيق .

صدر « اصلاح المنطق » في القاهرة سنة ١٩٤٩ بعد أن توفر على تحقيقه باتقان أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون (١) .

---

(١) أعيد نشر الكتاب في طبعة ثانية سنة ١٩٥٦ بدار المعارف ، في سلسلة « ذخائر العرب » وتمتاز هذه الطبعة فضلاً عن جودة تحقيقها بضبط حروفها وحسن إخراجها وكثرة فهارسها .

وقد صنف التبريزي كتاباً حول اصلاح المنطق وفي شرحه أسماه « تهذيب إصلاح المنطق » طبع حتى منتصفه بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٥ هـ ، ١٩٠٧م.

ألف أبو منصور الثعالبي كتابه « فقـه اللغة » في أوائل القرن الخامس الهجري ، وبعـد تأليف كتابه المعروف « يتيمـة الدهر » كما يشير في خطبـة الكتاب . وقد أسماه « فقه اللغة وسر العربية » .

وكتاب « فقه اللغة » حلقة كبيرة في سلسلة من الكتب اللغوية الـتي تقدمته . وقـد أفاد الثعالبي من تلك الكتب فائدة كبيرة واستمد من فضل أسلافه ما عاد بالخير العميم على كتابه . وقد أشار المؤلف في خطبة كتابه إلى أولئـك العلماء وأشاد بفضلهم فقال : « وتُركت والادب والكتب أنتقي منهـا وأنتخب ، وأفصّل وأبوب ، وأنتجع الأئمة ، مثل الخليل والأصمعي وأبي عمرو الشيباني والكسائي والفراء وأبي زيد وأبي عبيـدة وأبي عبيـد وابن الأعرابي والنضر بن شميل وابن دريد ونفطويه وابن خالويه والأزهري وابي بكر الخوارزمي وابي الحسن الجرجاني واحمد بن فارس .. » .

على اننا نخص بالذكر بضعة علماء صنفوا في هذا اللون من التأليف اللغوي ممن تقدموا أبا منصور وكان لهم فضل السبق في هذا المجال . وفي مقـدمتهم ابن السكيت في كتابه « الألفاظ » الذي طالما استقى منـه اللغويون

ونسج على منواله المؤلفون [1] .

وكتب الألفاظ هذه ومنها « كتاب الألفاظ » لابن السكيت و « الألفاظ الكتابية » للهمذاني و « جواهر الألفاظ » لقدامة بن جعفر و « فقه اللغة » للثعالبي .. هي في حقيقة الامر معاجم من نوع خاص ، أو هي معاجم للمعاني ، كما ان المعاجم المعهودة معاجم للألفاظ . ويتميز هذ االنوع من التأليف بأنه لا يجنح الى حصر اللغة واستيعاب مفرداتها بقدر ما يسعى الى تصنيفها في مجموعات او زمر على حسب معانيها المتشابهة ومدلولاتها المتقاربة ، مما ينضوي تحت موضوع واحد مثل : الطول والقصر ، الامراض والادواء ، الاصوات ، وغير ذلك من الموضوعات .

ويمتاز « فقه اللغة » بسداد منهجه وحسن تبويبه ، وهذا أمر عرفناه لدى الثعالبي في يتيمته . فقد جعل كتابه في ثلاثين باباً كبيراً يحمل كل منها عنواناً رئيسياً يتضمن موضوعاً عاماً ، وكل باب ينقسم إلى زمرة من الفصول تتفاوت عدداً ، فقد تقتصر على بضعة من الفصول وقد تزيد على الستين . وهذه الفصول هي المعاني التي تتفرع من كل موضوع رئيسي .

---

(١) من الغريب ألا يذكر الثعالبي ابن السكيت وكتاب « الالفاظ » في عداد من ذكرهم في مقدمته مع أن كتابه عمدة في هذا النوع من المصنفات . كما أنه لا يذكر مؤلفين آخرين سبقوه أيضاً الى هذا الميدان مثل عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني ، وقدامة بن جعفر . وإن ثمة تشابهاً ملحوظاً في المادة والأبواب بين كتاب « الالفاظ الكتابية » للهمذاني وبين كتاب « فقه اللغة » للثعالبي . على أن الثعالبي يروي عن ابن السكيت فيمن يروي عنه من الأئمة عن قلة ودون تعيين لاحد من كتبه .

فالباب الأول في الكتاب طابعه عام جعله مؤلفه « في الكليات » ومن فصوله ما كان في ضروب الحيوان ، وفي النبات والشجر ، وفي الأمكنة وفي الثياب .. الخ ، وهو يستهله بقوله : « كل ما علاك فأظلك فهو سماء . كل أرض مستوية فهي صعيد . كل بناء مربع فهو كعبة . كل بناء عالٍ فهو صرح . كل شيء دب على وجه الأرض فهو دابة . كل شيء من متاع الدنيا فهو عَرَض .. » وفي فصل تالٍ يقول: كل دابة في جوفها روح فهي نسمة. كل كريمة من النساء والإبل والخيل وغيرها فهي عقيلة . كل ما له ناب ويعدو على الناس والدواب فيفترسها فهو سبع . كل طائر له طوق فهو حمام .. ».

وفي باب الأطعمة والأشربة يتناول فصولاً متعددة ، منها في تفصيل أسماء الخمر وصفاتها كأن يقول : « الخمر اسم جامع وأكثر ما سواه صفات : الشَّمول : التي تشمل بريحها القوم ، والرحيق صفوة الخمر التي ليس فيها غش ، الحميّا الشديدة منها ، العُقار التي عاقرت الدن زماناً أي لازمته ، القرقف التي تقرقف شاربها إذا أدمنها أي ترعشه ، الراح التي يرتاح شاربها لها » وعلى هذا الغرار يمضي الثعالبي في تتبع أسماء الخمرة شارحاً إياها ، فيذكر المدامة والقهوة والسلافة والكميت والصهباء.. وفي فصل آخر يتعلق بتقسيم خروج الماء وسيلانه يقول : « من السحاب سح ، من الينبوع نبع ، من الحجر انبجس ، من النهر فاض ، من السقف وكف ، من القربة سَرَب من الإناء رشَح ، من العين انسكب .. » .

وفي باب الأصوات يخص كل نوع من الأصوات بفصل ، من ذلك

فصـل في الأصـوات الخفيـة ، وآخر في الأصوات الشديدة ، ثم في أصوات المرضى ، وأصوات الإبل ، والخيل ، والسباع ، والطيور ، والماء ، والنار ..

وهذه المجموعات اللفظية قد تمايز في قصدها . فمنها ما يفصّل الأنواع من مثل ما ذكره الثعالبي في أنماط الألبسة أو أصناف الجواهر أو أنواع السلاح..

ومنها ماتراه يعبر عـن المراحـل أي تدرّج مدلولات الألفاظ من مثل حالات هطول المطر ، أو أوضاع نظرات العين أو أطوار نمو الظبي أو مراحل عمر الأنسان ونحو ذلك . ومع أن هـذه الألفاظ تضم بينها مجموعـة غير قليلة من المترادفات وأن الثعالبي يشير الى ذلك أحياناً ويبين أبها صفات كما فعل في مستهل كلامه في الخمرة ، فان الطابع المميز لمادة الكتاب اللغوية يقوم على توخي الدقة في المدلول والتخصيص في المعنى ممـا يكشف بوضوح عن غنى اللغة العربية بالألفاظ واتساعها وشمـولها لأدق الفروق في المسميات . هـذا ما دعا الثعالبي إلى ان يردف عنوان كتابه (فقه اللغة) بمنوان ملحق ذي مغزى في خصائص هذه اللغة وهو (سر العربية) .

ونال كتاب الثعالبي شهرة واسعة وطبع مرات كثيرة تتفاوت بين الجودة والرداءة .

المخصص

مؤلف هذا الكتاب القيم لغوي أندلسي كبير عاش في النصف الأول من القرن الخامس ، وهو أبو الحسن ابن سيدَه .

والمخصص أجدر الكتب في موضوعه بأن يحمل اسم معجم للمعاني لما اتسم به من تقص لالفاظ العربية واستيعاب لمعظمها ، ولما امتاز به من اطلاع واسع على كل ما أُلف في هذا الموضوع ، ولحسن تبويبه وإحكام منهجه، فهو أوسع معاجم المعاني إطلاقاً وأغزرها مادة .

وان قراءتنا لخطبة المؤلف التي استهل بها كتابه الضخم لا بد أن تنتزع إعجابنا بما دأب عليه هذا العالم من تتبع وإحاطة. فهو يعدد عيون المصادر في اللغة مما صنفه أئمة العربية من قبل وفيهم الخليل والنضر وأبو زيد والأصمعي والفراء وابن السكيت والمبرد وثعلب وأبو عبيد القاسم بن سلام وأبو حنيفة الدينوري وأبو حاتم السجستاني وابن الاعرابي وابن قتيبة وابن دريد والقالي .. وبعض كتب هؤلاء العلماء قد ضاع أو تبدد الكثير من أجزائه كما هو شأن كتاب (البارع) للقالي ، والعين للخليل .

ويقوم منهج « المخصص » على الموضوعات شأن سائر الكتب في هـذا

المجال منذ كتاب « الألفاظ » لابن السكيت . وهو في تبويبه أقرب ما يكون الى كتاب « فقه اللغة » للثعالبي . فقد جعله ابن سيده في مجموعة أبواب كبيرة أيضاً أسمى كلاً منها كتاباً ويتفرع كل كتاب الى عدد من الأبواب . ومن الطبيعي أن يحمل كل كتاب عنواناً لموضوع واسع ذي طابع عام من مثل : خلق الإنسان . الغرائز . النساء . اللباس . الطعام . الأمراض . المنازل . السلاح . الخيل . الإبل . الغنم . الوحوش . الحشرات . الطير . الأنواء والسماء والفلك . الدهور والأزمنة . الاهوية والرياح والماء ، النخيل والنبات ، والمعادن ..

ويمتاز المخصص في هذا التبويب على كتب سابقيه مثل ابن السكيت والهمذاني وقدامة والثعالبي في أن أجزاءه وعناوين أبوابه تتوالى على نسق يراعى الترابط والتدرج في الموضوعات . فهو يبدأ بالانسان ثم غرائزه وما يتصل بعد ذلك به من لباس وطعام وامراض ومنازل وسلاح ، وبعد ذلك ينتقل الى الحيوان وأنواعه .. الخ كما أنه كان يحرص على أن يتدرج داخل كل باب من أبواب كتابه من العام الى الخاص . وفي ذلك يقول موضحاً منهجه : « فأما فضائل هذا الكتاب من قبل كيفية وضعه فمنها تقديم الأعم فالأعم ، على الأخص فالأخص ، والإتيان فالكليات قبل الجزئيات ، والابتداء بالجواهر والتقفيه بالأعراض .. » .

وتتجلى طريقة عرض ابن سيده لمادته اللغوية على غرار ما يلي ، إذ يقول في باب الذكاء والفطنة من كتاب الغرائز :

« غير واحد : ذكي بيّن الذكاء ، الجمع أذكياء وقد ذكا يذكو وذكيَ ،

وأصله التوقد واللهبان ، ومنه ذُكاء اسم للشمس . صاحب العين : الحفظ ، ضد النسيان ، حفظت الشي حفظاً ورجل حافظ من قوم حفاظ ، والتحفظ في الكلام والأمور قلة الغفلة كأنه على حذر من السقوط . أبو عبيد : الشهم : الذكي الفؤاد . صاحب العين : قلب وقّاد ومتوقد ، ماض . أبو عبيد : الفؤاد الأصمع والرأي الأصمع الذكي . ابن السكيت : رجل حديد الفؤاد وُحداد ، حدّ يحِد حِدة وهو حديد والجمع حِداد . أبو عبيد : اللوذعي ، الحديد الفؤاد الفصيح ، عليّ : هو من التلذع وهو التوقد .. ابن السكيت : اليلمعي والألمعي ، الحديد القلب واللسان . صاحب العين : الفطنة الذكاء والجمع فِطَن . ابن دريد : هي الفَطانة والفُطونة .. »

وواضح ما في مادة المخصص من تتبع وتقصٍ وحرص على نسبة كل قول إلى صاحبه مراعاة من المؤلف للأمانة العلمية . ومن الطبيعي ألا تقع في زحمة تلك الروايات على شيء من أقوال ابن سيده لأنه في صدد مادة لغوية منقولة رواها الشيوخ قبله عن أصولها ومنابعها لدى كلام العرب وأشعارهم .

وقد استهل ابن سيده معجمه بمقدمة تنم على زهو واعتداد وقال فيها :

« وأنا واصف لفضائل هذا الكتاب ، ومعدد لمحاسنه ، ومنبه على ما أودعته من جسيم الفائدة ، ومبين ما بان به من سائر كتب اللغة .. وذاكر ما راعيت فيه من أساليب التحري .. » .

وفي خلال هذه المقدمة يتناول موضوعاً شغل اللغويين قبله وهو أصل

اللغة ونشوؤها فيتساءل : « اللغة أمتواطأ عليها أم ملهم إليها .. »

ثم يقول : « على أن أكثر أهل النظر على ان أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، لا وحي ولا توقيف » .

ويعد « المخصص » أوسع معاجم المعاني اطلاقاً وأغزرها مادة . وهو مطبوع في خمسة مجلدات كبار[1] .

(١) نشر « المخصص » في مصر أول الأمر وطبع في بولاق سنة ١٣١٨ هـ ، ثم أعيدت طباعته تصويراً في بيروت عن المكتب التجاري .

المعاجم

* * *

الفصل الرابع

تمهيد :

ترتيب الحروف

ظهر الإسلام في القرن السابع للميلاد ، وعرب الحجاز شعب أمي لا يكاد يقرأ ولا يكتب ، عدا قلة من قريش في مكة وبعض أهل يثرب وفئة ضئيلة من القبائل العربية في أنحاء اليمن والشام والعراق .

وكان العرب في هذه الأقطار التي شاعت لديها الكتابة قد اقتبسوا من الأحرف الفينيقية ترتيبها (الأبجدي) ، وهو الترتيب الذي سرى الى سائر اللغات السامية الشقيقة ، وهذه الأبجدية الفينيقية تشتمل على ٢٢ حرفاً كانت تتوالى على هذا النسق لذى عرف بالأبجدي ، نسبة إلى الكلمة الأولى من الكلمات الست :

أبجد ـ هوز ـ حطي ـ كلمن ـ سعفص ـ قرشت

أي : ا ب ج د ه و ز ...(١)

(١) إن حروف ألابجدية الفينيقية كانت تسمى بأسماء معينة ترمز الى مسميات بعينها وهي: « الألف أي الثور ، والباء أي البيت ، والجيم أي الجمل .. الخ . وقد تبنت لغات عديدة هذا الترتيب في حروفها ، ومنها عدد من اللغات الأوربية .

أما الحروف الزائدة التي ينفرد العرب بنطقها والتي ليس لها نظير بين الحروف الفينيقية فقد ألحقوها برسم ما يشبهها من تلك الأبجديات السامية ، وهي : ث خ ذ ض ظ غ التي تجمعها الكلمتان (ثخذ ، ضظغ) . وقد أطلق العرب على هذه الحروف اسم « الروادف » لأنهم أردفوا بها حروف الكلمات الست الأولى . ومن مجموع هذه الكلمات الثماني تتكون أبجدية الحروف المعجمية[1] ، وهذا أقدم ترتيب عرفته العربية . وبرغم ذلك فانه ما من أحد بين اللغويين العرب ألف معجماً للألفاظ على النسق الأبجدي لأن هذا النسق لم يكن يعتمد على دلالة واضحة في منطق العربية ، ولا يتسم بالأصالة ، فهو لا يراعي تعاقب الحروف المتشابهات رسماً ولا المتقاربات نطقاً ..

ولما كانت كتابة الحروف العربية في فجر الإسلام خالية من أي تشكيل أو تنقيط نهض أبو الأسود الدؤلي في عهد معاوية بن أبي سفيان بضبط أواخر الكلم في المصاحف بالنقط جاعلاً علامة الفتحة نقطة من فوق الحرف ، والكسرة نقطة من تحته ، والضمة نقطة بين يديه .

على أن أبا الأسود قد حل بعض الأمر المعضل لا كله ، إذ بقي الكلام معرّضاً للتحريف والأداء محتملاً للحن ، نظراً لتشابه كثير من الحروف العربية

---

(١) رمز العرب الاقدمون بهذه الحروف الأبجدية إلى الأعداد وفقاً لترتيبها فيا سموه بـ « حساب الجمّل » وهو ينطوي على شيء من الصبر ، فالالف ١ ، والباء ٢ .. ثم الياء ١٠ ، وبعد ذلك الكاف ٢٠ ، اللام ٣٠ ، الميم ٤٠ ثم القاف ١٠٠ ، الراء ٢٠٠ الشين ٣٠٠ . ثم أخيراً الغين ١٠٠٠ .

في الرسم دون أن تمايز ، ومن هنا كان الالتباس واقعاً بين الحاء والخاء والراء والزاي والصاد والضاد ... وقد شعر الحجاج بعقبة هذا الأمر زمن عبد الملك بن مروان ، فوكله إلى نصر ابن عاصم الليثي المتوفي سنة ٩٠ هـ ، فوضع النقط أفراداً وأزواجاً ، ثم عمد إلى المخالفة بين الحروف الأبجدية جاعلاً إياها متوالية على حسب الأشباه والنظائر .

وهكذا قام نصر بعمل جليل مزدوج ، قوامه : الاعجام والترتيب ، ملحقاً كل حرف بأخيه في الرسم . فقد ترك الألف المهموزة من كلمة أبجد لتفردها ، وانتقل إلى الباء فوضع لها نقطة ، ثم ألحق بها التاء فوضع لها نقطتين ، ثم قرن اليهما الثاء معجما إياها بثلاث نقاط . وبعد ذلك انتقل إلى الجيم من أبجد ففعل نحو ذلك ، ثم انتقل إلى الدال فأعجم الذال بعدها ، مراعياً في هذا كله التناظر في مواقع الحروف فضلاً عن التماثل في هيئاتها ، فكان يميز بين الحرفين المتماثلين رسماً بأن يعجم أحدهما ويهمل الآخر بصورة عامة . ثم أنهى ترتيبه بالإبقاء على أحرف (كلمن) وبقية الحروف التي يتفرد كل حرف منها برسم ، مختتماً ترتيبه بحروف العلة الثلاثة . وهذا الترتيب الذي ابتدعه نصر يعرف بالترتيب الهجائي ، وتتوالى حروفه على النسق التالي :

ا ، ب ، ت ، ث ، ج ، ح ، خ ، د ، ذ ، ر ، ز ، س ، ش ، ص ض ، ط ، ظ ، ع ، غ ، ف ، ق ، ك ، ل ، م ، ن ، هـ ، و ، ي .

ويبدو أنه لم يتح لهذا الترتيب الذيوع السريع في أول الأمر برغم

جودته وحسنه ، فقد ظل الترتيب الأبجدي السابق ينافسه ولكن إلى حين . ثم ظهر في القرن الثاني الترتيب الذي ابتدعه الخليل ابن أحمد والذي اتبعه عدد من اللغويين البارزين ، وهو ترتيب فذ طريف يعتمد على مخارج الأصوات بدءاً من أقصى الحلق حتى آخر الشفتين . على أن الغلبة تمت في نهاية الامر للترتيب الهجائي الذي صنعه نصر بن عاصم والذي أخذ بالانتشار منذ أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث ، وآل به الامر أخيراً إلى أن أصبح النسق المفضل والوحيد لدى أصحاب المعاجم على أنواعها في مضمار اللغة والتراجم وغير ذلك .. وهو الترتيب الذي عم وساد آخر الامر في المعاجم الحديثة . والسائد في الاذهان أن علماء الحديث النبوي في حركة التدوين الرائدة التي كانوا محورها هم الأوائل الذين ألفوا الكتب بترتيب حروف الهجاء . والإمام البخاري صاحب الصحيح ـ وكان من أعلام القرن الثالث الهجري ـ من رواد التأليف المعجمي ، وفي خطبة كتابه الموسوم بـ « التاريخ الكبير » يقول : « هذه الاسامي وضعت على : ا ، ب ، ت ، ث .. وإنما بدىء بمحمد من بين حروف ا ، ب ، ت ، ث لحال النبي ﷺ فاذا فُرغ من المحمدين ابتدىء في الألف ثم الباء .. » (١)

(١) قيل ان الامام البخاري كان نفسه أول من أطلق لفظة « معجم » وصفاً لأحد كتبه المرتبة على حروف المعجم . ومن أوائل المؤلفات التي تحمل اسم معجم « معجم الحديث » للبغوي ، وقيل ان له معجماً آخر اسمه « معجم الصحابة ». ولأبي بكر النقاش معجم كبير في أسماء القراء . ثم كانت سائر المعاجم العلمية كمعجم الشعراء ومعجم البلدان ، ومعجم النسوان ومعجم القرى والأمصار . ومن الغريب ان اللغويين الكبار لم يبادروا الى إطلاق تسمية المعجم على مؤلفاتهم ، بل اختار كل واحد اسماً معيناً على مؤلفه خاصاً به ، كالعين والجيم البارع والجمهرة والقاموس ..

كتاب العين

الخليل بن أحمد الفراهيدي أحد أفذاذ العرب الذين قلما جاد الدهر بمثلهم. وما من ريب في انه سابق لعصره ، إذ استطاع وهو من رجال القرن الثاني الهجري ، والحضارة العربية في فجرها ، أن يقدم بفكره الخلاق اكتشافات رائدة في ميادين شتى ، فكان أول من ابتدع فكرة المعجم في لغة العرب ، وأول من حصر أشعار العرب في أوزان عروضية اهتدى اليها ، كما انه أول من عمد الى زمّ أصناف النغم وحصر أنواع اللحون في الموسيقا .

والحق أن عبقرية الخليل في معجمه « العين » تتجلى في أنه انطلق فيه من بنات أفكاره ، فلم ينسجه على منوال ، ولم ينح فيه على مثال ، حتى إن كثيراً من الرسائل والمصنفات في اللغة لم يكن قد ألف في عصره .

وأصل فكرة الخليل أنه طمح الى حصر ألفاظ العربية واستيعابها في مصنف شامل . ورأى أن ذلك ممكن من الناحية النظرية على الأقل . فحروف العربية تتألف من ٢٩ حرفاً لا تخرج عنها كلمة . وهي تتركب وتتآلف على صور وأبنية معينة . فتارة يكون الحرف أول الكلمة وتارة ثانيها وتارة ثالثها. كما أن هذا الترتيب قد ينعكس فيتغير مكان الحرف وترتيبه من الكلمة ويتبادل مع سواه في اللفظ . . وهكذا تدور الحروف وتتقلب ، وفي الوقت نفسه

تتعدد الألفاظ وتتنوع .

وقد لاحظ الخليل ان الكلمات العربية محصورة بين الثنائي والخماسي فلا تقل عن ذلك ، كما أنها لا تزيد إلا بحروف زوائد لا دخل لها في المعنى الأصيل للكلمة المجردة . فاذا كانت الحروف محددة بتسعة وعشرين حرفاً ، وكانت الكلمات المؤلفة منها تتراوح بين الثنائي والخماسي ، أصبحت ألفاظ العربية تدخل في نطاق الحصر .

ترتيب الحروف :

كانت الخطوة الأولى في معجم الخليل هي تطبيق هذه الفكرة . ولا بد في ذلك من ترتيب خاص تخضع له الحروف . وقد كان معروفاً في عصر الخليل مثل هذا الترتيب . بل كان بين يديه نظامان للحروف ، الأول قديم وهو الترتيب الأبجدي ، أي الذي يبدأ بالهمزة فالباء فالجيم [1] .. ولكن الخليل لم ير في هذا الترتيب مزية تؤهله لان يتبناه ، فهو يبدأ بحرف الهمزة ، والهمزة حرف لا يستقر على حال وليس له رسم معين فكيف يكون بوسع الخليل ان يعتمد عليه في قضية علمية كهذه تتطلب وضع معجم شامل ، كذلك لم يرق له ترتيب سائر الحروف لانها لا تتوالى على اساس واضح او مبدأ معلوم ولكنها تتلاحق اعتباطاً .

---

(١) تتوالى حروف العربية في هذا الترتيب على حسب ورودها في الكلمات الآتية التي تنتظمها : « أبجد ، هوّز ، حطّي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ظغلاً »

اما الترتيب الأحدث الذي يعرف بالترتيب الهجائي او الألفبائي ، فهو يتسم بالتناسق لانه يراعي في الحروف ان تتوالى في مجموعات او زمر، يضمها الرسم المتشابه من مثل ب ت ث ، ج ح خ ؛ ط ظ ، ع غ .. الخ . ومع ذلك لم يجد الخليل في النظام الألفبائي ما يرضيه لانه يقوم على مبدأ الرسم والكتابة على حين أن اللغة قوامها الأداء والنطق . فالصوت في رأيه هو الأساس الذي يمكن أن يبنى عليه المعجم المنشود . وهكذا كان الصوت أبداً منطلق الخليل في محاولة حصره للألحان الموسيقية ، وفي محاولة رصده لأوزان الشعر العربي ، وفي محاولة استيعابه لألفاظ اللغة .

ولما كانت اللغة في نظر الخليل أصواتاً ذات دلالة ، وكان الفم من الحلق الى الشفتين هو الآلة التي تطلق هذه الاصوات فمن الظريف ان ترتب الحروف على حسب مواضع خروجها داخل الفم ، وان يكون مبتداها في أقصى الحلق ومنتهاها في رأس الشفاه . وبعد ان اهتدى الخليل الى هذا النظام المبتكر وعمد الى دراساته الصوتية استقام له ترتيب الحروف على النحو التالي :

ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط ت د ظ ذ ث ر ل ن ف ب م و ى ا ء .

تبويب المعجم :

وقد جعل الخليل معجمه أقساماً على عدد الحروف ، وسمى كل قسم كتاباً . فابتدأ معجمه بكتاب العين وأتبعه كتاب الحاء فكتاب الهاء ، وهكذا

حتى استوفى سائر الحروف . وقد شمل تسمية معجمه كله باسم كتابه الأول فبات يعرف باسم الحرف الأول فيه « العين » .

ترتيب الأبنية :

والخطوة الأخرى لدى الخليل في سبيل بناء معجمه كانت استقصاءه للأبنية أي الأسس التي تقوم عليها الألفاظ ، فوجد ان كلام العرب مبني على أربعة أصناف : الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي فجعل هذه الأبنية اساس تقسيم كل من الكتب التسعة والعشرين الى أبواب أربعة . وكان النحاة والصرفيون قد تقصوا هذه الأبنية وعنوا بتصنيفها فلم يتجشم الخليل في ذلك مشقة.

ترتيب التقاليب :

ثم كانت الخطوة الثالثة ترتيب التقاليب على أساس تلك الأبنية ، فقد رأى الخليل مثلاً أن حرف العين يمكن أن يغير موضعه في البناء الثنائي مرتين بأن يكون أول أو ثانياً ، وفي البناء الثلاثي يغير موضعه ثلاث مرات بأن يكون مرة في أول الكلمة ومرة في وسطها ومرة في آخرها ، وفي الرباعي أربعاً ، وفي الخماسي خمساً .

فاذا كان الحرف الثاني مع العين في البناء الثنائي باء لم يمكن أن يأتي منهما الا صورتان : عب ، بع . أما اذا كانت العين في بناء ثلاثي وكان معها حرفان : الباء والدال مثلاً ، أمكن أن يتشكل من ذلك ٦ صور : عبد ، بعد ، بدع ،

عدب ، دعب ، دبع . وترتفع هـذه الصور في البناء الرباعي الى ٢٤ صورة ، وفي الخماسي الى ١٢٠ صورة[١] ولما كانت هذه الصور تأتي من حروف الكلمة الواحدة في المواضع المختلفة سميت تقاليب.

وقد تتبع الخليل التقاليب المتعددة لكل بناء ، وكان يبدأ بالتقليب الذي يكون مخرج حرفه أقرب الى اقصى الحلق أي مقدماً في الترتيب الذي ابتكره الخليل ، لأن مثل هذه الطريقة تساعده على الحصر وتجنبه التكرار فيما بعد.

المهمل والمستعمل :

على أن هـذه التقاليب في مجموعها أمر نظري اقتضى وجـود وجوهـه الكثيرة ذلك الافتراض الرياضي المجرد الذي تصوره الخليل . ومن الطبيعي ألا تكون جميع تقاليب البناء مستعملة في اللغة وبخاصة في الأبنية الرباعية والخماسية التي تتكاثر فيها تلك التقاليب كثرة بالغة ، ولذلك قد يكون منها المستعمل ومنها المهمل . وكان الخليل يشير في مستهل كل فصل (أي مجموعـة التقاليب لكل بناء) إلى المستعمل والمهمل من الأبنية الثنائية والثلاثيـة ، أما فيما عـدا ذلك من الأبنية أي في الرباعية والخماسية فلم يكن الخليل يرى حاجة إلى هـذا التمييز فكان يكتفي بايراد المستعمل دون أن ينص على المهمل لأنه شيء كثير[٢]

(١) انظر كتاب المعجم العربي تأليف حسين نصار ١ : ١٩٧ .
(٢) انظر كتاب المعجم العربي ، تأليف حسين نصار ١ : ٩٦.

استهل الخليل معجمه بحرف العين وافتتحه بباب الثنائي الصحيح أو المضاعف مثل : عقّ وعك . وكان على الخليل أن يبدأ هذا الباب بفصل العين مع ما يليها في المخرج وهو الحاء ثم فصل العين مع ما يلي الحاء في المخرج وهو الهاء .. الخ . ولكنه لم يعثر على كلمات تتألف من العين والحاء ، ولا العين والهاء .. وقد درس الخليل هذه الظاهرة وعلل وجود هذه الثغرة بأنه لقرب هذين الحرفين من أقصى الحلق يتعذر النطق بهما معاً . وعند ما يبلغ فصل العين مع القاف نجده يعالج « عقّ » ثم بعدها مباشرة مقلوبها « قعّ » وكذا الحال في بقية فصول الثنائي بل في سائر فصول الكتاب . ولكنه بطبيعة الحال لا يذكر في باب القاف مادة قعّ اكتفاء بذكرها أول الأمر في باب العين .

وعلى هذا الغرار يمضي الخليل في أبنية الثلاثي في كثير من الدقة والإحكام . فاذا تناول في باب العين كلمة عقل وفرغ من شرحها انتقل إلى تقاليبها علق ، لقع لعق ، قلع ، قعل . وهذا ما اصطلح عليه اللغويون بعد عصر الخليل بالاشتقاق الكبير [٢] .

وبعد تناول كلمة عقل مع تقاليبها الخمسة المتبقية ينتقل الخليل بنا الى مادة

---

(١) سبب تسميته بالثنائي لانه صورته تتألف من حرفين ولانه لا يأتي منه إلا صورتان اثنتان (تقليبتان) . ويطلق عليه الخليل أحياناً اسم المضاعف وهذه التسمية أدق.

(٢) أما الاشتقاق الصغير فهو اشتقاق المعروف لافي أخذ الصيغ المختلفة من مادة لغوية واحدة مجردة الحروف مثل : ك ت ب ، فهي تتفرع الى كتابة وكاتب ومكتوب وكتاب ومكتب ومكتبة .

أخرى مع بقائه في باب العين مثل : عقف وتقاليبها وبعد ذلك عقب وتقاليبها الخ . وواضح أن هـذا الترتيب في ورود الكلمات خاضع للنهج الخاص الذي التزمه الخليل واتبع فيه مخارج الحروف . ومن هنا أتت عقـل أولاً ثم عقف ثم عقب ثم عقم .. وبعد ذلك عكر .. وهكذا .

كما أن الخليل اتخذ أول حرف في اللفظ مبدأ في معجمه ، أي أنه جعله على حسب أوائل الألفاظ ، على حين لجأ لغويون آخرون من بعـده الى اعتماد الحرف الأخير في تناول الألفاظ وترتيبها .

وقد أقام الخليل شروحه للمواد اللغوية على دعائم قوية هي الشعر والأمثال والقرآن والحديث ، وكان اعتماده على الشعر والقرآن كبيراً .

ويمثل كتاب العين[1] ذروة الأخذ بمبدأ القياس ، فقد أولع الخليل بالنحو واللغة ولعاً شديداً . وكان هذا المذهب غالباً على علماء العراق في ذلك العصر ، ومثل الخليل في النحو مثل معاصره أبي حنيفة في الفقه . وقد طبق الخليل مبدأ

---

(١) نشر صفحات من كتاب « العين » العلامة العراقي أنستاس الكرملي إبان الحرب العالمية الأولى ، ثم توقف عن المضي في النشر . وفي عام ١٩٦٧ صدر الجزء الأول من العين في بغداد بعناية الدكتور عبد الله الدرويش ومساعدة المجمـع اللغوي العراقي ، غير ان لفيفاً من العلماء تصدوا لهذه النشرة وكشفوا ما انطوت عليـه من أخطاء ومآخذ ، انظر د. ابراهيم السامرائي في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الخامس والاربعون، الجزء الرابع ، تشرين الأول ١٩٧٠ . ثم المجلد السادس والاربعون ، الجزء الأول ، كانون الثاني ١٩٧١ . وانظر أيضاً د . رمضان عبد التواب في مقالة بمجلة « الأقلام » ، تشرين الاول ١٩٦٨ .

القياس في اللغة أيضاً وتجلى قوياً في معجمه العين برغم ما كان يراه العلماء من اعتماد القياس في النحو وإيثار النقل والسماع في مضمار اللغة .

وثمة عيوب ومآخذ عديدة في العين تناولها القدماء بالنقد والتجريح ، ولكن هذا لا يضيره ، شأنه في ذلك شأن كل خطوة رائدة .

ومن جهة أخرى يحيط بعض الشك بصحة نسبة الكتاب إلى الخليل فبعضهم ينكر أن يكون له وينسبه إلى تلميذه الليث بن المظفر ، وبعضهم يثبت كونه له .

ومما يبعث على الأسف العميق أن كتاب العين لم يصل إلينا كاملاً ، وكل ما بين أيدينا منه جزء يسير من أوله . وقد طبع فاستغرق ١٤٤ صفحة تنطوي على مقدمة الخليل في نحو عشر صفحات يبدأ بعدها المعجم . وهذا الجزء يكشف لنا على كل حال عن طريقة الخليل ومنهجه وطبيعة مادته .

وثمة لغويون عديدون وقفوا على كتاب العين وأفادوا منه أجل فائدة واتخذوا من مؤلفه اماماً في تصنيف المعاجم عند العرب . وقامت في إثر تأليفه ضجة كبيرة تتناسب مع أهميته ، وقد توفر الكثيرون على درسه والاستدراك عليه وتهذيبه وشرحه ونقده . وكان من أهم هذه المحاولات كتاب أبي بكر الزبيدي صاحب « مختصر العين » ، وقد وصل إلينا الكثير من محتوى كتاب الخليل بفضله . وكان تأثير كتاب العين بالغاً في المعاجم التي ألفت بعده بصفته المعجم الأول عند العرب .

البارع

ألف هذا المعجم الكبير أبو علي القالي الذي يعد من أبرز علماء القرن الرابع . والبارع أول معجم عرفته الأندلس [1] ، وقد أهداه القالي الى الخليفة الحكم بن الناصر الاموي . غير أن ما يؤسف له أن هذا الكتاب الجليل لم يصل الينا كاملاً . والقسم الذى بين أيدينا يشكل جزءاً يسيراً منه [2] ، ويشتمل على سبعة من الحروف المتفرقة هي : هـ ، ع ، ق ، ح ، ط ، د ، ت . وهذا الجزء يعطينا على كل حال فكرة عن حجمه وطابعه ومنهجه .

ويبدو أن أصل المعجم أضعاف هذا الجزء . وذكر ابن خلكان ان كتاب « البارع » يشتمل على خمسة آلاف ورقة . وحدد ابن خير في فهرسته حجمه بقوله : « انه في مائة وأربعة وستين جزءاً ، عدد ورقها أربعة آلاف ورقة وأربعمئة ورقة وست وأربعون ورقة » ويلقي ابن خير مزيداً من الضوء على محتوى البارع فيقول نقلاً عن أبي بكر الزبيدي تلميذ القالي : « وهو

(١) انفرد حاج خليفة في كشف الظنون بأن ذكر للقالي كتاباً اسمه « البارع في غريب الحديث » ولم يذكر له البارع في اللغة . ونظن أن هذا وهم منه .

(٢) يقع هذا الجزء من البارع في ١٤٨ صفحة وقد نشره المستشرق A. S Fulton مصوراً عن مخطوط في المتحف البريطاني عام ١٩٣٣ وصدره بمقدمة بالانكليزية تناول فيها حياة القالي ومعجمه .

في اللغات كلها ، زاد على كتاب الخليل نيفاً وأربعمئة ورقة مما وقع في « العين » مهملاً ، فأملاه مستعملاً ، ومما قلل فيه الخليل فأملى فيه زيادة كثيرة ، ومما جاء دون شاهد فأملى الشواهد فيه » .

وبرغم اشتهار هذا المعجم لم يعل الناس اليه منذ زمن قديم [1] . وهو مع ذلك يعد في مقدمة المعاجم التي تبنت نهج الخليل في ترتيبه الخاص ، فهو اذن مبوب على حسب مخارج الحروف مع تغيير طفيف في هذا الترتيب اذ بدأه القالي بالهمزة ثم الهاء ثم العين . ومن قراءة بعض صفحات هذا المعجم نلمس عناية أبي علي بذكر اللفظ ثم مقلوبه وبحرصه على السند في كل مايورده من مادة لغوية ، كما انه يولي الغريب من اللغة اهتمامه ويكثر من الرواية عن أبي زيد الأنصاري . كما أن القالي يستطرد فيه الى ايراد أشعار وأقوال لا تتصل دائماً بالمادة المعجمية اتصالاً وثيقاً ، فكأنه كتاب مسهب في اللغة وغريبها وليس معجماً تندرج مادته بصورة مركزة منسقة .

وبوسعنا أن نجتزىء من المعجم « البارع » ما يكشف عن طبيعته في مثل مادة : (ج ز ز) التي ترد على هذا النحو :

« الجيم والزاي في الثنائي في الخط والثلاثي في الحقيقة لتشدد أحد حرفيه » .

« قال أبو علي : قال أبو زيد : أجزّ البرُّ والشعير إجزازاً وهو حين

---

(1) المزهر ١ : ٤٥ وانظر أيضاً « المعجم العربي » حسين نصار ١ : ٢٨٧ .

إدراكه . ويقال جززت النعجة أجزها جزاً بفتح الزاي في الماضي وضمها في المستقبل . واسم ما يجز الجزة بكسر الجيم على مثال فعله . . ولا يكون الجز في المِعزى ، ومَثّل لهم : ياشاة أين تذهبين ؟ قالت : أُجَز مع المجزوزين . يضرب هذا مثلاً عن الرجل يأتي القوم فينطلق معهم وهو لا يدري ما هم فيه ، يفعل مثل فعلهم وهو لا يريد ذلك . . وقال أبو حاتم : يقال هذا وقت الجزاز والجزاز بفتح الجيم وكسرها يعني حين تجز الغنم ، وذكره يعقوب عن الفراء ، وقال يعقوب : يقال أجزّ الزرعُ إذا حان له ان يحصد .

مقلوبه : قال أبو علي : قال أبو زيد : يقال زجّ فلان فلاناً زجة ، إذا دفعه في عنقه .. قال أبو حاتم : ومن الحواجب الأزج ، وهو الطويل ، قال العجاج :

أزمان أبدت واضحاً مفلّجاً **يعني ثغراً**

أغرّ براقاً وطرْفاً أبرجا **يعني عيناً برجاء أي واسعة**

وجبهة وحاجباً مزججاً

الأزجّ : الذى حسُن بخط حاجبيه ودق شعره في منابته . وقال آخرون : الزجج وزِججَة وزِجاج على مثال فُعل وفِعَلة بكسر الفاء وفتح العين . . .

وما من ريب في أن القالي رمى إلى معارضة العين وطمح إلى الزيادة

عليه [1] . وربما كان من أسباب قلة الإقبال على البارع ضخامة حجمه من جهة ، واتباعه من جهة أخرى ترتيب الحروف وفقاً لمخارجها ، واعتماده على مبدأ التقاليب في الألفاظ . فهذا المنهج فيه عسر على القارىء وليس من السهل عليه تناول مادته والوقوع فيها على بغيته بيسر .

وتبدو شخصية القالي خافتة الصوت في « البارع » وقلما وقعنا في بارعه على رأي له يدلي به في غمرة الآراء الكثيرة التي يحرص على إيرادها بأسانيدها .

تهذيب اللغة

صاحب هذا المعجم أبو منصور الأزهري من أبرز اللغويين في القرن الرابع . وهو معاصر للقالي . ونحن نرجح أنه ألف تهذيب اللغة بعد أن ألف أبو علي القالي معجم البارع في الأندلس . فقد ذكر أنه أنجز تصنيفه وهو في السبعين من عمره ، أي في نحو سنة ٣٥٢ هـ ولا نعتقد أنه اطلع على بارع أبي علي لضيق الزمان بين تأليف الكتابين وبعد المسافة بين الرجلين .

ويعد « تهذيب اللغة » أبرز معجم في مدرسة « العين » بعد كتاب الخليل ، وهي المدرسة التي تضم « البارع » لأبي علي القالي و « المحكم » لابن سيده الأندلسي . وهو أول معجم من نوعه مرتب على مخارج الحروف يصل الينا .

(١) ذكر ابن خير في فهرسه ص ٣٥٠ أن أبا بكر الزبيدي ألف كتاباً اسمه « المستدرك » من الزيادة في كتاب البارع لأبي علي البغدادي على كتاب « العين » للخليل بن أحمد .

وقد أوضح الأزهري في مقدمة معجمه القيمة قصده من تأليف هذا المعجم ، ثم أورد طائفة كبيرة من أعلام اللغة الذين اعتمد عليهم في تأليف كتابه ، وقد قوّم أولئك العلماء فقرظ بعضهم وجرّح بعضهم الآخر ، وكان في جملة من تطاول عليهم الليث بن المظفر صاحب الخليل وراوي « العين » عنه ، والجاحظ وابن دريد ..

ومع ضخامة هذا المعجم واتساع جنباته يبين الأزهري في خطبته أنه كان يتوخى فيه الإيجاز ويقتصر فيه على ما صح لديه من سماع ، فهو يقول : « ولم أودع كتابي هذا إلا ما صح لي سماعاً منهم أو رواية عن ثقة ، أو حكاية عن خط ذي معرفة ثاقبة اقترنت اليها معرفتي » .

أما المنهج الذي آثره الأزهري وارتضاه فهو منهج الخليل بن أحمد في معجم « العين » . فهو يشيد به ويعرب عن تبنيه له في قوله : « .. وعلمت أنه لا يتقدم أحد الخليل فيما أسسه ورسمه ، فرأيت أن أحكيه بعينه » . وهذا يعني أن معجم التهذيب جار على نمط كتاب العين في ترتيبه وأساسه . أي أنه تبنى نظام الحروف التي تتوالى على حسب مخارجها من الحلق بادئة من أقصاه ، وذلك في ٩ مجموعات ، أي : ع ح هـ خ غ ـ ق ك ـ ج ش ض ـ ص س ز ـ ط ت د ـ ظ ذ ث ـ ر ل ن ـ ف ب م ـ و ا ي .

وتجري أبواب تهذيب اللغة على الوجه التالي على غرار ما وجدناه في « عين » الخليل أيضاً :

١ ـ المضاعف ، وتبدأ أبوابه بحرف مع كل من الحروف التي تليها مثل : العين مع الحاء والعين مع الهاء .. وهكذا إلى آخر الحروف مع تقليبها إن كان المقلوب مستعملاً ، مثل : عقّ ، قعّ . وفي هذه الحال لا يعاد التقليب عند ورود الحرف الثاني في موضعه اكتفاء بما تقدم .

٢ ـ أبواب الثلاثي الصحيح . وتبدأ بالعين مع الحاء وما يثلثهما بترتيب الحروف ، ثم العين مع الهاء وما يثلثهما ، ثم العين مع الخاء ، ثم مع الغين .. الخ مع تقليب كل مجموعة ومراعاة عدم التكرار فيما يمكن أن يُستقبل من هذه التقاليب . وكان الأزهري ينص على المستعمل وعلى المهمل خلال هذه التقاليب شأن صاحب العين من قبل . وهذه الأبواب تشكل معظم الكتاب لأنها في الحقيقة تشتمل على أكثر مفردات اللغة .

٣ ـ أبواب الثلاثي المعتل وتجري على غرار ما سبق ، مع إلحاق المهموز بالمعتل بالألف .

٤ ـ أبواب اللفيف ، وهو من الثلاثي أيضاً ، فمن لفيف العين : عوى ، عَيَى ، وعى ، عَوَع .. ويتلوه لفيف الحاء ، فالهاء إلى آخر الحروف .

٥ ـ أبواب الرباعي ، وتبدأ بالعين مع سائر الحروف ، على النسق المتقدم .

٦ ـ الخماسي ، وهو الجزء الأخير في تهذيب اللغة وأكثر الأجزاء اقتضابا ، إلا أنه لا ينطوي على أبواب ، لقلة المادة فيه وأكثرها من الغريب

الذي لا يدور على ألسنة العرب إلا في القليل أو النادر .

ويستهل الأزهري معجمه بحرف العين ، ويتناول باب العين مع الحاء ، فيفتتح ذلك بقوله :

« قال الليث : قال الخليل بن أحمد : العين والحاء لا يأتلفان في كلمة واحدة أصلية الحروف ، لقرب مخرجيهما . إلا أن يؤلَّف فعل من جمع بين كلمتين مثل حيّ على ، فيقال منه : حَيْعَلَ .

وشخصية الأزهري بارزة في معجمه ، فهو على الرغم من أنه في صدد جمع اللغة واستيعابها وتهذيبها ، كثيراً ما كان يدلي بدلوه بين الدلاء فيورد أقوالاً لمن سبقوه من اللغويين ثم يتبعها بكلمة « وقلت » ، أو عبارة « لم أسمع ذلك من الأعراب » . ونحن نلاحظ اعتداد الأزهري بنفسه منذ خطبة كتابه ، وقد غدا تهذيب اللغة مصدراً أساسياً غزير المادة لمن ألفوا بعده في المعاجم .

صدر « تهذيب اللغة » في مصر بعناية مجموعة من المحققين [1] .

---

(١) صدر المجلد الأول بتحقيق عبد السلام هارون في سلسلة « تراثنا » وما زالت سائر الأجزاء تتوالى حتى اكتمل المعجم في ١٥ جزءاً ، شارك في تحقيقها عبد السلام هارون ، محمد علي النجار ، عبد الحليم النجار ، عبد الله درويش ..

جمهرة اللغة

ألف كتاب الجمهرة في اللغة أبو بكر بن دريد المتوفي سنة ٣٢١ هـ ، وهو عمدة اللغويين في عصره ، ومن تلاميذه أبو علي القالي وابن خالويه وأبو الفرج الأصبهاني . وكان ينعت بأنه أشعر العلماء وأعلم الشعراء . ومؤلفاته تبلغ خمسة وعشرين في مقدمتها « الجمهرة » (١) .

وكما ذكر الأزهري أنه لم يودع معجمه من الألفاظ إلا ما صح له سماعاً فأسماه « تهذيب اللغة » قال ابن دريد أيضاً في خطبة كتابه معللاً تسميته بالجمهرة : « وإنما أعرناه هذا الاسم لأنا اخترنا له الجمهور من كلام العرب وأرجأنا الوحشي والمستنكر » .

فاللفظ الشائع المألوف كان قصد ابن دريد في معجمه وليس الغريب النادر (٢) . وهذا يعني أن غرضه يشبه إلى حد ما غرض الجوهري في تصفية

---

(١) لابن دريد كتاب قيم آخر هو « الاشتقاق » ويبحث في اشتقاق اسماء القبائل . ومن كتبه المطبوعة أيضاً ، الملاحن ، صفة السحاب والغيث .. وسائرها مخطوط ومنه المقتبس ، الأمالي ، الأنواء ، المقصور والممدود ، فعلت وأفعلت ، النوادر ، واللغات .

(٢) أفرد ابن دريد للنوادر من الألفاظ أبواباً ملحقة في آخر « الجمهرة » .

اللغة من الشوائب واستبعاد بعض من ألفاظها ، على حين كان غرض الخليل في « العين » استيعاب العربية وجمع ألفاظها قاطبة دون تمييز بين شائعها وغريبها .

أما منهج ابن دريد في الجمهرة فهو يختلف عن منهج الخليل في العين من بعض الوجوه برغم أن تأثير الخليل ما يزال كبيراً في المعاجم التي ألفت بعده وفيها الجمهرة نفسها . وأول ما تتسم به جمهرة ابن دريد أنها اتخذت النظام الألفبائي أساساً لترتيب ألفاظها . ويتضح من خطبة ابن دريد في جمهرته أنه قصد إلى هذا المنهج قصداً وآثره على منهج « العين » السائد ، فهو برغم إجلاله للخليل وسائر العلماء المتقدمين لم يرق له ترتيب معجمه على حسب مخارج الحروف . وفي ذلك يقول : « ولم أجر في إنشاء هذا الكتاب إلى الإزراء بعلمائنا ، وأنى يكون ذلك ، وإنما على مثالهم نحتذي وبسبلهم نقتدي » .

وقد ألف الخليل كتاب العين فأتعب من تصدى لغايته ، وكل من بعده له تبع ، أقر بذلك أم جحد . ولكنه رحمه الله ألف كتابه مُشَكِلاً لثقوب فهمه وذكاء فطنته » . ثم يقول : « وأملينا هذا الكتاب وأجريناه على تأليف الحروف المعجمة ، إذ كانت بالقلوب أعبق وفي الأسماع أنفذ ، وكان علم العامة بها كعلم الخاصة ، وطالبها من هذه الجهة بعيداً من الحيرة مشفياً على المراد » .

على أن ابن دريد لم يستطع أن يخرج عن منهج الخليل فيما عدا ذلك ، بل إنه لم يذهب إلى أبعد من ترتيب الحروف وحده . فهو لم يتخذ من هذا النظام أساساً لتقسيم معجمه بأن يجعل أساسه الأول الأبنية على غرار ما فعل

الخليل على اختلاف في ترتيب الحروف بينها . وتصنيفه الأبنية هو تصنيف الخليل بصورة عامة ، فالألفاظ عنده : ثلاثية ورباعية وخماسية [1] . كما أنه تبنى نظام التقاليب الذي ابتدعه الخليل في العين على حسب مبدأ الاشتقاق الكبير . وطبيعي أن تستغرق أبنية الثلاثي صحيحه ومعتله معظم صفحات المعجم، لأن غالبية ألفاظ العربية من الثلاثي . فاذا تناول كلمة بقل أورد تقاليبها : قلب ، لقب ، لبق ، قبل ، بلق ، فهو يستوفي هذه المادة دفعة واحدة ، ولذلك لا ضرورة لتناول بعض أوجهها فيما بعد ، اكتفاء منه بما تقدم حتى لا يقع في التكرار . ومعنى ذلك أننا اذا أردنا استخراج كلمة ربض كان علينا ان ننظر في برض وعندئذ نجدها مع سائر تقاليبها ضمن مجموعة واحدة أي ان ربض وضبر ورضب واردة في حرف الياء ومتقلبة من برض ، لأن الباء أسبق من الضاد والراء .

وهكذا قسم المؤلف تلك الأبنية الى أبواب وفقاً للترتيب الألفبائي باعتبار الحروف الأصول وحدها ، والتدرج من أول الكلمات إلى آخرها .

وقد راعى ابن دريد ان يبدأ كل باب بالكلمة التي تبدأ بالحرف المعقود له الباب ، يليه الحرف الذي بعده في الترتيب الألفبائي . فأبواب الباء يصدّرها بالباء مع التاء ، وأبواب التاء يصدرها بالتاء مع الثاء ، وأبواب الدال يصدرها بالدال مع الذال ، ويستمر فيما بعدها من حروف ، فالدال مع الذال مثلاً ثم

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب المعجم العربي : حسين نصار ٢ : ٢٧١ .

مع الراء ، ثم مع السين فالشين الى آخر الحروف. أما الدال مع الحروف التي قبلها مثل الخاء والحاء والجيم ، فقد وردت في الأبواب السابقة ، لسير المعجم على طريقة التقاليب ، ولذلك لا يوردها هنا ثانية (فاذا بلغ الراء بدأ بذكر الأصول التي تبدأ براء فزاي مثل : رزم رزق ، ثم ذكر الأصول التي تبدأ براء فسين مثل رسغ رسف رسل . . ولكنه لا يذكر في هذا الباب ربع لأن ذكرها سبق في برع ، ولا رجع لأن ذكرها سبق في جرع ، ولا رمم ، لأنه سبق شرحها في مرم ، ولا رزح لانها سبقت في مرز ، ولا رسخ لأنها سبقت في مرس ، وعلى هذا فقس [1] .

ومما زاد منهج ابن دريد عسراً في الجمهرة أنه جعل لكل من الثلاثي والرباعي والخماسي ملحقات . فالمعجم مقسم عنده الى الثنائي المضاعف وما يلحق به ، فالثلاثي وما يلحق به . . الخ كما ألحقت بهذه الأبواب أبواب أخرى في اللفيف وأبواب سواها في النوادر .

وتبدأ الجمهرة بـ (باب الثنائي الصحيح) ويستهله بباب الهمزة على هذا النحو : (أ بَ بَ ، الأبّ المرعى ، وفاكهة وأبّا ، وأبّ أبّا للشيء إذا تهيأ له أو همّ به . .) وبعد ذلك : أتَتَ ثم أثَثَ . . أمَمَ الخ .

وفي باب الباء يبدأ بايراد : ب تَ تَ ، البتّ . ومن معكوسه تبت يداه . .) ثم ب ثَ ثَ ، ثم « ب جَ ج . واستعمل من معكوسه جَبّ ، وناقة جباء وبعير أجبّ . . كلها بمعنى القطع . والجب

---

(١) الدكتور أمجد الطرابلسي : حركة التأليف عند العرب ٢٧ الطبعة الأولى .

البئر العميق .. ».

وبعد ذلك يأتي الجزء الآخر من المعجم ويتضمن أبواب الثلاثي الصحيح وما تشعب منه ، ويضم معظم ألفاظ المعجم ، كأن يورد مثلاً : ب ت ث ، ب ت ح ، ب ت ر . .

وبوسعنا تلخيص مادة : بتر أي : ب ت ر في الجمهرة في قول ابن دريد : « بتر الشيء يبتره بتراً اذا قطعه ، وكل قطع بتر ، ومنه سيف باتر وبتار وبتور ، أي قاطع ، والجمع بواتر وبِتار . وحمار أبتر ، والجمع بُتْر ، إذا كان مقطوع الذنب ، وكذلك ما سواه البهائم . وكل ما بتر عن شيء فهو أبتر.

والتبر : الذهب . وقال قوم هو الذهب المستخرج من المعادن قبل ان يصاغ . .

والرتبة : المنزلة ، وكذلك المرتبة . ورتب الشيء يرتب رتوبا : اذا ثبت فلم يتحرك . .

والتريبة : مجال القلادة على الصدر ، والجمع الترائب . والتِرب : اللدة التي ينشأ معك ، والجمع أتراب ، وترب الرجل اذا افتقر ، وأترب اذا استغنى . والمتربة : الفقر ، وتربة الأرض : ظاهر ترابها ، وتربة الميت رمسه ، وتجمع التربة تُرَبا . والتراب والتيرَب والتورب كله من اسماء التراب » .

ويمتاز كتاب الجمهرة بأنه أيضاً أصل راسخ من الأصول التي اعتمد

عليها مؤلفو المعاجم بعده . وقد عرف بعنايته بايراد لهجات العرب ولغاتها ، وباهتمامه أيضاً بالدخيل والمعرّب .

غير ان جمهرة ابن دريد ، كبارع القالي ، لم تحظ بالانتشار الواسع لما انطوى عليه منهجها من عسر وتعقيد ، فلم تكن يسيرة المأخذ . ومن هنا مست الحاجة فيها الى صنع فهارس مفصلة بمحتواها مما يسهل الانتفاع منها . وقد حظيت مع ذلك بعناية الأقدمين من العلماء فقامت حولها دراسات عديدة منها « فائت الجمهرة » لأبي عمر الزاهد و « جوهرة الجمهرة » للصاحب بن عباد وهو مختصر للجمهرة . و (نشر شواهد الجمهرة) لأبي العلاء المعري . . وكلها مفقود .

طبعت « جمهرة اللغة » في حيدر أباد بالهند في تحقيق جيد (١)

مقاييس اللغة

يعد أحمد بن فارس من أبرز اللغويين الذين تفقهوا في العربية وعرفوا خصائصها . وقد عاش في النصف الثاني من القرن الرابع . وبلغت كتبه زهاء الأربعين ، في مقدمتها « الصاحبي في فقه اللغة » ثم كتاب « المجمل » في اللغه

---

(١) صدرت عام ١٣٤٤ هـ في ٣ مجلدات من القطع الكبير في نحـــو ١٥٠٠ صفحة يضاف اليها مجلد يزيد على نصف حجمها ينطوي على فهارس مفصلة لمحتواها . وكان ذلك بعناية محمد السورتي والمستشرق سالم كرنكو .

وكتاب « مقاييس اللغة ». « المجمل » و« المقاييس » معجمان لغويان يتشابهان في أكثر الوجوه ، و « المجمل » أوجز ، ولعل ابن فارس ألفه للناشئين ، وقد استفاضت شهرته وذاع أمره على حين لم يحظ كتاب « المقاييس » بمثل ذلك على الرغم من أن ابن فارس يبدو فيه أعمق نظراً وأنضج فكراً . كما ان « المقاييس » يفوق « المجمل » في غزارة مادته .

وابن فارس متأثر بمناهج أسلافه من أصحاب المعاجم وفي طليعتهم الخليل وابن دريد وكان له مع ذلك منهجه الخاص الذي يدل على فكر مستقل. وفي خطبة كتابه الموجزة التي لا تعدو صفحة واحدة ما يشير الى منحنى ابن فارس في معجمه حيث يقول :

« ان للغة العرب مقاييس صحيحة ، وأصولاً تتفرع منها فروع . وقد ألف الناس في جوامع اللغة ما ألفوا ، ولم يعربوا في شيء من ذلك عن مقياس من تلك المقاييس ولا أصل من تلك الأصول ..

وبناء الأمر في سائر ما ذكرناه على كتب مشتهرة عالية تحوي أكثر اللغة . فأعلاها وأشرفها كتاب الخليل بن احمد المسمى كتاب العين .. ومنها كتابا أبي عبيد في (غريب الحديث ومصنف الغريب) . . ومنها كتاب (المنطق) لابن السكيت .. ومنها كتاب ابن دريد المسمى (الجمهرة) . . فهذه الكتب الخمسة معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة ، وما بعد هذه الكتب فمحمول عليها وراجع اليها »

ان فكرة المقاييس التي اطلقها ابن فارس عنواناً لمعجمه كانت تشغل ذهنه، وهو يعني بالمقاييس الاشتقاق الكبير الذي يُرجع مفردات كل مادة الى معنى أومعان تشترك فيها هذه المفردات . وكان ابن فارس كثير الاهتمام بمبدأ القياس في اللغة .

وقد بوب ابن فارس معجمه على الترتيب الألفبائي متبعاً في ذلك جمهرة ابن دريد . غير أن منهج ابن فارس يختلف فيما عدا ذلك عن منهج ابن دريد في أنه طرح مبدأ التقاليب ، واتخذ مبدأ الاصول في مواده اللغوية . فعلى حين قسم ابن دريد جمهرته إلى أبواب كبرى ككباب الثنائي الصحيح وباب الثنائي الملحق بالرباعي ، وباب الثلاثي المعتل وباب الرباعي ، جعل ابن فارس معجمه في فصول توافق عدد حروف الهجاء ، وسمى كل فصل كتاباً ؛ فكتاب للهمزة وكتاب ثانٍ للباء وثالث للتاء . . فكلمة بقل في كتاب الباء ، وكلمة قبل في كتاب القاف على حين أن بقل وتقاليبها الخمسة تجتمع معاً عند ابن دريد .

ثم قسم صاحب المقاييس كل كتاب أو كل حرف ثلاثة أبواب أي على حسب عدد الأبنية . أولها باب الثنائي المضاعف ، فباب الثلاثي ، واخيراً ما زاد على الثلاثي من المجرد . وهذا تقسيم صغير وبسيط ومحكم يفضل تقسيم الخليل وابن دريد ويفوقه اطراداً ويسراً .

وقد جعل ابن فارس الحرف الأول من اللفظ أساساً من تصنيف ألفاظ معجمه.

ويتضح لنا منهج « المقاييس بأن نمثل له بـ « كتاب القاف » الذي يشير على حسب التقسيم الذي ألمحنا إليه ، وذلك على هذا النحو :

(كتاب القاف)

١ ـ « باب القاف وما بعدها في الثنائي الذي يقال له المضاعف والمطابق » أي : الثنائي : المضاعف :

قلَّ ، قمَّ ، قنَّ ، قهَّ . . ثم انعطاف الى البداية : قبَّ . قتَّ . قدَّ . قرَّ . قصَّ . قعَّ . قفَّ .

٢ ـ « باب القاف واللام وما يثلثهما » أي : باب الثلاثي :

قلم . قله . قلو . . ثم انعطاف الى : قلب . قلت . قلح . قلع . قلق .

« باب القاف والميم وما يثلثهما » :

قمن . قمه . قما . (قمىء) . . ثم انعطاف الى قمح . قمر . قمط . قمع . قمل .

باب القاف والنون وما يثلثهما ، فالقاف والهاء . . وبعد استيفاء ذلك يكون عود الى ما قبل مادة : قلم التي انعقد لها باب الثلاثي وبدىء بها ، فترد القاف مع الباء وما يثلثهما على هذا النحو : قبح . قبر . قبس . قبض . قبع . قبل . . وبعد ذلك مع التاء : قتد . قتر . قتل . قتم . . ثم انعطاف الى قتب .

وبعدها ننتقل الى : قحد . قحط . قحف . . وبعـد ذلك : قدر . قدس . .
وأخيراً قفل . قفن . قفى . ثم انعطاف الى قفر . قفز . وأخيراً : قفع .

٣ ـ « باب ما جاء على اكثر من ثلاثة احرف » أي : باب الرباعي والخماسي :

القلمّس : ويشرحها : ابن فارس بمعنى السيد . والقدموس أي : القديم والقرفصاء وهي جلسة . والقطرب ، وهي دويبة ...

وحين يفرغ المؤلف من « كتاب القاف » بعد أن استوفاه ينتقل الى « كتاب الـكاف » ويسير فيـه على حسب الأقسام الثلاثة المتقدمة متبعاً في داخلها النسق السابق .

غير أن من عيوب طريقة ابن فارس في معجم (المقاييس) أن الحرف الثاني في كل كلمة لم يكن يبدأ من أول الحروف الهجائية بل من الحرف التالي لأول الـكلمـة ، وذلك على غرار منحى ابن دريد في (الجمهرة) . فهـو يجعل كل كتاب للحرف المعقـود له مع ما يليـه ، وكـأنه يعتبر الحرف المعقود له بداية للحروف . ففي (كتاب الجيم) مثلاً يستهل المضاعف بكلمة جحّ وبعدها جخّ ، جد ، جذ ، جر ، جز ، جس .. جم ، جن ، حتى ينتهي إلى جو ، وعندئذ ينعطف من جديد لاستيفاء الحروف السابقة على الجيم ، فيـورد جأ ،

جب ، جث . وهذا الانعطاف الغريب انفرد به ابن فارس [1] .

كذلك الحال في باب الجيم والدال وما يثلثهما ، أي في الثلاثي ، وذلك داخل كتاب الجيم نفسه ، فيستهله بلفظ : جدر وبعده جدس ، جدع ، جدف ، جدل ، حتى إذا بلغ آخر الحروف عاد ليستوفي الحروف السابقة للجيم أي التي تجاوزها فيورد : جدب ، جدث ، جدح .

وقد كان لهذا المنحى ما يبرره في منهج ابن دريد الذي يقوم على مبدأ التقاليب ، على حين لم يكن ثمة داع للتمسك به في منهج ابن فارس الذي يقوم على الأصول ويفرد لكل حرف فصلاً مستقلاً .

أما خصائص المقاييس فهي التركيز والإيجاز برغم أنه يبقى أكثر إسهاباً من معجم (المجمل) ، فهو قد يهمل شرح بعض الألفاظ ، ويتجاوز عن ذكر أسماء بعض اللغويين الذين يقتبس منهم وخاصة الخليل وابن دريد وابن السكيت ، اكتفاء منه باشاراته الى فضلهم في خطبة معجمه . ومن خصائصه أيضاً عنايته بالمجاز . ومنها اهتمامه بعض الشيء بالدخيل حين يبين خروجه عن أقيسة العرب . ومنها أيضاً عنايته بالكلمات المنحوتة وبخاصة في الرباعي .. ومنها أخيراً أصالة مؤلفه واستقلال شخصيته ، فهو برغم إكثاره من ايراد أقوال اللغويين يعمد عند اقتضاء الأمر الى نقدهم كما كان من شأنه مع الكسائي وابن الأعرابي وابن

---

(١) لم يلجأ ابن دريد الى هذا الانعطاف الى الحروف السابقة للحرف الذي عقد الباب له لعدم الحاجة الى ذلك . فهذه الحروف يكون ورودها سابقاً بطبيعة الحال في نظام تقاليب الأبنية .

دريد في بعض الأحيان . كل ذلك بالإضافة الى اعتماده على الترتيب الألفبائي وخروجه عن مبدأ التقاليب السائد ، وأخذه بمبدأ الأصول . ومعجم (المقاييس) فوق هذا كله يتسم بروح واحدة تنتظم مادته ومنهج سائد يهيمن على مضمونه.

صدر معجم (مقاييس اللغة) محققاً في القاهرة في ٦ أجزاء [1] .

الصحاح

أبو نصر الجوهري من أئمة اللغة ذكاء واقتداراً تتلمذ على أبي علي الفارسي وأبي سعيد السيرافي ورحل الى بادية الحجاز وشافه الأعراب ، وكان معروفاً بخطه البديع . ومعجمه « تاج اللغة وصحاح العربية » نموذج لازدهار حركة التأليف المعجمي خلال القرن الرابع الذي عرف الجمهرة والبارع وتهذيب اللغة والمجمل ومقاييس اللغة .. ثم الصحاح في أواخر ذلك القرن .

وكان الغرض الأول في هذه المعاجم توخي الاستيعاب وتيسير البحث عن المواد . وذهب كل منها مذهباً خاصاً في ذلك . ولكنه ما من معجم من بين هذه المعاجم بلغ في تحقيق هذا الغرض ما بلغه الصحاح ، حتى لقد فضله العلماء وقدموه ، فقال فيه الثعالبي [2] : « وهو أحسن من الجمهرة وأوقع من

(١) صدر « المقاييس » سنة ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٦ م بتحقيق عبد السلام هارون .
(٢) يتيمة الدهر ٣ : ٢٨٩ .

تهذيب اللغة وأقرب متناولاً من مجمل اللغة » .

ومع أن معاجم أخرى توخت الألفاظ الصحيحة قبل الجوهري كالبارع وتهذيب اللغة فان الصحاح هو الذي اتسم بهذه الخاصة وعرف بها . وقد أكد الجوهري ذلك في عنوان كتابه ثم في مقدمته الوجيزة حيث يقول : « أودعت هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة التي شرف الله تعالى منزلتها » . وتعني الصحة لديه التزام الصواب في النقل وتحري الضبط في التدوين كيلا يتسرب التصحيف والخطأ الى مواده ، وذلك بأن ينص على سكون الحرف في الكلمة أو نوع حركته كتابة ، كأن يقول « حسَبته أحسُبه بالضم اذا عددته ، وحسِبته صالحاً أحسَبه بالفتح أي ظننته . ويقال أحسِبه بالكسر وهو شاذ . »

على أن أهم ما يمتاز به « الصحاح » ويفضل سائر المعاجم التي تقدمته انما هو منهجه القويم . فقد طرح الجوهري أنظمة الذين سبقوه من أصحاب المعاجم واتخذ لمعجمه نظاماً طريفاً بلغ فيه غاية التوفيق وأصبح لمن أتوا بعده قدوة . فقد أهمل الجوهري قبل كل شيء ترتيب الحروف على المخارج الذي ابتدعه الخليل وظل سائداً من بعده ، كما أهمل مبدأ الابنية ونظام التقاليب ، وآثر ترتيب ألفاظ معجمه على النظام الألفبائي السهل من جهة ودون أن يربط هذا النظام بنظام الابنية ولا بنظام التقاليب من جهة أخرى . وبذلك خلص الصحاح من مظاهر التعقيد التي لازمت المعاجم السابقة وكانت تعيبها وتقلل الانتفاع منها . وقد أقام الجوهري معجمه على الأسس التالية :

١ ـ تقسيم المعجم الى ثمانية وعشرين باباً ، اي لكل حرف من حروف الهجاء باب ، أولها باب الهمزة وآخرها باب الالف اللينة [١] .

٢ ـ تصنيف الألفاظ في كل باب على حسب الحرف الأخير ، أي ترتيب الكلمات وفقاً لأواخرها [٢] . فكلمة بسط يبحث عنها في الصحاح في باب الطاء . وهذا الباب يضم جميع الكلمات المنتهية بطاء مثل ربط وغلط وفرط ونبط ..

٣ ـ تجزئة كل باب الى ثمانية وعشرين فصلاً صغيراً . أي أن كل حرف من حروف الأبواب يضم ثمانية وعشرين حرفاً تتعلق بأول الكلمة [٣] وترتب هذه الكلمات بدورها أيضاً ترتيباً الفبائياً على حسب أولها داخل كل باب . فباب العين يشتمل على جميع الكلمات المنتهية بحرف العين ، وهي مرتبة على هذا النسق : برع ، جمع ، صرع ، نفع ، وقع .. ففي باب الباء نجد أولاً

---

(١) عمد صاحب الصحاح وأكثر أصحاب المعاجم من بعده الى دمج حرفي الواو والياء في باب واحد لأنهما كثيراً ما ينقلبان ألفاً .

(٢) هذا المنهج الذي ابتدعه الجوهري في الصحاح يعرف أيضاً بطريقة التقفية لأن الكلمات تتوالى خلاله على نسق الحرف الأخير الذي يشبه تتابع القوافي في القصيدة .

غير أن بعض الباحثين مثل حمد الجاسر في مجلته الشهرية « العرب » السنة الأولى محرم ١٣٨٧ ﻫ أثبت أن الجوهري ليس مبتكر منهج التقفية في المعجم العربي كما هو سائد ، بل سبقه اليه أبو بشر اليمان البندنيجي المتوفى سنة ٢٨٤ ﻫ في كتابه « التقفية » .

(٣) قد يقل بعض الفصول عن ذلك لعدم وجود كلمات مستعملة عليها .

فصل الهمزة ثم الباء فالتاء فالثاء فالجيم ثم فصل الحاء حيث نجد الكلمات حبب، حجب، حدب، حزب، حسب .. فالترتيب مراعى أيضاً داخل حروف الكلمة نفسها في ثانيها، وأيضاً في ثالثها ورابعها اذا كانت الكلمة أكثر من ثلاثة حروف أو أكثر من أربعة.

أما الدافع الى إيثار آخر حرف في الكلمة بدلاً من أوله في تصنيف ألفاظ الصحاح فمرده إلى خصائص الكلمة العربية نفسها التي تتسم في طبيعتها بميزة الاشتقاق. والحرف الأخير من اللفظ وبخاصة لام الفعل يبدو أكثر ثباتاً وتمكناً من سائر حروفه. ولعل مرد ذلك أيضاً إلى أن أكثر الألفاظ التي تحتاج إلى شرح إنما توجد في قوافي القصائد التي ينتهي رويها بحرف واحد. والشعر مصدر أساسي من مصادر اللغة والمعاجم. ولا شك أيضاً في أن مثل هذه الطريقة من جهة أخرى تقدم للناظمين مادة لغوية غزيرة لاختيار قوافيهم، كما تقدم للناثرين قدراً وافراً من الألفاظ المسجوعة.

ومع أن اعتماد الحرف الأخير من الكلمة قد يبدو أمراً غريباً فانه يغدو مألوفاً ويسيراً بعد قليل من المران. وهذا أسهل كثيراً من طريقة المعاجم التي ألفت قبل الصحاح برغم اعتمادها الحرف الأول من الكلمة. ولهذا ذاع ترتيب الصحاح وكان تأثيره بالغاً في المعاجم التي ظهرت بعده، فقد تبنت هذا النظام معاجم كثيرة وشهيرة مثل « لسان العرب » و « القاموس المحيط » وغيرهما من المعاجم التي آثرت السير على غرار « الصحاح ».

ويستمد الجوهري مادته من « العين » ومن « الجمهرة » ومن غيرهما،

وورد زيادات على الخليل وابن دريد . وقد مكنه من هذا الاستيعاب جنوحه إلى الاختصار في مواضع أخرى ، فهو لا يكثر من ذكر الآراء المختلفة كما يفعل الأزهري في تهذيب اللغة ، ولا يحرص دائماً على نسبة كل قول الى صاحبه كما يفعل القالي وغيره . يضاف الى ذلك كله التزامه الصحيح من الألفاظ وطرحه الألفاظ غير الصحيحة .

ومما امتاز به الصحاح أيضاً إشارته في كثير من الأحيان في صدد الألفاظ إلى الضعيف والرديء والمتروك من اللغات ، وإلى العامي والمولد والمعرب ، بالإضافة الى ذكره الألفاظ النوادر والأضداد وعنايته بجوانب الصرف من اشتقاق وإبدال وإعلال ، وحالات أخرى في النحو .

وكان أثر « الصحاح » فيما بعده من المعاجم كبيراً يضارع أثر « العين » أو يفوقه . فقد غدا نظامه هو السائد ، وبفضله حصل الانعطاف في المعاجم إلى اليسر والسهولة . ولم يُخدم معجم عربي إطلاقاً مثلما خدم صحاح الجوهري ، وكثيرون هم الذين درسوه وألفوا حوله ، أو كتبوا بصدده حواشي وتعليقات ، أو أكملوه واستدركوا عليه ، أو اختصروه ، أو غيروا في ترتيب نظامه ، أو ترجموه (١) وبلغوا أكثر من المائة عدداً (٢) .

---

(١) نقل بعضهم معجم الصحاح الى الفارسية والتركية .

(٢) انظر ذلك مفصلاً في كتاب « مقدمة الصحاح » تأليف أحمد عبد الغفور العطار . ص ١٥٤ - ١٧١ .

صدر « الصحاح » أول الأمر في مجلدين بمطبعة بولاق المصرية . ثم نشر نشراً علمياً متقناً في ستة مجلدات [1] . وحظي بعناية المتقدمين والمتأخرين [2]

لسان العرب

ظهر هذا المعجم في آخر القرن السابع الهجري أو في مستهل القرن الثامن . وقد ألفه ابن منظور المصري . ولسان العرب من أضخم معاجم العربية

---

(١) صدرت طبعة بولاق أول مرة سنة ١٢٨٢ هـ ، ١٨٦٥ م . ولعلها أول طبعة حظي بها معجم عربي وكانت الطبعة الثانيه سنة ١٩٥٧ ، وهي بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار . وفي سنة ١٢٨٧ هـ ، ١٨٧٠ م .

(٢) صدر « تهذيب الصحاح » لمحمود بن احمد الزنجاني (٥٧٣ - ٦٥٦) في طبعة جيدة عن دار المعارف في مصر بتحقيق عبد السلام هارون وأحمد عبد الغفور عطار وذلك سنة ١٣٧٢ هـ ، ١٩٥٢ م في ثلاثة مجلدات . وقد سار فيه الزنجاني على ترتيب الصحاح مختصراً مواده الى ما يقرب من ثلث الأصل .

و « مختار الصحاح » عمله محمد بن محمد بن أبي بكر الرازي من علماء القرن الثامن الهجري . وطبع أول مرة سنة ١٢٨٢ هـ ، ١٨٦٥ م ويبلغ عشر ما في الصحاح تقريباً ، وكان مرتباً على ترتيب الصحاح ، ثم قام محمود خاطر أحد موظفي مطبعة بولاق في مصر بترتيب مختار الصحاح ترتيباً ينظر فيه الى الحرف الاول على حسب ما درجت عليه المعجمات الحديثة . وطبع سنة ١٣٢٥ هـ ، ١٩٠٧ م بعد أن حذف منه بعض الألفاظ التي رأى أنها غير لائقة في السماع .

وعلى الرغم من الرواج الكبير الذي حظي به مختار الصحاح لدى الناشئة حين صدوره بفضل ترتيبه الحديث السهل . فانه ضئيل الجدوى لا يفي بغرض ولا يسعف الباحث .

ضخمة وأكثرها إسهاباً وأغزرها مادة .

حرص ابن منظور على أن يجتمع في معجمه عنصران هامان هما الاستقصاء والترتيب . وقد أفاد في سبيل ذلك من جهود أسلافه وصرح في مقدمته بأنه اعتمد على مجموعة من المعاجم التي تقدمته وفي طليعتها « تهذيب اللغة » للأزهري ، و « المحكم » لابن سيده ، و « الصحاح » للجوهري ..

و « لسان العرب » لا يختلف في طبيعة منهجه عن منهج « الصحاح » . فهو ينقسم أيضاً إلى أبواب عددها ثمانية وعشرون ، كما ينقسم كل من هذه الأبواب إلى فصول يبلغ أقصاها ثمانية وعشرين فصلاً . ولا تختلف هذه الأبواب والفصول عن نظائرها في الصحاح إلا في ضخامتها وشدة تقصيها وكثرة الشواهد فيها . ومن هنا يصح القول في اللسان إنه أقرب شيء إلى أن يكون موسوعة شاملة في اللغة والأدب . ومن هنا فان لسان العرب لا يضارع سائر المعاجم في قرب المأخذ ويسر التناول بسبب إسهابه المفرط وضخامة حجمه . على أنه مرجع شافٍ للغليل يسعف الباحث المتعمق والدارس المتخصص ببغيته .

والحق أن ابن منظور لم يأت بجديد في التأليف المعجمي وكان في منهجه متبعاً لا مبتدعاً ، فقد استقرت السبل في هذا المجال حتى عهده فلم يكن أمامه إلا الجمع والاستيعاب ، وكفاه في ذلك فضلاً في عصر كاد يجف خلاله معين الإبداع . وكثيراً ما يحافظ صاحب اللسان على عبارات أسلافه من العلماء ، وقد عمد خلال ذلك إلى حذف كثير من الأسانيد تخففاً من التطويل الزائد .

وقد طبع « لسان العرب » أول الأمر بالمطبعة الأميرية المصرية ببولاق سنة ١٣٠٠ هـ في عشرين مجلداً يبلغ مجموع صفحاتها نحو ستة آلاف صفحة [١]

القاموس المحيط

الفيروز آبادي من أعلام القرن الثامن الهجري . وقد أسمى معجمه « القاموس المحيط » أي البحر الأعظم ليدل بذلك على استيعابه وشموله وتقصيه في احتواء ألفاظ العربية .

وقاموس الفيروز آبادي متأثر الى حد كبير بصحاح الجوهري وهذا جلي من ناحيتي الايجاب والسلب . فهو قد ورث نظام الصحاح في ترتيبه الألفبائي ،

---

(١) أعيد إصدار طبعة بولاق النادرة سنة ١٩٦٥ تصويراً في مصر لا يرقى الي إتقان الأصل . وكان اللغوي الكبير احمد فارس الشدياق هو الذي تولى الاشراف على طباعة لسان العرب . ثم صدر المعجم في بيروت في حلة حديثة ولكنها مشوبة ببعض الأغلاط في الرسم والضبط .

وفي مستهل عام ١٩٧٠ صدر لسان العرب في حلة عصرية جديدة باسم « لسان العرب المحيط » . وقد عمد يوسف خياط ونديم مرعشلي الى قلب ترتيب اللسان بأن جعلاه على حسب أوائل الألفاظ محتفظين فيما عدا ذلك بأصول المواد وشروحها ، وهذا جهد كبير جعل اكبر معجم في العربية يسير المأخذ . ويمتاز المعجم بذيل جديد اقتضته طبيعة العصر هو معجم المصطلحات الفنية والعلمية ، فضلاً عن مجموعة من الخرائط والمصورات التي تجعل هـذا المعجم القديم أشبه بالموسوعات الحديثة . ويقع المعجم في ثلاثة مجلدات ضخام استغرقت ما يربو على ٤ آلاف صفحة من القطع الكبير .

وفي اعتماده الحرف الأخير من اللفظ في تصنيف مواده . كما عمد في مواضع كثيرة الى نقد الصحاح والاستدراك عليه فيما فاته . وكان له بعد ذلك طابعه المميز ، ويتجلى في الخصائص التالية :

١ ـ كثافة مادته ؛ فهو ينطوي على مواد غزيرة تفوق ما كان منها في (الصحاح) ، كما أنها لا تقل عن مواد لسان العرب وقد تزيد . ومع ذلك كان حجم القاموس أصغر من حجم اللسان بسبب جنوح مؤلفه الى التكثيف والاقتضاب .

٢ ـ اعتماده رموز واصطلاحات خاصة اصطنعها وأرشد اليها في مقدمة القاموس توخياً للايجار وحرصاً على الاستيعاب . فالرمز « م » يعني ان اللفظ معروف ، و « ع » موضع و « ج » جمع ، و « جج » جمع الجمع و « د » بلد ..

٣ ـ لجوؤه إلى ضبط الكلمات وتقييدها بالعبارة أو بالتمثيل الشائع وذلك بصورة مطردة ، وإغفال هذا الضبط في المشهور وفي الفصيح ، وكذلك في عين المضارع المفتوحة ، اكتفاء بضبط اللفظ في حالتي الضم والكسر . كذلك تقديمه الفصيح والمشهور على النادر والغريب ، وتأخيره اسماء الاعلام ..

٤ ـ طرحه اسماء اللغويين والرواة الذين تؤخذ عنهم الصيغ والمعاني ، وهذه خطوة باتت لازمة بعد ان صارت هذه الأقوال من حصيلة تراث معروف انقضت عليه عهود مديدة .

على أن حرص الفيروز ابادي على الايجاز والتركيز وعلى الشمول والاستيعاب مما قد جعل قاموسه منطوياً على عدد من العيوب ، أهمها الوقوع في الاخلال بالمعنى احياناً نتيجة جنوحه الى الاقتضاب كما أن توخيه إجمال القول ساقه الى الاقتصار على متن اللغة الى حد كبير دون إيراد شروح وافية [١] . حتى إنه عمد الى حذف الشواهد على اختلاف أنواعها تقريباً من قرآن وحديث وأشعار وأقوال ، من ذلك ان شواهده الشعرية لم تتجاوز مائتين وخمسين شاهداً .

وبرغم جودة الترتيب داخل القاموس فانه لا يطّرد دائماً على نسق معين ، فربما خلط المعاني المتعددة في اسرة البناء الواحد ، دون ان يراعي في عرضها اي تسلسل ، فقد يبدأ بصيغة الفعل أحياناً ، وأحياناً أخرى بصيغة الفاعل . فاذا اراد المرء ان يبحث عن احد معاني الكلمة كان عليه ان يقرأ كل ما ورد في المادة . والحق أن هذا من عيوب المعاجم القديمة بوجه عام ولا ينفرد به القاموس وحده .

وتبعاً لذلك الاجمال فان الرجوع الى القاموس المحيط يحتاج الى أناة ومران والى إلمام ببعض الأسس في اللغة ، فضلاً عن دراية بالرموز التي اصطنعها المؤلف في مقدمة قاموسه .

---

(١) من الملاحظ ان الفيروز ابادي برغم توخيه الاقتضاب كان يعمد الى الطعن في الجوهري صاحب الصحاح . وكشف أغلاطه كلما وجد الى ذلك سبيلاً .

كذلك آثار القاموس اهتمام الكثيرين من اللغويين في القديم والحديث، وكان اهتمامهم ينصب في الغالب على تفصيل ما أجمله، أو استدراك ما فاته، أو استكمال شواهده[1]، لايضارعه في ذلك غير الصحاح من بين معاجم العربية.

ويقع «القاموس المحيط» في أربعة مجلدات. وقد طبع مرات كثيرة[2].

تاج العروس

الزَّبيدي من أعظم اللغويين المتأخرين ومن بقية السلف الصالح، عاش في القرن الثاني عشر الهجري، وكان كتابه المسمى «تاج العروس من جواهر القاموس» تتويجاً للدراسات اللغوية والمعاجم السالفة.

و «تاج العروس» من أوسع معاجم العربية، وهو يقارب في حجمه

---

(١) انظر تفصل ذلك في كتاب «المعجم العربي» ٢ : ٥٦٦ للدكتور حسين نصار. ومن هؤلاء في الحديث احمد فارس الشدياق في كتابه «الجاسوس على القاموس». وأخيراً المؤلف المعاصر الطاهر احمد الزاوي الطرابلسي الذي بذل جهداً قيماً في جمل القاموس المحيط مرتباً على حسب أوائل الحروف. وقد صدر سنة ١٩٥٩ باسم «ترتيب القاموس المحيط»

(٢) صدرت أول طبعة لكتاب الفيروز بادي سنة ١٢٨٩ هـ، ١٨٧٢ م. وقد حظي هذا القاموس بعناية علماء الافرنج في وقت مبكر دون غيره من المعاجم فجنحوا لترجمته الى اللغة اللاتينية في ايطاليا سنة ١٦٣٢ م.

لسان العرب . وقد اتخذ مؤلفه من القاموس المحيط أساساً له ومنطلقاً في تأليفه معجمه ، وبذلك يعد أهم مصنف ظهر حول معجم الفيروز ابادي . وهو في الوقت نفسه آخر معجم مطول في سلسلة المعاجم العربية القديمة .

وقد أتيح للزبيدي بحكم تأخره في الزمان أن يقف على معظم الدراسات والمصنفات التي ألفت في صدد القاموس وأن يفيد منها ، يدفعه إلى غايته إيجاز المحيط وانطواؤه على بعض الغموض من جهة ، وذيوع فضله وانتشاره بين الناس من جهة أخرى . وفي سبيل هذا القصد رجع الزبيدي إلى مصادر ومراجع كثيرة بلغ عددها في مقدمته مائة وعشرين مرجعاً .

وطبيعي أن ينسج الزبيدي معجمه على منوال المحيط من حيث تبويبه وتصنيف ألفاظه ، ثم يضيف اليه الكثير مما لم يكن فيه . غير أن ما يؤخذ عليه تقيده بأصل عبارة المحيط ومحافظته في كثير من الأحيان على نصها .

ومن الظواهر الجديدة التي نجدها في « تاج العروس » اهتمامه بذكر المعاني المجازية في صدد شرح الألفاظ ، وعنايته أيضاً بايراد العامي من الكلام وبخاصة من اللهجة المصرية ، وهذه بادرة حسنة في الوقوف على اللهجات العربية المتأخرة .

و « تاج العروس » يفضل أكثر معاجم العربية في شموله واستيعابه

وضبطه . وهو بحق حصيلة المعاجم السالفة وتاجها [1] .

طبع « تاج العروس » في عشرة أجزاء من القطع الضخم ، ثم أعيد طبعه تصويراً وصدرت أجزاء منه مؤخراً في طبعة جديدة متقنة [2] .

أساس البلاغة

الزمخشري إمام كبير من أئمة الفكر العربي وله منزلة مرموقة في مجالات التفسير والأدب والبلاغة واللغة والاعتزال . عاش إبان القرن الخامس الهجري . ومعجم (أساس البلاغة) نمط فذ وطريف بين معاجم العربية ، وينم على ما اتسم به مؤلفه من إبداع وأصالة . ومن خلال مقدمة الزمخشري ومن وراء

(١) قام المستشرق الانكليزي ادوارد لين Edward william Lane المتوفى سنة ١٨٧٦ م بتأليف معجم كبير كان اعتماده فيه على تاج العروس ، وسماه « مد القاموس » طبع منه خمسة أجزاء في حياته ثم أكمله حفيد أخته ستانلي لين بول Stanli Lane Poole المتوفى سنة ١٩٤١ في ثلاثة مجلدات أخرى عن مسوداته .

(٢) صدر التاج أول مرة في مصر في ١٠ أجزاء سنة ١٣٠٦ هـ ، ١٨٩٠ م بالطبعة الخيرية ، ثم اعيد نشر هذه الطبعة تصويراً في بيروت من قبل مكتبة دار الحياة وذلك في أواخر الستينات من هذا القرن العشرين ويستغرق نحواً من خمسة آلاف صفحة من القطع الضخم .
وصدر تاج العروس تباعاً عن دولة الكويت في نشرة مترفة بعناية لفيف من المحققين . لم تسلم برغم ذلك من المآخذ واغلاط التي استدركها عليه بعض المدققين .

العنوان الذي آثره لمعجمه يتجلى أمامنا الهدف الذي رمى اليه هذا المؤلف من تأليف هذا المعجم .

لقد انطلق الزمخشري من منطلق سائر المعاجم اللغوية أنفسهم وهو تفهم القرآن وتدبره ، ورمى فضلاً عن ذلك إلى معرفة روعة بلاغته واستكناه سر إعجازه . ولذا لم يقف عند حدود الألفاظ المفردة بل تعداها إلى التركيب ، ولم يكتف باللفظ وحده وإنما نشد التعبير . وهكذا لم تكن مادته ألفاظاً متفرقة جامدة وإنما كانت عبارات حية موحية . فهو يوضح هذه الميزة في مقدمة كتابه حيث يقول :

« ومن خصائص هذا الكتاب .. التوقيف على مناهج التركيب والتأليف ، وتعريف مدارج الترتيب والترصيف ، بسَوق الكلمات متناسقة لا مرسلة بدداً ، ومتناظمة لا طرائق قِدداً » .

وقد جنح الزمخشري من خلال منهجه إلى إيراد الحقيقة والمجاز في مادته لتتضح العلاقة بينهما ، مع توخيه في الوقت نفسه التفريق بينهما وإفراد أحدهما عن الآخر . وفي ذلك يقول أيضاً :

ومن خصائص هذا الكتاب تأسيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح ، بافراد المجاز عن الحقيقة ، والكناية عن التصريح » .

وثمة خاصة أخرى تنطوي على أهمية بالغة وهي احتواء أساس البلاغة على

كثير من عيون كلام الأدباء، وتخيره ما وقع في عبارات المبدعين . فالزمخشري بذلك يسمو فوق دلالة اللفظ على معناه ليكشف لنا عن عنصرين فيه يتصلان أوثق اتصال بفن القول وجوهر الأدب ، وأول هذين العنصرين هو : « أثر الاستعمال في حياة الكلمة ، وتعيين دلالتها ، وتحديد معناها [1] » . وبذلك يعطينا « أساس البلاغة » مواد لمعرفة استعمال الكلمات حتى عصره خلال القرن السادس ، وينير الطريق لمن يحاول تأريخ تلك الدلالات . والعنصر الثاني الذي تتسم به مادة « الأساس » هو الوقوف على شيء من ايحاء الكلمة في النفس ، وظل فحواها في الذهن ووقعها في المخيلة ، وهذا ما لا تقدمه لنا المعاجم اللغوية لأن الدلالة المعجمية المجردة ليست هي كل دلالة الكلمة ، وليست هي الدلالة الأدبية التي تحمل عنصر التأثير النفسي للكلمة بما تثيره من أحاسيس وماتلفت اليه من آفاق .

ولنتتبع بعض مواد « الأساس » لنرى طريقة تناول الزمخشري لها . يقول في مادته (أبد) في مستهل معجمه : « لا أفعله أبد الآباد ، وأبد الأبيد ، وأبد الآبدين . وتقول : رزقك الله عمراً طويل الآباد بعيد الآماد . وأبّدت الدوابّ : توحشت ، وهي أوابد ومتأبدات . وفرس قيد الأوابد ، وهي نُفَّر الوحوش ، وقد تأبد المنزل سكنته الأوابد . . ومن المجاز : فلان مولع بأوابد الكلام وهى غرائبه ، وبأوابد الشعر ، وهي التي لا تُشاكَل جودةً . قال الفرزدق :

---

(١) أمين الخولي في مقدمته لأساس البلاغة .

لن تدركوا كرمي بلؤم أبيكم وأوابدي بتنحّل الأشعار . . »

وفي مادة « شأف » نقع في أساس البلاغة على ما يلي : « شَئفت رجله وشُئفت : اذا خرجت عليها الشأفة ، وهي قَرحة . . ومن المجاز : بينهم شأفة : عداوة وقد شَئفت له مثل شنِفت له اذا شَنِئته . واستأصل الله تعالى شأفتهم : عداوتهم وأذاهم : قال الكميت :

ولم نفتأ كذلك كل يوم لشأفة واغر مستأصلينا . . »

وهكذا يحرص الزمخشري على رد الألفاظ الى استعمالاتها العربيه البليغة . ولايأتي بها مفردة عارية عن التركيب . ومن هنا كان هذا المعجم متفرداً بخصائصه ، انه معجم فني أدبي بلاغي .

والزمخشري الذي امتاز من سائر أصحاب المعاجم في تأليف معجمه على هذا النحو الفريد ، تفرد أيضاً في ترتيب مواده على نحو لم يسبق اليه أيضاً حين آثر ان يبتدع منهجاً جديداً ويسير للمرة الأولى في تاريخ المعاجم العربية [1] على أساس أول اللفظ بدلاً من آخره مع بقائه ضمن النظام

(١) انظر الدكتور حسين نصار : المعجم العربي ٢ : ٦٧٤ . على أنه ينبغي التنويه بأن هذا ليس معناه ان الزمخشري هو مبتكر هذه الطريقة الحديثة برغم اشتهار نسبة ذلك اليه ، فالحق ان الفكرة بدأت عند أبي عمرو الشيباني الذي كان من أعلام القرن الثاني ومن أبرز علماء اللغة ورواة الأدب . فقد رتب معجمه المسمى « كتاب الجيم » والذي يعرف أيضاً بـ « كتاب الحروف » على النسق المعروف لدينا من حيث النظر الى الحرف الأول والنظام الألفبائي معاً برغم عدم دقته في ذلك ، وهو مازال مخطوطاً ولا يتجاوز حجمه ٣٠٠ ورقة وتوجد منه نسخة في في مكتبه الاسكوريال في اسبانيا ويقوم المستشرق الفرنسي شارل كوينز Charles Oueens بتحقيقه منذ أعوام .

الألفبائي . وبذلك يختلف أساس البلاغة من هذه الناحية المنهجية عن صحاح الجوهري وزمرته أي من حيث تناوله الكلمات من بداياتها لا من نهاياتها[1] . وطريقة الزمخشري هذه هي التي سادت آخر الأمر في المعاجم الحديثة التي قوامها النظر الى الحرف الأول الأصلي من الكلمة، مع مراعاة الثاني فالثالث..

صنف الزمخشري معجمه في ثمانية وعشرين باباً أي أنه جعل كل حرف في باب أسماه كتاباً. فالكتاب الأول كتاب الهمزة ويليه كتاب الباء فالتاء .. الخ . وهو يراعي هذا الترتيب داخل كل باب في ثواني الكلمات وثوالثها معتمداً على حروفها المجردة . فالهمزة مع الباء وبعدها الهمزة مع التاء فالهمزة مع الجيم الى آخر الحروف دون ان يسميها فصولاً ، فالكلمات تتعاقب في باب العين مثلاً على هذا الغرار : عبأ ، عبب ، عبث ، عبد ، عبر ، عبس ، عبق . . ثم عتب ، عتر ، عتق . . وهكذا يتدفق مضمون الأساس رهواً ، ويغدو في طليعة المعاجم في قرب مأخذه ويسر تناوله .

ويلاحظ أن ثمة مواد ساقطة خلال هذا النسق ، وهذه إما مهملة لا وجود لها في أصل اللغة كشأنها في سائر المعاجم ، وإما أنها قد أغفلت عن عمد من قبل الزمخشري لكونها معروفة لدى القارىء ، أو لأنها أخيراً لاتدخل

(١) من الغريب أن يعمد في هذا العصر محمود خاطر بك الى تغيير ترتيب الصحاح بجعله « مختار الصحاح » للرازي على حسب اوائل الكلمات . وأن يعمد محمد عبد الرؤوف المناوي (١٩٣١ هـ) الى اختصار اساس البلاغة وجعل ترتيبه على نظام الصحاح أي على حسب أواخر الكلمات ، وذلك في معجم أسماه « إحكام الأساس » .

في نطاق منهجه ولاتنسجم مع الفكرة العامة التي بنى عليها معجمه من حيث احتواؤه الحقيقة والمجاز معاً . وهذا يعني ان اساس البلاغة غير مستقص للمفردات ولا موف في شرح الألفاظ . ولعل هذا عيبه الوحيد . وكم كنا نتمنى لو أنه كان أوعب وأجمع . ومع أنه في حجمه أو عدد صفحاته وكلماته يقارب نصف القاموس المحيط فان شواهده الشعرية غزيرة تتجاوز خمسة آلاف شاهد الى جانب آلاف الأمثال والحكم والجمل البلاغية وفيه من الاستعمالات الأدبية ما يغري بالمطالعة والاقتباس .

ومع ان أساس البلاغة معجم موجز ويفتقر الى مزيد من التقصي والاستيعاب والشمول فانه يبقى معجماً متجدداً ونسيج وحده بين معاجم العربية .

طبع « أساس البلاغة » منذ سنة ١٢٩٩ هـ ، ١٨٨١ م عدداً من المرات، وأكثر طبعاته إتقاناً طبعة دار الكتب المصرية [١] .

---

(١) بعد أن صدرت الطبعة الأولى في مصر ، صدرت طبة ثانية سنة ١٣٢٧ هـ ، ١٩٠٩ م وهما طبعتان غير متقنتين . وفي عام ١٩٤١ صدرت الطبعة العلمية عن دار الكتب في مجلدين كبيرين بلغت صفحاتها ١٠٨٠ ثم غدت نادرة . وفي عام ١٩٥٣ اعيد إصدار المعجم تصويراً بالاعتماد على طبعة دار الكتب في حجم أقل ضمن مجلد واحد متوسط . كما صدر أيضاً في طبعات أخرى بعد ذلك في بيروت ومصر .

المعاجم الحديثة

خرجت معظم المعاجم التي ألفها العرب القدماء إلى النور تباعاً منذ منتصف القرن التاسع عشر حين وجدت طريقها إلى المطابع في مصر ، وهي القاموس المحيط ، الصحاح ومختار الصحاح ، المصباح المنير ، لسان العرب ، أساس البلاغة ... وما من ريب أن هذه المعاجم وسواها قد احتوت معظم ثروتنا اللغوية .

غير أن معاجمنا الأصيلة على جلال قدرها كانت تنطوي على عيوب جمة يتصل أكثرها بنظام التصنيف ونسق التأليف . ومع ذلك لا يمكننا أن نعد السابقين مقصرين فيما فعلوا ، فقد كان همهم الأول الجمع والاستقصاء كما بذلوا ما وسعهم الجهد في ترتيب ما جمعوا واستقصوا ، برغم ضآلة ما كان بين أيديهم آنئذ من الوسائل والأدوات .

لقد حشرت ألفاظ كثيرة في معاجمنا دون أن يكون ذلك موضعها . من مثل اسماء البلدان واعلام الناس وما إلى ذلك مما يكون موضعه أجدى مثلاً في كتب التراجم أو في الموسوعات ، لا في معاجم اللغة المتخصصة . وثمة مآخذ أخرى تشوب تلك المعاجم من مثل عدم احتفالها بترتيب مفردات اسرة

المادة الواحـدة ترتيباً دقيقاً فيما بينها ، أو ترك بعض الكلمات دون شرح لشهرتها ، والاكتفاء بكلمة (معروف) عوضاً عن الإيضاح والتفسير (١) .

لذلك كله غـدا تطوير المعاجم القـديمة أمراً لازماً تتطلبه طبيعة العصر ومعطياته العلمية والفنية والحضارية . وأصبحت الحاجة ماسة الى معاجم جـديدة تعتمد في مادتها الأساسية على أصالة المعاجم القديمة ، ثم تتلافى ما فيها من عيوب التأليف وتسد بالإضافة الى ذلك ما انطوت عليه من ثغرات ، وتحتضن ما استحدثته مجامع اللغة من مفردات واصطلاحات .

ومن جهة أخرى ارتأى كثير من الباحثين أن تعدل معاجمنا الحديثة عن ترتيب ألفاظها على حسب الأواخر وأن تكون تبعاً للأوائل ، وفقاً لمنطق الأمور ومجاراة لمعاجم سائر الأمم . وليس هذا الأمر بدعاً في معاجمنا ، فقد سبقت منـذ القدم إلى هـذا التصنيف وكان معجم « العين » للخليل رائداً في ذلك ، كما كان « أساس البلاغة » بعدئذ مثالاً يحتـذى في يسر منهجه وقرب مأخذه . وكان من أبرز هذه المحاولات قلب ترتيب عدد من المعاجم وجعلها على حسب أوائل الكلمات في القاموس المحيـط وفي مختار الصحاح وأخـيراً في لسان العرب .

---

(١) انظر ما كتبه باسهاب عدنان الخطيب في كتابه « المعجم العربي بين الماضي والحاضر » حـول عيوب « المعاجم القديمة » نشر معهـــد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ١٩٦٦ - ١٩٦٧ .

وثمة آخرون من المعاصرين أخذوا يطالبون بمزيد من التيسير والتبسيط وجنحوا الى جعل ترتيب المعجم العربي على أساس الحرف الذي تبدأ به الكلمة سواء أكان أصيلاً أم زائداً بحيث يقع الباحث على كلمة (مكتبة) في حرف الميم و (كتاب) في حرف الكاف .. وهكذا ، كما هو الحال في معجم « الرائد » الذي جنح الى هذا النهج ..

* * *

وكان للمستشرقين فضل لا يجحد في خدمة اللغة العربية وتطوير معاجمها. ففيما بين سنتي ١٨٧٧ - ١٨٨١ نشر « دوزى » وهو واحد من كبار علماء الاستشراق [١] معجما بالعربية والفرنسية أسماه « ذيل المعاجم العربية » وأثبت فيه الألفاظ التي لم يجدها في تلك المعاجم [٢] . وكان للمستشرق الانكليزي « لين » فضل كبير حين أسهم في هذه المجال وقدم للعربية خدمة جليلة .

وثمة معجم آخر يعد تكملة لمعجم دوزي ألفه المستشرق الفرنسي م.فانيان M . Fagnan [٣]

وقد طمح المستشرق الألماني فيشر الى تأليف معجم ما تزال العربية مفتقرة

---

(١) رينهارت بيتر آن دوزي R . P . A . Dozzi (١٨٢٠ - ١٨٨٣) مستشرق هولندي جليل القدر ، وهو من أصل فرنسي ويقع معجمه في جزءين ضخمين ونشر في ليدن وباريس عام ١٩٢٧ باسم : Supplement aux Dictionnaires Arabes

(٢) انظر مجلة « الكتاب العربي » العدد ٣٠ نوفمبر ١٩٦٦ ، ص ٨٥

(٣) ولد فانيان في بلجيكا سنة ١٨٤٦ وتوفي سنة ١٩٣١ .

اليه وهو المعجم التاريخي ، فتصدى لهذا العمل الجليل وأمضى فيه زهاء أربعين سنة ، ولم يستطع إنجازه مع ذلك بسبب وفاته . وهو يشتمل على مرحلة من عمر العربية تقدر بخمسة قرون ، أي منذ فترة ما قبل الإسلام بقرنين من خلال النقوش المكتشفة حتى نهاية القرن الثالث الهجري عصر اكتمال اللغة .

وجملة القول لقد عرفت العصور العربية الحديثة نهضة شاملة نشطت خلالها حركة تأليف المعاجم من قبل العرب والمستعربين . وكان لبنان سباقاً في هذا المجال . كما أن مجمع اللغة العربية في القاهرة أخذ يمارس اختصاصه في هذا الشأن ويجهد في تقديم معجم لائق لهذا الجيل العربي في عصرنا المتفجر هذا .

محيط المحيط

وهو أول معجم بين المعاجم الحديثة ، ألفه المعلم بطرس البستاني قبل قرن من الزمان وصدر في سنة ١٨٧٠ . ثم اختصر البستاني « محيط المحيط » هذا في معجم آخر ليجعله في أيدي الطلبة والناشئين وأسماه « قُطر المحيط » . وكان غرضه ـ كما قال ـ احياء العربية من رقدتها عن طريق تيسير الحصول عليها .

غير أن البستاني لم يتمكن من تحقيق هذه الغاية الى الحد المنشود ، لأنه بقي في فلك القاموس المحيط للفيروز ابادي وحافظ في كثير من الأحيان على عبارته .

وقد امتاز محيط المحيط بأمور ؛ منها ترتيبه مواده على حسب الحرف الأول مخالفاً بذلك المحيط . كما زاد في تفصيل مواد أخرى مما أجمله الفيروزابادي وحذف مواد أخرى أكثرها أسماء أشخاص وقبائل . وقد أدخل البستاني ألفاظاً جديدة ، منها ما يدل على معان تتصل بالدين المسيحي ، ومنها ما هو عامي يتصل باللهجات غير الفصيحة ، ومنها ايراد جانب من المصطلحات العلمية . وعدل المؤلف عن طريقة المحيط وسائر المعاجم القديمة في ضبط اللفظة كتابة أو تمثيلاً بالوزن أو بالمشهور من الكلمات مستعيضاً عن ذلك بأثبات الحركات .

ومما أجمله البستاني في مقدمة معجمه قوله عنه « هذا المؤلف يحتوي على ما في محيط الفيروز أبادي ، وعلى زيادات كثيرة عثرنا عليها في كتب القوم ، وعلى ما لابد منه لكل مطالع من اصطلاحات العلوم أو الفنون وسميناه بمحيط المحيط . »

ويبقى « محيط المحيط » رائد المعاجم العربية الحديثة ، وفاتحة التأليف المعجمي العصري (١) .

---

(١) صدر (محيط المحيط) بيروت في مجلدين سنه ١٨٧٠ ، وأعيد إصداره مصوراً سنة ١٩٧٠ . كما صدر (قطر المحيط) وهو مختصره في مجلدين أيضاً بيروت في السنة نفسها ١٨٧٠ .

وانظر ما كتبه عبد الستار فراج عن محيط المحيط في مجلة « العربي » الكويتية العدد ١٣٦ آذار (مارس) ١٩٧٠ .

وقد ألفه سعيد الخوري الشرتوني سنة ١٨٨٩ وأسماه (أقرب الموارد في فُصَح العربية والشوارد) . وهو معجم جيد يمتاز بأنه أكبر معجم ظهر في العصر الحديث ، وبأنه من أجمع المعاجم استيعاباً لمفردات العربية . وقد اعتمد الشرتوني بالدرجة الأولى أيضاً على قاموس الفيروز ابادي بالإضافة الى معظم معاجم القدماء ، وتوخى طرح كثير من الفضول الذي كانت تعج به المعجمات السالفة وإغفال كثير من مظاهر تعدد الأوجه والتفسيرات ، وزاد في مقابل ذلك على مواده عناصر جديدة من أساس البلاغة للزمخشري وبعض المعاجم الأخرى قديمها وحديثها . كما انطوى أقرب الموارد على كثير من الألفاظ المعاصرة فأدخل المصطلحات العلمية والألفاظ المستحدثة والأعلام الجديدة ، كما أورد في بعض الأحيان جانباً من الألفاظ العامية والدخيلة .

كذلك رتب الشرتوني معجمه على حسب أوائل الكلمات والتزم الدقة في ترتيب الفروع داخل كل مادة ، فهو يبدأ بالفعل الماضي المجرد ، ويؤخر الأسماء والصفات ، فضلاً عن رموز وتنظيمات أخرى تضفي على المعجم مسحة عصرية ويتألف هذا المعجم من مجلدين كبيرين ، ثم ألحق به ذيل لهما في مجلد ثالث حوى المواد المستدركة على أصل المعجم .

البستان

وهو معجم آخر ألفه اللغوي اللبناني عبد الله البستاني خلال عشرة أعوام، وهو يشبه في طريقته وحجمه محيط المحيط لبطرس البستاني مع إضافة زيادات على بعض مواده، وتحسين ترتيبه وتنسيق ألفاظه. وهو مرتب أيضاً على حسب أوائل الكلمات. وينطوي على جانب من الفاظ المخترعات الجديدة والمصطلحات الحديثة، كما حوى الكثير من الدخيل والمولد.

يقع هذا المعجم في مجلدين كبيرين، وصدر عام ١٩٣٠، وقد تتبعه بعض النقاد في مآخذ كثيرة في طليعتهم الأب أنستاس الكرملي.

اختصر المؤلف معجمه في مجلد واحد أسماه (فاكهة البستان) وقد صدر ببيروت في العام نفسه ١٩٣٠ [1].

(١) انظر ما كتبه عدنان الخطيب عن المعاجم الحديثة في كتابه « المعجم العربي بين الماضي والحاضر » نشر معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ١٩٦٦ – ١٩٦٧

المنجد

أخرج الأب لويس معلوف معجمه « المنجد » سنة ١٩٠٨ أي قبل « البستان » واستمد اكثر مواده من محيط المحيط للبستاني ومن بعض المعجمات القديمة. وتوخياً للاختصار وتجنباً للتكرار عمد الى استعمال بعض الرموز على غرار ما هو جار في المعاجم الاجنبية الحديثة ؛ فالرمز (فا) لاسم الفاعل ، و (مفع) لاسم المفعول ، (مص) للمصدر ، و(م) للمؤنث ، و (هـ) للمفعول به. واستعمل الأقواس والاهلة للتمييز بين الكلمات ، وجعل كل مادة جديدة في أول السطر .

وقد لقي « المنجد » رواجاً منقطع النظير لما انطوى عليه من مميزات. فهو مبرأ من فضول القول والاستطرادات وتعدد الأوجه . كما أنه في مقابل ذلك مكثف المادة غزيرها . وهو في مظهره وحجمه على غرار المعجم الفرنسي LAROUSSE . وقد أدخل عليه تحسين كبير في طبعاته العديدة المتأخرة (١) . فأصبح حافلاً بالصور والجداول والخرائط ، كما اصبحت المادة في أول كل سطر وباللون الأحمر . ثم ألحق به معجم للآداب والعلوم حوى تراجم موجزة لأعلام الشرق والغرب صنعه الأب فرديناند توتل (١) سنة ١٩٥٦ ، كما هو

(١) ينطوي هذا اللحق على نقائص كثيرة بسبب احتفاله بكثير من الأعلام الاجانب=

الشأن في معجم لاروس الفرنسي . وبذلك غدا المنجد في طليعة المعاجم الحديثة تنظيماً وأيسرها تناولاً واكثرها انتشاراً [1] .

غير أن المنجد لا يصلح مرجعاً موثوقاً للباحث المختص لوقوعه في بعض الاخطاء ولأنه مشوب في عدد من مواده بأمور تتصل بالدين الاسلامي والتراث العربي مما درج على ترديده عدد من المستشرقين المغرضين . وعلى الرغم من تعدد طبعاته فان القائمين عليه لم يتلافوا ما انطوى عليه من مآخذ دأب الباحثون على كشفها طوال بضعة عقود من السنين [2] .

وثمة ظواهر مشتركة في هذه المعاجم اللبنانية الحديثة ، فهي جميعاً قد درجت على إسقاط الألفاظ البذيئة ورمت من وراء ذلك الى ان تكون معاجم مدرسية توضع بين أيدي الناشئة ، على حين أن القدماء لم يتحرجوا من ذلك وكانوا موضوعيين في هذا المجال شأنهم في ذلك شأن اي باحث في التشريح او الطب او الغرائز . ومن هنا تعد هذه المعاجم غير كاملة من الوجهة العلمية .

= واغفاله كثيراً من اعلام العرب والمسلمين ، فضلاً عن قصور في عودة صاحبه الى المراجع العربية الأصيلة . وممن تقدوه الأستاذ عبد الله كنون في مجلة « اللسان العربي » المغربية ، العدد الاول ١٩٦٤ ومنير العادي وعبد الستار فراج وسعيد الافغاني .

(١) تجاوزت طبعات « المنجد » العشرين ، وقد اشتق منه معجم آخر ١٩٦٧ باسم « المنجد الأبجدي » رتبت فيه الكلمات على حسب نطقها في بداياتها أي دون تجريدها ، وذلك على غرار المعاجم الأجنبية .

(٢) انظر ما كتبه الدكتور مازن المبارك حول المنجد في فصل وافٍ من كتابه « نحو وعي لغوي » عنوانه « وقفة عند المنجد » ص ١٥٣ – ١٨٩

ومما تتسم به هذه المعاجم حسن تنظيمها وجودة تنسيقها ويسر تناولها . كما أنها انطوت على كثير من الألفاظ الدخيلة والعامية والكلمات التي تتصل بالعقيدة المسيحية والاصطلاحات العلمية الحديثة . فهي تواكب تطور العصر الى حد معلوم .

معجم متن اللغة

اهتم المجمع العلمي العربي في دمشق ـ وهو أول مجمع تأسس في العالم العربي ـ باعداد معجم يجتمع فيه ما تناثر من جواهر العربية في بطون المطولات اللغوية القديمة ، وإلحاق ما استحدث من الألفاظ والمصطلحات به . وقد أسند هذا العمل الكبير إلى أحد أعضاء المجمع العاملين وهو الشيخ أحمد رضا سنة ١٩٤٧ . ولم يقيض له أن ينشر إلا في عام ١٩٥٨ بعد وفاة مؤلفه .

ومعجم « متن اللغة » مصنف على حسب أوائل الكلمات ، أي على غرار تصنيف « أساس البلاغة » ويمتاز بحسن ترتيبه داخل المواد نفسها أي ضمن كل باب . فالحرف يبدأ بالفعل المجرد الثلاثي على ترتيب أبوابه الستة التي يجمعها قول بعضهم :

فتح ضم ، فتح كسر ، فتحتان   كسر فتح ، ضم ضم ، كسرتان

وبعد المجرد يذكر المتعدي بالتضعيف مثل فرَّح ، ثم المتعدي بالهمز مثل

أكرم ، ثم افتعل وتفعّل .. وفي الأسماء يبدأ بالثلاثي المجرد المفتوح الفاء ، ثم مضمومها ، ثم مكسورها ، ثم اسم الفاعل فالمفعول ثم المزيد .. وكان يجعل أسماء الأمكنة والأعلام في آخر كل مادة .

وقد تجنب متن اللغة كثيراً من آراء الأئمة وأوجه أقوالهم وتعليلاتهم . وامتاز بحرصه على ذكر المجاز إلى جانب الحقيقة ، واعتمد في كل ذلك على أصول المعجمات مثل لسان العرب والقاموس المحيط وأساس البلاغة وتاج العروس وغيرها . كما أدخل مؤلف متن اللغة العامي في معجمه واحترز في ذلك بأن أفرده في هامش المادة كيلا يختلط بالفصيح . وكان أكثره من عامية بلاد الشام .

وكان جل اعتماد الشيخ أحمد رضا على معاجم الأقدمين ، وقال إنه عزف عن الاعتماد على أصحاب المعاجم الحديثة كأقرب الموارد كيلا تسري اليه أغلاطهم . غير أن ذلك آل به إلى الحرص على كثير من الألفاظ الغريبة أو المهملة بحجة أن ذلك من التراث الذي لا ينبغي التفريط به . وفي مقابل ذلك لم يفسح المجال كثيراً أمام المصطلحات العلمية والفنية لأنها في رأيه خارجة عن متن اللغة ، وكان إذا أورد مصطلحاً دخيلاً وضع في مقابله اسمه الأجنبي بالحروف اللاتينية .

وقد أفاد « متن اللغة » في مظاهر تنظيمه من المعاجم الحديثة باعتماده على الرموز توخياً للاختصار على غرار ما وجدناه في أقرب الموارد . ومن مزاياه أيضاً إدخاله كثيراً من الكلمات المعربة والمستحدثة ومن الصيغ التي أقرها كل من المجمعين اللغويين في دمشق والقاهرة مستفيداً في ذلك مما صدر عن أعضائهما

من بحوث في هذا الشأن .

وقد صدر « متن اللغة » في إخراج حسن عن دار الحياة عام ١٩٥٨ في بيروت ، واستغرق سبعة مجلدات .

المعجم الوسيط

شعر الباحثون وأعضاء المجامع اللغوية بأن المعاجم القديمة لم تعد تني بحاجة العصر ، فهي تنطوي على ركام من اللفظ الموات المحنط الذي لا يجدي في شيء على حين أنها تفتقر إلى جانب كبير من الألفاظ المستحدثة التي جدّت عبر العصور فلا يجد الباحث لها أثراً .

ويوم أنشىء مجمع اللغة العربيــة في مصر ١٩٣٤ نُص في مرسوم إنشائه على أن أهم أغراضه « أن يحافظ على سلامة اللغة ، وأن يجعلها وافيــة بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر » كما كان في طليعة أهدافه « وضع معجم تاريخي للغة العربية » .

وقد وجد المجمع بعد التدارس أن دون المعجم التاريخي صعاباً لا يمكن تخطيها إلا بعد أمد طويل وجهد عظيم ، فرأى أن يتبنى المعجم التاريخي للمستشرق الألماني « فيشر » وما زال المجمع يسير في بطء نحو تأليف هذا المعجم وتنميته .

ثم رأى المجمع ان يدأب في تأليف معجم عام شامل يحتوي خصائص المعاجم القديمة ومتطلبات الحياة الحديثة أسماه « المعجم الكبير » ولكنه أيضاً لم يستطع إنجازه حتى هذا اليوم ، والمشروع الوحيد الذي تمكن من تنفيذه كاملاً اصداره « المعجم الوسيط » سنة ١٩٦٠ . وهـذا المعجم كما يبدو من عنوانه معتدل الحجم ، ويقع في جزءين تبلغ صفحاته ١٠٨١ ، فهـو يقارب في حجمه « أساس البلاغة » .

والوسيط ينطوي على خصائص متعددة ، منها تشدده في هجر الحوشي والغريب ، وتوسعه في مقابل ذلك في ادخال المصطلحات العلميـة السائدة ، ودعوته الى الأخذ بما استقر من ألفاظ الحياة الشائعـة ، وإقراره كثيراً من الألفاظ المولدة والمعربة الحديثة . كما أنه عمم القياس فيما لم يقس من قبـل آخذاً بالمبدأ الذي أقره مجمع القاهرة .

ويشتمل المعجم الوسيط على نحو ٣٠ ألف مادة ، ومليون كلمة ، ضبطت بالشكل ونسقت بعناية وجعل ترتيبها على حسب أوائل الألفاظ . ومادته مشفوعة بنحو ٦٠٠ صورة .

وتبدو أهمية « الوسيط » في أنه أول معجم عصري يصـدر عن هيئة مختصة ، لأن مثل هذه الأعمال أكبر من ان تكون من جهد الأفراد ، فضلاً عن أنها لا بد أن تصدر عن مؤسسة أكاديمية لها حق التشريع في اللغة .

وبرغم ذلك فليس « الوسيط » ذلك المعجم المنشود الذي تطمح اليـه

العربية ويتطلع اليه بلهفة مئة مليون من الناطقين بالضاد في هذا العصر المتحضر [1].

المعجم الكبير

هذا المعجم المطول كان وما يزال من أجلِّ ما طمح الى تحقيقه المجمع اللغوي في مصر ، وقد عهد المجمع في سبيل تحقيق هذه الغاية الى عدد وافر من اعضائه العاملين أن يدأبوا في اعداد معجم عام شامل يحتوي خصائص المعاجم القديمة ومتطلبات الحياة الحديثة ، وذلك على صعيد موسوعي مسهب ووفقاً لمدلول عنوانه « المعجم الكبير » .

ومما جاء في المقدمة الضافية لهذا المعجم حول منهجه وخصائصه : « . . في هذا المعجم جوانب ثلاثة اساسية : جانب منهجي هدفه الأول دقة الترتيب ووضوح التبويب . وجانب لغوي عني بأن تصور اللغة تصويراً كاملاً ، فيجد فيها طلاب القديم حاجتهم ، ويقف عشاق القديم على منالتهم . وفيه أخيراً جانب موسوعي يقدم الواناً من العلوم والمعارف تحت اسماء المصطلحات والأعلام. وروعي في هذا الجانب الجمع بين القديم والحديث ما أمكن » .

ومن محامد « المعجم الكبير » انه يورد مع الكلمة العربية الصيغة التي

(١) تعقب عدد من الباحثين هفوات الوسيط واستدركوا عليه كثيراً من الأمور ، في جملتهم عدنان الخطيب في سلسلة من المقالات نشرها في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق خلال ١٩٦٣ – ١٩٦٧ .

وردت بها في كل من اللغات السامية الأخرى : الأكادية والسريانية والحبشية والعبرية والأوغاريتية . وفي هذا فائدة كبيرة من وجهة الدراسات المقارنة للمادة اللغوية ، فضلاً عن محاولة معرفة المراحل التي تتعاقب في مجال تطور الكلمة العربية . ولمساعدة القارىء على صحة النطق يورد المعجم مع الكلمة السامية نطقها بالحروف اللاتينية .

وبعد جهود طيبة صدر في عام ١٩٦٧ جزء من هذا المعجم في طبعة خاصة غير متداولة ، وضعت بين ايدي الباحثين المدققين ليبدوا آراءهم فيها ويقوّموا فيها ما يرون تقويمه بغية استكمال العمل وتسديد الخطا . وبعد ذلك ظهر المجلد الأول من « المعجم الكبير » ويقتصر على حرف (الهمزة) ويقع في ٧٠٠ صفحة .

وغني عن القول ان معجماً كهذا سوف يغني عن سائر المعجمات المطولات اذا تم انجازه على النحو المنشود . وما من شك في ان المضي في استكماله أمر على جانب كبير من الأهمية ، وهو يتطلب جهوداً متضافرة وأحوالاً كثيرة وأوقاتاً مديدة . والمأمول ان يغدو هذا المعجم حدثاً بارزاً في حياة اللغة العربية .

كتب التراجم

الفصل الخامس

تمهيد :

إن وراء كل نتاج في العلم والأدب والفن أناساً مبدعين وأعلاماً نابهين كانوا مصدر هذه المعرفة الإنسانية .

وإن التأريخ لهؤلاء الأعلام فن قائم بذاته يعرف باسم « التراجم » . وقد اهتم العرب اهتماماً بالغاً بالتراجم حتى ليمكن اعتبارهم في طليعة الأمم في هذا المضمار . ولعل المكتبة العربية من أحفل ما عرفته الشعوب بهذا النوع من الكتب . وكما أن طريقة جمع الحديث واسناده وتسجيله كانت منطلق العلماء العرب في حركة التدوين الشاملة كانت تراجم الصحابة والتابعين وسائر حفاظ الحديث النموذج الذي احتذاه رواد المصنفين ونسجوا على منواله . فلم يلبث العرب أن ألفوا في التراجم وفي الطبقات ، فكان إلى جانب تراجم الصحابة والتابعين وطبقات الفقهاء والمحدثين والحفاظ والقراء والمفسرين .. تراجم للادباء والشعراء وتراجم للنحاة واللغويين وتراجم للأطباء والحكماء ولسائر العلماء ..

ولعل أول رائد في هذا المجال أبو بكر بن إسحق الذي وضع سيرة النبي ثم ابن هشام الذي ألف أيضاً في سيرة النبي معتمداً على ابن إسحق . وبعد ذلك ألف ابن سعد كتاباً في طبقات المحدثين وألف ابن سلام كتاباً آخر في طبقات الشعراء ثم تتابعت بعد ذلك هذه الكتب .

ولكتب التراجم أهمية تعدو كونها في أخبار رجال العلوم والآداب وفي رسم معالم حياتهم ، فهي من خلال ذلك تنطوي على كثير من المعارف والحقائق التي ينشدها الباحث في موضوعه وتعد مكملة لجوانب الموضوع الذي تتصل به .

غير أن الحقائق في هذه الكتب كثيراً ما تختفي وراء ظاهرة الاسراف في إطراء المترجم لهم والمبالغة في الثناء عليهم والغلو في تقديرهم . ونجد بعض المصنفين العرب في هذا المضمار يتأرجحون بين الثناء المسرف والتجريح المجحف ، وما ذلك إلا لأنهم حريصون على نقل الخصال والنعوت كما استقوها ممن قبلهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التمحيص والمقارنة والاستنتاج . غير أن جهدهم في ذلك كله يبقى جليلاً ينتزع الإعجاب لما ينطوي عليه أولئك العلماء من تتبع ودأب بهمة لا هوادة فيها .

تراجم الشعراء والأدباء

كانت عناية المؤلفين بتراجم الشعراء صدى لاهتمام العرب بفن الشعر. وقد كثر هذا اللون من الكتب وغدا يحمل أسماء عديدة تنم على طابعها من مثل كتاب أخبار الشعراء للمدائني [1] وكتاب من نسب إلى أمه من الشعراء لابن حبيب. وقد حمل عدد من هذه الكتب اسم كتب الطبقات وفي طليعتها كتاب « طبقات فحول الشعراء » لابن سلام الجمحي، وثمة كتاب آخر اسمه « طبقات الشعراء بالأندلس » [2]. ثم شاع اطلاق اسم الطبقات على سائر كتب التراجم برغم أنها قد لا تنطوي على التصنيف الطبقي، وقد عرف بذلك جانب كبير من كتب التراجم في الحديث النبوي والفقه والطب والتاريخ وغير ذلك من العلوم..

---

(١) توفي المدائني سنة ٢٢٥ هـ، ٨٣٩ م، فهو أسبق من ابن سلام ومعاصريه، وقد عاش ٩٣ سنة.

(٢) الفه عثمان بن ربيعة الذي مات حوالي سنة ٣١٠ هـ، ٩٢٢ م والكتاب فيما يبدو مخطوط ولعله مفقود.

طبقات الشعراء

يعرف الكتاب تارة باسم طبقات الشعراء وتارة أخرى باسم طبقات فحول الشعراء وتارة ثالثة باسم طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين . ومؤلفه محمد بن سلام الجمحي معاصر للجيل الجليل الذي انبثق منه الأصمعي والمفضل الضبي : فقد أتيح له أن يتتلمذ عليهما ، وأن يكون بدوره أستاذ جيل آخر ، في رأسه ثعلب اللغوي والمازني النحوي وأحمد بن حنبل الفقيه .

ويعد طبقات الشعراء أقدم كتاب بين أيدينا في موضوعه فهو كتاب في تراجم الشعراء وفي طبقاتهم معاً . أي ان مؤلفه يحرص على أن يعرف بالشاعر وبشعره وأن يصنفه في الوقت نفسه في الدرجة التي يستأهلها مع أقرانه ومعاصريه على غرار ما دأب عليه المصنفون في علم الحديث حين صنفوا رواته طبقات على حسب أقدارهم أو أزمانهم . وما من شك في أن مبدأ الطبقات نفسه يعني ضمنا أن المؤلف يقوّم الشعراء ويجعلهم زمراً متفاوتة تبعاً لمواهبهم . وليس هذا الأمر في الحقيقة إلا جانباً من جوانب النقد الأدبي .

وقد امتاز هذا الكتاب بمنهجه الدقيق المحكم برغم تقدمه في عصره ، كما عرف بوضوح الخطة وحسن التقسيم . فهو في قسمين كبيرين : مشاهير

لشمراء الجاهليين ، مشاهير الشعراء الإسلاميين . أي ان ابن سلام جعل ظهور لاسلام حداً فاصلاً بين عهدين ، أو نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى . ولم يفرد المؤلف للمخضرمين قسماً في كتابه لأنهم لا يستقلون بمرحلة خاصة . بل جعل بعضهم في عداد الجاهليين وبعضهم الآخر في عداد الإسلاميين .

ثم صنف ابن سلام مشاهير الشعراء الجاهليين في ١٠ طبقات ، وفي كل طبقة أربعة من الشعراء الإسلاميين مصنفاً إياهم في الطبقات نفسها مراعاة منه لمبدأ التناظر بين شطري كتابه. وهكذا انطوى طبقات الشعراء على ١٠ طبقات تضمن ثمانين شاعراً ، اختص كل شاعر في الغالب بترجمة موجزة يعقبها قطوف من شعره وأخباره .

على أن المؤلف ألحق بطبقاته العشر زمراً أخرى من الشعراء لم يخضعهم لمبدأ الطبقات بل رأى أن ثمة ما يجمعهم في الموضوع أو في المكان دون أن يتقيد في ذلك بأن يحدد عددهم بأربعة شعراء. وهؤلاء هم أصحاب المراثي ومنهم الخنساء ، وشعراء الطائف والمدينة الخ .. فكان مجموع من تناولهم ابن سلام في كتابه ١١٤ شاعراً .

ومع اعترافنا بفضل ابن سلام في كتابه هذا وتقديرنا لذوقه في تقويم شعراء العرب وتصنيفهم فان لنا ملاحظات في هذا الأمر ، منها أن المؤلف يصنف الشعراء وفقاً لمقاييسه الذوقية التي ارتضاها دون أن يبين لنا بصورة معللة أسباب التفاضل والتفاوت بين هؤلاء الشعراء ، فلا ندري مثلاً السبب

في كون طرفة وعبيد بن الأبرص في الطبقة الجاهلية الرابعة ، وكون عمرو ابن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة في الطبقة السادسة . وكذلك نجد كثيّراً في الطبقة الإسلامية الثانية على حين نجد جميلاً في السادسة . وان في جعل امرىء القيس والنابغة وزهير والأعشى في الطبقة الأولى من فحول الجاهلية أمراً مقبولاً . ويقابل هذه الطبقة عنده من الإسلاميين جرير والفرزدق والأخطل وعبيد الراعي . والثلاثه الأوائل في منزلة رفيعة أجمع عليها النقاد ، على حين حشر الراعي مع أولئك الثلاثة وهو دونهم لا يرقى الى منزلتهم . وأغلب الظن أن ابن سلام اضطر الى حشره بينهم استكمالاً للعدد ٤ أربعة في كل طبقة .

ومن هنا يبدو مدى افتعال هذا التقسيم الصارم الذي قيد به ابن سلام نفسه منطلقاً فيما يبدو من كون فحول الجاهليين المتقدمين أربعة شعراء ، فسحب سائر شعرائه على هذا النسق ، وإلا فما معنى كون الطبقة دائماً أربعة من الشعراء لا يزيدون ولا ينقصون . .

وقد صادف لدى ابن سلام أن كانت طبقة أصحاب المراثي أربعة أيضاً ، على حين بلغ شعراء المدينة خمسة ، وشعراء مكة تسعة ، وشعراء الطائف خمسة ، وشعراء اليهود ثمانية ، ولم يتعد شعراء البحرين الثلاثة .

وينطوي طبقات الشعراء على مقدمة جليلة في قواعد النقد الأدبي لعلها أقدم ما كتبه باحث عربي في هذا المجال . انها خطوة علمية رائدة نحو تقعيد

النقد وتركيزه ومحاولة الخروج به من فلك النزعة التأثرية . وهي تنم على حس نقدي مرهف وأصالة في النوق تزيد الكتاب قيمة وشأناً .

وقد نشر الكتاب في طبعة علمية محققة سنة ١٩٥٢ [1] .

الشعر والشعراء

هذا الكتاب يشبه في مادته كتاب « طبقات الشعراء » لابن سلام الجمحي . أما مؤلفه ابن قتيبة فهو من أئمة القرن الثالث الهجري ويعد في طبقة الجاحظ ، وقل أن نجد له نظيراً في تعدد جوانبه ، وتشهد بذلك مؤلفاته الكثيرة المتنوعة .

وكتاب « الشعر والشعراء » من أقدم الكتب في تراجم الشعراء . وهو مثل كتاب ابن سلام في أنه لم يحرص على استيفاء الشعراء وتقصيهم وحصرهم بل اقتصر على مشاهيرهم ، كما يشبه كتاب ابن سلام في أنه يمتاز بمقدمة نقدية قيمة تعد من بواكير النقد الأدبي المعلل . ويختلف ابن قتيبة عن ابن سلام في

---

(١) طبع أول مرة في ليدن سنة ١٩١٣ - ١٩١٦ ونشره يوسف هل وقدم له بالألمانية . ثم طبع في مصر بالاعتماد على طبعة ليدن بمطبعة السعادة بعناية حامد عجان الحديد الحلبي سنة ١٩٢٠ وهي طبعة حسنة . وطبع بعد ذلك طبعات أخرى لا تبلغ منزلة الطبعتين السابقتين . أما الطبعة الأخيرة فهي الطبعة المحققة بعناية محمود محمد شاكر وقد صدرت في سلسلة ذخائر العرب سنة ١٩٥٢ وهي تنطوي على تعليقات وافية وفهارس قيمة ، وتمتاز بكثير من الضبط والاتقان .

ان كتابه هذا ليس في الطبقات وإنما في التراجم . كما أنه يترجم لبعض المحدثين مثل أبي العتاهية ومسلم بن الوليد ودعبل الخزاعي والعباس بن الأحنف مراعياً في الغالب مبدأ الترتيب الزمني في تناوله الشعراء ومعظمهم كان من القدماء .

والكتاب كثير الشعراء غزير النصوص يفوق في ذلك كتاب طبقات الشعراء . ويمكن أن يعد كتاباً في المختارات الشعرية فضلاً عن كونه كتاباً في التراجم ، وكثيراً ما يورد ابن قتيبة في كتابه نبذة من حياة الشاعر ونسبه وأخباره ثم يُتبع ذلك جانباً من أدبه فيأتي ببعض ما يستجاد من قوله ، وقد يأتي أيضاً ببعض ما يعاب عليه في شعره . . ويتخلل ذلك كله من حين إلى حين أحكام نقدية تساعد على فهم مذهب الشاعر ومنزلته .

أما منهج الكتاب فيبادر ابن قتيبة الى عرضه في مستهل مقدمته النقدية فيقول : « هذا كتاب ألفته في الشعر ، اخبرت فيه عن الشعراء ، وأزمانهم، وأقدارهم ، وأحوالهم في أشعارهم ، وقبائلهم ، وأسماء آبائهم ، ومن كان يعرف باللقب أو الكنية منهم وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره ، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم ، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون . . » ثم يقول ابن قتيبة :

« وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب ، وفي النحو ، وفي كتاب

الله عز وجل ، وحديث رسول الله . . »

وأول شاعر ترجم له ابن قتيبة امرؤ القيس وقد أطال فيه القول ، ويليه زهير بن أبي سلمى فابنه كعب فالنابغة فالمسيّب بن علس فالمتلمس فطرفة. وممن ترجم لهم في اواخر كتابه الشاعر ابن مناذر الذي عاصر الرشيد العباسي، وكان آخر الشعراء في الكتاب أشجع السلمى الذي اتصل بالبرامكة . وبلغ عدد تراجم الشعر والشعراء مائتين وستة تراجم (١) .

---

(١) طبع « الشعر والشعراء » أول مرة في ليدن سنة ١٨٧٥ م ، ثم طبع فيها ثانية سنة ١٩٠٢ م ، وهذه الطبعة قليلة نادرة والأولى أقل منها وأشد ندرة ، وكلتاهما بعناية دي غويا ، الذي وضع لها مقدمه جيدة باللاتينية .

ثم طبع في مصر سنة ١٩٠٤ مع بعض تعليقات من قبل الشيخ بدر الدين النعساني الحلبي ، وبعد ذلك تعددت طبعاته وأكثرها يفتقر الى التحقيق العلمي ويغلب عليه الطابع التجاري .

وبعد ذلك صدر الشعر والشعراء بتحقيق العلامة احمد محمد شاكر في عام ١٩٥٠ . ثم أصدره ثانية هذا العالم في جزءين كبيرين خلال سنتي ١٩٦٦ – ١٩٦٧ عن دار المعارف ، وذلك بمزيد من العناية والاتقان ، وهي طبعة تمتاز بوفرة تعليقاتها على المتن وبحسن تنسيقها وسلامة ضبطها للنصوص . وقد صدّر المحقق الكتاب بمقدمة بقلمه ، وأتبعها ترجمة لمقدمة المستشرق دو غويا ، ثم تعريفاً بابن قتيبة مؤلف الكتاب . والكتاب مذيل بمجموعة قيمة من الفهارس المتنوعة وتزيد صفحاته عن ألف من الصفحات .

ومما يجدر ذكره ان المستشرق الفرنسي « ديمومبين » عني بمقدمة ابن قتيبة النقدية ، فنشرها في كتاب مستقل ، ثم علق عليها باسهاب بالفرنسية .

المؤتلف والمختلف

هذا الكتاب جعله مؤلفه الآمدي « في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم » . والآمدي من أبرز أعلام اللغة والنقد في القرن الرابع الهجري ، وقد اشتهر في كتابه « الموازنة بين الطائيين » .

وغرض الآمدي في كتابه أن يورد تراجم فئات من الشعراء الذين تماثلت أسماؤهم واختلفت أشخاصهم . وهذا التميز الدقيق يجلو كثيراً من اللبس الذي قد يعرض للباحث فيزيله ، من مثل من سمي بالأعشى من الشعراء أو من عرف بالنابغة . .

وواضح أن هذا الكتاب وان يكن في تراجم الشعراء فانه يختلف عن كتاب ابن سلام وعن كتاب ابن قتيبة وذلك في وجوه عديدة :

آ ـ انه ليس في مشاهير الشعراء ولكنه في الشعراء عامة أو في الذين اتفقت أسماؤهم بوجه خاص ، وقد حرص الآمدي تبعاً لذلك على أن يتقصى أولئك الشعراء ويحصرهم ، وبذلك أدخل المغمورين وجعلهم مع المشهورين على صعيد الأسماء المتماثلة . ولعل هذا ما يميز الكتاب لأنه احتوى كثيراً من الشعراء المغمورين ممن لم يعرض لهم ابن سلام وابن قتيبة

وسواها . . وكأن « المؤتلف والمختلف » متمم لكتابي طبقات الشعراء والشعر والشعراء .

ب ـ ان الآمدي اتخذ لتراجمه الترتيب المعجمي ، ولكنه لم يكن دقيقاً دائماً في التزام هذا الترتيب ؛ فهو يورد أولاً امرأ القيس وبعده الأعشى وبعدهما الأخطل .

حـ ـ يغلب الإيجاز على مادة الكتاب ، فالمؤلف يسرد باقتضاب شديد الأسماء المتشابهة أو المتفقة ويورد في أعقاب كل منها مقطعات شعرية قليلة . ومن هنا اجتمع في الكتاب عدد كبير من تراجم الشعراء الموجزة وقدره ٧٤٥ شاعراً ، وبذلك كانت الفائدة منه محدودة ، ولعلها تنحصر في الكشف عن الشعراء المغمورين ممن أغفلتهم الكتب الأخرى .

وقد أوضح الآمدي منهجه ومقصده في خطبة كتابه فقال : « هذا كتاب ذكرت فيه المؤتلف والمختلف والمتقارب في اللفظ والمعنى ، والمتشابه الحروف في الكتابة من أسماء الشعراء .. وجعلته على حروف المعجم ليقرب على المتناول تناوله ويسهل على الملتمس طلبه .. وجعلت الاسمين إذا كانا على صورة واحدة وحروفهما مختلفة في باب واحد ليعرفا ويفرق بينهما بالنقط والشكل .. وجعلت الباب للأشهر منهما .. » .

ومعنى ذلك أنه يجعل الاسم بُريد مع الاسم يزيد ولكنه يصنفهما تحت عنوان باب الياء أي يزيد لأنه أشهر . وهو يبدأ تراجمه بباب الألف فيذكر

امرأ القيس ويعدد عشرة من الشعراء عرفوا بهذا الاسم ثم ينتقل الى الأعشى فيذكر سبعة عشر شاعراً وينتقل بعد ذلك الى من عرف باسم بشر حتى ينتهي إلى يزيد . وقد طبع الكتاب في مصر مؤخراً طبعة علمية محققة(١) .

معجم الشعراء

يشبه هذا الكتاب في منهجه كتاب المؤتلف والمختلف للآمدي ؛ فكلاهما مرتب ترتيباً معجمياً . غير أن مجاله أوسع وأعم ، فالمرزباني لم يكتف بالمشهورين من الشعراء كما هو شأن كتابي ابن سلام وابن قتيبة ، كما لم يقتصر على الذين يتشابهون في أسمائهم دون سائر الشعراء ، بل جعل كتابه شاملاً المشهورين والمغمورين دون تمييز في ذلك .

وواضح أن المرزباني حاول في كتابه استقصاء الشعراء العرب وحصرهم على غرار ما كان يفعله اللغويون واصحاب المعاجم في السعي الى جمع اللغة واستيعاب الفاظها . وكان طبيعياً أن يضخم مثل هذا الكتاب في تصديه لهذه الغاية ، ولذلك عمد المرزباني الى اقتضاب تراجمه توخياً للاستيفاء والحصر .

---

(١) طبع المؤتلف والمختلف سنة ١٣٥٤ ﻫ ، ١٩٣٥ م في مجلد واحد مع كتاب « معجم الشعراء » للمرزباني ، وكلاهما كان باشراف المستشرق كرنكو . ثم طبع مستقلاً بتحقيق جيد من قبل عبد الستار فراج وصدر في القاهرة سنة ١٣٨١ ﻫ ، ١٩٦١م .

والمرزباني شأنه في ترتيب تراجمه كشأن معاصره الآمدي من حيث عدم مراعاته الدقة في ذلك ، فهو مثلاً يذكر اسم عمرو ثم عدي ثم عثمان ثم العباس ثم عصام .. مكتفياً بكون هذه الأسماء تبدأ بحرف العين دون النظر الى ترتيبها فيما بينها تبعاً لثواني الحروف فيها بعد أوائلها .. ويبدو أن التزام هذه الدقة خطوة لم يحرص عليها المؤلفون إلا بعد القرن الرابع قرن الآمدي والمرزباني .

وكتاب « معجم الشعراء » كشأن « المؤتلف والمختلف » ينطوي على عيب ينبغي أن تخلو منه كتب التراجم . فكلا الكتابين لا يعنى بذكر تاريخ المولد والوفاة والسنين ، ولذلك كانت الفائدة منها محدودة .

على أن ما يؤسف له ان الكتاب نفسه لم يصل إلينا كاملا ، ويبدو أن أجزاء منه قد ضاعت . وهو يحتوي في الأصل ترجمة نحو خمسة آلاف شاعر كما يذكر ابن النديم . أما القسم المتبقي بين أيدينا من الكتاب فيبدأ بحرف العين ، وأوله باب فيمن اسمه عمرو ، وهو يذكر عشرات من الشعراء يحملون هذا الاسم ، ثم يورد تراجم من سموا باسم عمير ثم عدى .. وهكذا حتى ينتهي بالياء . وكثيراً ما يتبع كل ترجمة مقطعات شعرية قليلة لصاحبها . طبع الكتاب مستقلاً في مصر سنة ١٩٦٠ [١] .

(١) وهذه الطبعة محققة بعناية عبد الستار فراج ومزيدة ببعض التراجم .

يتيمة الدهر

أبو منصور الثعالبي من الأدباء البارزين بين القرنين الرابع والخامس ، كان متمكناً في اللغة وفقهها كما كان في الوقت نفسه أديباً ذواقة وناثراً بليغ البيان .

أما كتابه « يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر » فيتمتع بمنزلة خاصة بين كتب الأدب والتراجم . وما ذلك إلا لتميزه عن سائر الكتب في موضوعه في عدد من الخصائص التي انفرد بها .

وأول ما يمتاز به الثعالبي في يتيمة الدهر أنه ابتدع منهجاً جديداً لم يسبقه اليه أحد من قبل . فقد رأى أن يتناول الشعراء على حسب أقاليمهم ومناطق بلادهم . وهذا التناول في الحقيقة أقرب الى روح الأدب نفسه من تصنيف الشعراء تبعاً لترتيب أسمائهم أو غير ذلك ، لأن صاحب اليتيمة استطاع في كتابه أن يربط بين الأديب وبيئته ، وهذا ما يجنح اليه كثير من المؤلفين والنقاد في عصرنا هذا .

قسم الثعالبي كتابه أربعة أقسام :

القسم الأول : في شعراء الشام ومصر والمغرب والأندلس .

القسم الثاني : في شعراء العراق .
القسم الثالث : في شعراء فارس وجرجان وطبرستان وأصفهان .
القسم الرابع : في شعراء خراسان وما وراء النهر كبخارى ونيسابور .

والمؤلف يعني عناية واضحة بشعراء الشام ويفضلهم على سائر الأمصار من نحو شعراء العراق الذين كانوا متاخمين لبلاد الفرس ، فتأثرت لغتهم بالأعاجم. كما أنه يتناول باسهاب شعراء الدولة الحمدانية في حلب ، فيفيض القول في أبي فراس والمتنبي ويورد أشعاراً لسيف الدولة وابي المشائر وسواهم . .

والميزة الأخرى التي اتسم بها كتاب يتيمة الدهر أنه الى جانب كتاب « طبقات الشعراء المحدثين » لابن المعتز من أوائل الكتب التي قصرت مادتها على الشعراء المحدثين دون القدماء . وقد بقي الثعالبي في نطاق الشعراء الذين عاشوا خلال القرنين الرابع وأوائل الخامس ممن عاصرهم المؤلف أو كانوا قريبي العهد منه ، وكان قصده من ذلك تبيان محاسن أهل العصر كما ينم على ذلك عنوان كتابه . ولهذه العناية بالشعر المحدث دلالتها من حيث الخروج على الطوق الذي أطال المؤلفون المكث في داخله وهو اقتصارهم على الشعر القديم وحده ، كما يدل ذلك على اهتمام متزايد بنتاج الجيل الجديد من الشعراء . وفي رأينا أن الخطوة الأولى في هذا السبيل كانت في مبادرة ابن قتيبة الى الإعلان أن الجودة هي المقياس الأول في اختيار الشعر وتفضيل الشاعر لأن الله في رأيه لم يقصر العلم على قوم دون قوم وعصر دون عصر ، وان القدم والحداثة نسبيان .

والمؤلف يشعر في مقدمة كتابه بشيء من الزهو والغبطة لما لاقاه كتابه

استحسان معاصريه ، وان هذا حفزه على الزيادة فيه واستكمال بعض جوانبه والإسهاب في مادته بصورة عامة حتى ارتضاه على هذه الصورة . فهو يبين للقارىء في خطبة كتابه ان المؤلفين الذين سبقوه اهتموا في مصنفاتهم بالشعراء المتقدمين والمتأخرين وذكر طبقاتهم وأشعارهم على حين بقيت محاسن أهل العصر التي معها وراء الحداثة ولذة الجدة وحلاوة قرب العهد غير محصورة في كتاب يضمها .

على أن الكتاب يختلف عن سائر كتب التراجم في أمور :

آ ـ انه حدد موضوعه بفئة محدودة من شعراء عصره وبخاصة شعراء القرن الرابع كالمتنبي وأبي فراس والشريف الرضي والخالديين والصنوبري والسري الرفاء ثم عدد من شعراء الأندلس في العصر نفسه ومنهم ابن عبد ربه وابن شُهيد .

ب ـ انه تناول الكتّاب والناثرين بالاضافة إلى الشعراء ، من مثل الصاحب بن عباد وبديع الزمان والخوارزمي وابن العميد .. على أن المادة الشعرية كانت هي الغالبة على الكتاب فهو إذن في تراجم الأدباء . وكان يُتبع كل شاعر بعضاً من شعره وان كان مقلاً ، كما فعل في سيف الدولة . وربما نظر في ذلك إلى مكانة القائل وشهرته في عالم السياسة أو غير ذلك مما لا يتصل بقوة بالأدب ، ولهذا قد يأتي جانب من نصوصه متفاوتاً في مستواه .

حـ ـ انه كتاب أدبي في المختارات الشعرية وتصوير الحياة الأدبية في

القرن الرابع الهجري قبل أن يكون كتاب تراجم بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، لأن المادة الأدبية كانت تهم الثعالبي قبل الأديب . وهو شبيه من هذه الزاوية بكتاب الأغاني الذي هو كتاب في الأدب والأخبار والتراجم معاً ، وتعنى اليتيمة بالمختارات الشعرية عناية بالغة تجعلها غنية بالنصوص ، حتي إن الثعالبي كثيراً ما يقتضب الترجمة في سبيل هذه الغاية .

وهكذا تنطوي اليتيمة على مادة أدبية وافية في امبراطورية عربية واسعة الأرجاء تعد على ما فيها من اضطراب سياسي حافلة بالآداب والعلوم والفنون .

وقد استفاضت شهرة يتيمة الدهر منذ حياة المؤلف كما بدا لنا ذلك من خلال خطبة كتابه ثم بعد وفاته . فحاول الكثيرون أن يحذوا حذوه وينسجوا على منواله . ومن هذه الكتب التي تعد متممة له ودائرة في فلكه :

دمية القصر وعصرة أهل العصر ، للباخرزي من القرن الخامس ، ترجم فيه لشعراء عصره وجعله في سبعة أقسام .

زينة الدهر في لطائف شعراء العصر ، للحظيري من القرن السادس .

خريدة القصر وجريدة العصر ، للعماد الأصفهاني من القرن السادس .

كما امتد تأثير يتيمة الدهر إلى الأندلس فكان كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام ، ولعله أبرز كتاب بين هذه المجموعة .

أنه ينطوي في الوقت نفسه على تراجم كثيرة لأدباء القرن الخامس الهجري من الأندلسيين ويبلغ عددهم ١٥٤ ترجمة أكثرها يتناول باسهاب أعيان الأدب والسياسة ممن عاصرهم ابن بسام أو تقدموه قليلاً .

ويفصح ابن بسام عن منهجه في خطبة كتابه فيقول بأسلوب أهل عصره المتأنق : « . . ولا تعديت أهل عصري ممن شاهدته بعمري أو لحقه بعض أهل دهري ، اذ كل مردد ثقيل وكل متكرر مملول . وقد مجَّت الأسماع (يا دار مية بالعلياء فالسند) وملَّت الطباع (لخولة أطلال ببرقة ثهمد) ومحَّت (قفا نبك) في يد المتعلمين .. وليس الفضل على زمن بمقصور .. ».

ثم يقول ابن بسام في زهو : « وضمنت كتابي هذا من أخبار أهل الأفق ما لعلي سأربي به على أهل المشرق » .

وكتاب الذخيرة كبير الحجم ويقارب في ذلك العقد الفريد ، ولكن مما يؤسف له أنه لم يطبع منه في مصر سوى بعض أجزائه برغم تضافر جهود كثير من العلماء العرب والمستشرقين في سبيل نشره [1] .

---

(١) نشر من الكتاب ٣ مجلدات ، ويقدر الأصل بـ ٨ مجلدات ، وذلك في سنة ١٩٣٩ بجهود كلية آداب القاهرة بتحقيق علي جيد اسهم فيه ليفي بروفنسال ثم طه حسين وعدد من الباحثين .

معجم الأدباء

اشتهر ياقوت الحموي الرومي بكتابيه العظيمين : معجم الأدباء ومعجم البلدان . وثمة كتب كثيرة صنفها في الأدب والتاريخ والتراجم وهو من مخضرمي القرنين السادس والسابع . أما كتابه الذي يعنينا فهو معجم الأدباء ، ويعرف أيضاً باسم « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » و « إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء » .

والكتاب مجهود كبير في تراجم الأدباء خاصة ، ولكن مؤلفه توسع على عادة العرب في مفهوم الأدب والأدباء فترجم أيضاً لكثير من الشعراء واللغويين والنحويين والمؤرخين والقراء . . وبخاصة من عرفوا من هؤلاء بالتأليف والتصنيف في تراجم الشعراء مثلاً يقتصر على ذوي المصنفات كأبي العلاء والبحتري جاعلاً إياهم في عداد الأدباء ، لأن ياقوت قد عالج هذا الموضوع في كتاب مستقل لم يصل إلينا وهو « معجم الشعراء » .

ويمتاز « معجم الأدباء » بحسن تبويبه ويسر الاستفادة منه ، فهو كما ينم عليه عنوانه مرتب على حروف المعجم وفقاً للنسق الألفبائي . ويعد من أوثق المصادر في موضوعه وأكثرها اسهاباً وأوسعها انتشاراً . وتتضح دقة ياقوت ونزعته إلى التنظيم في مقدمة كتابه . فهو يعرب عن شغفه منذ صغره

بالأدب والعلم واهتمامه بأخبار الأدباء والعلماء واحوالهم وأنه لم يجد في هـذا الموضوع ما يشفي الغليل من كتب التراجم . ثم يستعرض كتب المصنفين قبله وينقد أكثرها ويشيد ببعضها . وفي ذلك يقـول موضحاً مضمون كتابه وخطته فيه :

« جمعت في هذا الكتاب ما وقع إليّ من أخبـار النحويين واللغويـين والنسابين والقراء المشهورين والاخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتّاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة .. وكل من صنّف في الأدب تصنيفاً » .

وقـد توافرت في « معجم الأدباء » مزايا لم نقف عليها في الكتب السالفة مثل معجم الشعراء ، والمؤتلف والمختلف . وفي ذلك يقول ياقوت :

« ولم آل جهـداً في إثبات الوفيات وتبيين المواليد والأوقات ، وذكر تصانيفهم » .

كما توخى ياقوت الـتركيز في مادته بعـد أن غـدت متسمة بـين يديه وامتدت حتى نهاية القرن السادس . فكان مما عمد اليه في سبيل هذه الغاية حذف الأسانيد مع المحافظة على الأمانة العلمية :

« .. وحذفت الأسانيد إلا ما قل رجاله وقرب مناله .. إلا أنني قصدت صغر الحجم وكبر النفع ، وأثبت مواضع نقلي ومواطن أخذي من كتب

العلماء المعول عليهم في هذا الشأن » .

وقد حرص ياقوت على التزام الدقة والإتقان في نسق كتابه فقال : « وجعلت ترتيبه على حروف المعجم.. وألتزم ذلك في أول حرف من الاسم وثانيه وثالثه ورابعه ، فأبدأ بذكر من اسمه آدم ثم من اسمه ابراهيم .. وألتزم في ذلك الآباء أيضاً » . غير أنه لم يلتزم أحياناً بهذا النظام .

نشر « معجم الأدباء » نشراً علمياً محققاً في مصر بعد أن توفر على العمل فيه نخبة من العلماء والمستشرقين ، وهو في ٢٠ جزءاً [١] .

---

(١) المستشرق د . س مرجوليوت الانكليزي أول من تصدى لنشر معجم الأدباء . وقد أخرجه في ٧ أجزاء خلال ١٩٠٧ - ١٩٢٥ . ثم أعيدت طباعته سنة ١٩٣٢ .
أما طبعة دار المأمون المصرية فتمتاز باضافات وزيادات لم تكن في الطبعة السابقة ، وبحواش وتعليقات قيمة ، وبفهارس وافية للأعلام والبلدان والكتب ، بالاضافة الى اتقان الحرف وضبطه . وكان من العلماء العرب الذين تعاونوا على تحقيقه بالاضافة الى مرجليوت ورفاقه الشيخ ابراهيم اليازجي ، قسطاكي الحمصي ، جرجي زيدان ، عبد العزيز جاويش ، محمد حسنين الغمراوي ، انستاس الكرملي ، أحمد زكي باشا ..

تراجم اللغويين والنحويين

كان لنحو العرب ولغتهم حيز كبير في معارفهم خلال عصور مديدة . وقد كانت أولى بوادر هذا الاهتمام في صدر الاسلام على يد أبي الأسود الدؤلي ، حين كبر عليه فشو اللحن بين بعض العرب . ونحن نقع في كتب الأدب القديمة على أخبار تتصل باللاحنين في عهد مبكر منذ أيام عمر بن الخطاب بل منذ عهد الرسول عليه السلام من قبل بعض الموالي والمتعربين وأحياناً من العرب أنفسهم . ثم أقبل العلماء في العصر العباسي على التأليف في النحو العربي إقبالاً منقطع النظير ، حتى ليخال المرء أن علماء العربية صبوا جهدهم ونبوغهم في هذا العلم . وكان ظهور مدرستي الكوفة والبصرة وانشطار العلماء بينهما مظهراً بارزاً لهذه الظاهرة [1] .

---

(١) كان على المذهب البصري من العلماء : عيسى بن عمر ، أبو عمرو بن العلاء ، يونس بن حبيب ، الخليل بن أحمد ، سيبويه ، النضر بن شميل ، قطرب ، أبو عبيدة ، أبو زيد الانصاري ، الأصمعي ، الأخفش الأكبر ، الأوسط ، الأصغر ، ابن سلام الجمحي ، أبو حاتم السجستاني ، أبو عمر الجرمي ، أبو عثمان المازني ، أبو اسحق الزيادي ، أبو الفضل الرياشي ، أبو سعيد السكري ، أبو العباس المبرد ، الزجاج ، الزجاجي ، الآمدي ، ابن دريد ، ابن درستويه أبو علي الفارسي ، أبو علي القالي . =

ولم يكن الاهتمام بدراسة النحو منفصلاً عن الاهتمام بدراسة اللغة والتصريف لأن هذه المعارف لم تتمايز بصورة واضحة في اذهان العلماء الأوائل أنفسهم ، كما أن أولئك العلماء كانوا في الغالب يصدرون عن ميل إلى اللغة والنحو في آن ، فكانوا بالإجمال نحويين ولغويين معاً . وتبعاً لذلك رأينا أكثر الكتب التي اختصت بالترجمة لهؤلاء العلماء تشتمل في مضمونها على النحويين واللغويين .

وثمة كتب عديدة ألفت في وقت مبكر نسبياً حول هذا الموضوع ، ولكن أكثرها لم يصل إلينا او بقي بعضها مخطوطاً . ولعل من أوائل ما يذكره المؤلفون من كتب التراجم هذه كتاب « طبقات النحويين البصريين » لابي العباس المبرد وكتاب آخر في الموضوع نفسه لابي العباس ثعلب . وكان ممن ألفوا في هذا الجانب أيضاً بعد ذلك كثيرون فكان لابن درستوريه كتاب « أخبار النحويين » ولابي سعيد السيرافي كتاب « طبقات النحويين البصريين » او « أخبار النحويين البصريين » [1] وكتب أخرى نقتصر على أهمها .

وكان على المذهب الكوفي : أبو جعفر الرؤاسي ، الكسائي ، الفراء ، الهروي ، أبو عمرو الشيباني ، ابن الأعرابي ، أبو عكرمة الضبي ، ابن السكيت ، ثعلب ، المفضل بن سلمة بن عاصم ، أبو بكر ابن الانباري ، أبو بكر السجستاني ، أبو عمر الزاهد ، نفطويه ..

وكانت جماعة ثالثة من النحويين واللغويين على المذهب البغدادي حصيلة المدرستين ومنها : ابن قتيبة الدينوري ، ابن خالويه ، أبو الطيب اللغوي ، ابن جني ، أبو هلال العسكري ...

(١) نشره المستشرق كرنكو سنة ١٩٣٥ . ثم نشر ثانية في مصر سنة ١٩٥٥ بعناية طه الزيتي ومحمد عبد المنعم خفاجي .

ألف هذا الكتاب أبو الطيب اللغوي من رجال القرن الرابع . وقد جذبه بلاط سيف الدولة وكانت بينه وبين ابن خالويه منافسة وخصومة . وكانت له كتب كثيرة ، ضاع بعضها وبقي بعضها الآخر [1] .

ويعد كتاب « مراتب النحويين » لابي الطيب اللغوي وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي من الكتب الاساسية الرائدة في تراجم علماء اللغة والنحو برغم اعتدال حجمها . غير أنهما يختلفان منهجاً وان اتفقا موضوعاً .

والكتاب في محتواه لا يتسم بالغزارة ، وقد يعزى السبب في ذلك لتقدمه في الزمان بالنسبة الى حركة التأليف في هذا المجال . فهو صغير الحجم لا تكاد تبلغ صفحاته المائة عدداً ، كما أنه لا ينطوي إلا على قدر قليل من

(١) مما بقي من آثاره بعد أن استباح الدمستق حلب وقتل أبا الطيب فيمن قتل : شجر الدر ، كتاب الفرق وقد أخذ عنه السيوطي ، كتاب الابدال ، الأضداد وقد ذكره الزبيدي في مقدمة معجمه « تاج العروس » المثنى ، كتاب الاتباع وقد نشر في دمشق بتحقيق عز الدين التنوخي في سلسلة مطبوعات المجمع العلمي العربي سنة ١٧٦١ ، مراتب النحويين . وهو الذي يعنينا هنا وقد صدر في القاهرة سنة ١٩٥٥ بتحقيق أبي الفضل ابراهيم مذيلاً بفهارس حسنة . والكتاب صغير الحجم لا يتجاوز ١٠٠ صفحة .

تراجم النحاة واللغويين الذين لا يزيد عددهم عن بضعة وستين علماً . وهذا يعني أن أبا الطيب أغفل كثيراً من العلماء . ومن هنا كان كتابه قليل الجدوى .

ويغلب الاقتضاب على تراجم الكتاب فقد لا تعدو إحداها السطرين او الثلاثة ، غير أن بعضها كترجمة الأصمعي بلغ العشرين من الصفحات .

ويقوم منهج أبي الطيب كما ينم عليه عنوان كتابه على ذكر مراتب النحاة ومنازلهم من العلم ، ويحرص في الوقت نفسه على عقد الصلة بين الشيوخ وبين التلاميذ . فهو يقول مثلاً في صدد ترجمة أبي زيد الأنصاري : « وقد أخذ عنه اللغة أكابر الناس ، منهم سيبويه وحسبك .. » ثم يضيف إلى ذلك قوله : ان سيبويه عندما كان يقول « وحدثني من أثق بعربيته » فانما يعني أبا زيد .

على أن هذه الطريقة التي آثرها أبو الطيب لم تكن كبيرة الجدوى برغم فضلها في محاولة الربط بين جماعات العلماء وإبراز صلات الأخذ والقراءة فيما بينهم . فهو يعمد إلى ذكر العالم ثم تلميذه فتلميذ تلميذه من بعده ، ثم يعود مجدداً إلى عالم آخر ليمسك برأس سلسله جديدة ، ويمضي في تتبع حلقاتها وهكذا .. وقد نجم عن هذا المنحى الخاص اضطراب المنهج في الكتاب وافتقاره الى نوع من النظام ودقة التبويب، فليس جلياً مثلاً سبب ورود ترجمة ابن دريد قبل ابن قتيبة . فالكتاب ذو طريقة خاصة . فهو ليس على حسب الترتيب الزمني ولا الترتيب المعجمي ولا على المدارس ولا الأقاليم .

وقدم أبو الطيب لمراتب النحويين بخطبة تتصل بموضوع كتابه تكلم فيها على أدعياء العلم والمتطفلين على العلماء ممن يتصدون لذلك دون أن يفقهوا شيئاً ، حتى إنهم يخلطون بين الرجال ، وهو ينعتهم بأنهم وبال على العلم ووباء على العلماء . ثم يتكلم على أول ظهور اللحن .

أما التراجم فيستهلها في كتابه بأبي الأسود الدؤولي أول النحويين ثم يُتبعه أبا عمرو بن العلاء فعيسى بن عمر ...وقد استقى منها عدد من المؤلفين الذين أتوا بعد ذلك وصنفوا في هذا الموضوع كالسيوطي وغيره .

وصدر الكتاب محققاً ومذيلاً بالفهارس في القاهرة سنة ١٩٥٥ .

طبقات النحويين واللغويين

أبو بكر الزبيدي أندلسي اشبيلي من رجال القرن الرابع الهجري ، كان عالماً كبيراً في اللغة والأدب وشاعراً ذاع شأنه في اشبيلية . وقد سمع على أبي القالي ولازمه . وكما ألف القالي كتابه « الأمالي » للخليفة الأموي الحكم ابن الناصر ألف الزبيدي كتابه « طبقات النحويين واللغويين » للحكم أيضاً . وألف كتباً عديدة منها « مختصر كتاب العين » وهو خلاصة « العين » الذي ألفه الخليل الفراهيدي [1] .

(١) من كتبه أيضاً : لحن العوام ، الواضح في النحو ، ابنية الاسماء . وهي ما تزال مخطوطة .

وكتاب الزبيدى مصدر أصيل لتراجم النحاة واللغويين والمتأدبين من عهد أبي الأسود الدؤلي في القرن الأول الهجري حتى منتصف القرن الرابع. ويستهل المؤلف كتابه بمقدمة يتحدث خلالها بايجاز عن اللغة العربية وكيف ان أهلها كانوا ينطقون بها على سجيتهم، ثم فشا فيها اللحن والفساد بدخول الأمم في دين الإسلام افواجاً. ثم يجعل أبا الأسود الدؤلي في طليعة من وضعوا أصول النحو وأسسه فكان له فضل السبق وشرف التقدم.

امتاز كتاب طبقات النحويين واللغويين من سائر المصنفات في هذا الموضوع بحسن منهجه. ويتجلى ذلك في الخصائص التالية:

١ - فرز الزبيدي النحاة واللغويين تبعاً لمراكز ازدهار علومهم وعلى حسب مواطنهم أو أقاليمهم، وذلك على نحو يذكرنا بتقسيم شعراء «يتيمة الدهر» للثعالبي. فقد صنف الزبيدي علماءه خمس فئات:

فئة البصرين فالكوفيين فالمصريين فالقرويين (أي الافريقيين) وأخيراً فئة الاندلسيين.

وهذا تقسيم موفق في مضمار علوم اللغة والنحو والتصريف لأنه في الحقيقة يراعي التمييز بين المذاهب والمدارس وفرز علماء كل إقليم في مجموعة متجانسة.

٢ - رتب الزبيدي علماء كل بلد أو إقليم ترتيباً زمنياً مصنفاً إيام في طبقات أو في أجيال، أي أن كل طبقة تتلوها طبقة تتلوها طبقة، وذلك على

حسب تعاقب أفرادها خلال العصور وليس على حسب منزلتهم في العلم كما قد يبدو من عنوان الكتاب أو مفهوم الطبقات الشائع . والطبقة عند الزبيدي تشتمل على عدد من العلماء في النحو أو اللغة يقلون أو يكثرون تبعاً للجيل الذي عاشوا فيه . فقدتقتصر على عالم واحد أو عالمين وقد تتجاوز الثلاثين من العلماء .

٣ ـ فصل الزبيدي في كتابه بين علماء اللغة والنحو ، وتناول كل فئة منهم في باب خاص . غير أن المؤلف اكتفى بتطبيق هذا المبدأ على فئتين من العلماء هما البصريون والكوفيون جاعلاً كل مجموعة منهم في باب . على حين لم يعمد الى هذا التميز بين علماء سائر الامصار . ويبدو ان المؤلف وجد صعوبة في التزام هذا الفرز والتمييز بين كل من علماء اللغة وعلماء النحو لما بين هذين العلمين من اتصال وترابط ، اذ قلما وجدنا عالماً انفرد بأحد العلمين ولم تكن له مشاركة في الآخر . ولهذا لاحظنا ان المؤلف نفسه اضطر مثلاً في صدد ترجمته لعلماء البصرة والكوفة الى ان يتناول بعض أعلام التأليف مرتين ، مرة في باب النحويين والأخرى في باب اللغويين ، على نحو ما فعل بالنسبة إلى أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر وثعلب وسواهم . . كما أنه من جهة أخرى اقتصر على جعل الخليل الفراهيدي في عداد النحاة ولم يضمه بين اللغويين مع أن الاهتمام باللغة غلب عليه وكان صاحب معجم « العين » ، أول معجم في العربية .

والزبيدي يتسم في كتابه بروح موضوعية متجردة ، فهو ينصف العلماء

ويذكر ما لهم وما عليهم . وهذا لم يمنعه من ان يصرح في خطبة كتابه بأنه بدأ طبقاته بالترجمة لعلماء البصرة قبل علماء الكوفة لتقدمهم في علم العربية وسبقهم إلى التأليف فيها .

وبلغ عدد من ترجم لهم الزبيدي في كتابه زهاء ٣٠٠ من أئمة اللغة والنحو وأعلامهم ، كان نحو ثلثهم من الأندلسيين . وفي رأينا ان الكتاب يكتسب أهمية أكبر في احتوائه هذا العدد الوفير من تراجم علماء الأندلس ، وهذا قل أن نحظى به في مصنفات مماثلة .

والزبيدي يؤثر الإيجاز والتركيز فيما يعرض له من تراجم العلماء ، وينفي عنها كثيراً من الحشو الذي لا طائل منه إلا من اقتضى منه الإسهاب ، وهو لحسن الحظ يعنى بتراجم الأندلسيين ويوفيهم حقهم من القول .

وقد نشر « طبقات النحويين واللغويين » في مصر عام ١٩٥٤ في طبعة علمية محققة ومذيلة بفهارس [1] .

---

(١) نشر المستشرق فريتز كرنكو مختصراً للكتاب أول مرة سنة ١٩١٩ . وقد صدرت الطبعة المصرية بتحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم .

نزهة الألباء

صاحب هذا الكتاب الأنباري أبو البركات عبد الرحمن بن محمد ، من كبار علماء النحو في القرن السادس الهجري . وقد أسمى كتابه « نزهة الألباء في طبقات الأدباء »[1] .

فنزهة الألباء كتاب آخر في تراجم النحاة واللغويين ظهر بعد نحو قرنين من ظهور كتاب الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين . وقد استهل الأنباري كتابه بمقدمة عرض فيها نشأة علم النحو ، ونسب فيها الفضل إلى علي بن أبي طالب والى أبي الأسود الدؤلي ، ثم تكلم على مبادرة أبي الأسود الى تشكيل القرآن وابتداعه نظام الحركات أول مرة في العربية .

وينطوي الكتاب على الصفات التالية :

١ ـ انه يصنف العلماء على حسب ترتيبهم الزمني ، شأنه في ذلك شأن كتاب الزبيدي ، فيبدأ بذكر النحويين واللغويين الأوائل . ويمكن أن نعد

---

(١) للأنباري كتاب قيم اسمه « الانصاف في مسائل الخلاف » تناول فيه بروح متجردة الخلافات النحوية بين مدرستي الكوفة والبصرة وعرضها بتفهم وحاول التوفيق بينها في بعض الأحيان .

كتاب الأنباري هذا بحكم تأخره الزمني مكملاً لكتاب الزبيدي ، فهو يورد تراجم من القرنين الخامس والسادس أي حتى عصره .

٢ ـ يتخلل تراجم النحويين واللغويين في الكتاب تراجم أخرى لعدد من الشعراء والكتاب مثل أبي نواس وأبي تمام وابن المعتز والجاحظ والصاحب ابن عباد والمتنبي والجرجاني وأبي العلاء وغيرهم ... والأنباري ينطلق في ذلك من أخذه بالمفهوم الواسع للأدب ولكلمة الأدباء التي جعلها في عنوان كتابه .

ونحن نأخذ على المؤلف اضطراب منهجه وعدم تحديده مجال موضوعه حين حشر عدداً من الشعراء والكتاب بين النحاة واللغويين برغم تمكنهم في النحو واللغة لأن سمة الأدب غالبة عليهم . وكان الاقتصار على تراجم النحويين واللغويين أجدى للعلم وأدل على التخصص ، كما أن تناول الأدباء من شعراء وكتاب يحتاج الى مصنف مستقل لغزارة المادة في كلا الموضوعين . وهكذا لم يستطع الأنباري أن يوفي أحد الموضوعين حقه .

٣ ـ والكتاب وجيز يقتصر عدد التراجم فيه على ١٧٠ ترجمة للنحاة واللغويين والشعراء والكتاب . ومن مقارنة هذا العدد بما أورده الزبيدي يتضح لنا أن الأنباري لم يستوف موضوعه وينقص تراجمه لان الفترة التي تناولها تقارب ستة قرون وتزيد بنحو قرنين من الزمان عن الحقبة التي تناولها سلفه الزبيدي ، وبذلك كان بوسعه أن يتجنب التكرار وأن يركز اهتمامه في مقابل ذلك على علماء القرنين الخامس والسادس .

على أننا لا نريد أن نظلم الأنباري ، لان محتوى الكتاب لا يتضمن ترجمة للزبيدي في عداد النحويين وليس فيه ما يدل على أن مؤلفه قد اطلع على كتاب سلفه برغم انقضاء أمد طويل على صدوره . وهذا أمر يحدث ، وبخاصة إذا عرفنا أن ثمة مصاعب كانت تحول دون تداول الكتب وانتشارها على نطاق واسع في تلك العصور القديمة ، يضاف إلى ذلك أن كتاب الزبيدي صدر في الأندلس فكان أبعد عن أيدي المشارقة .

٤ ـ ومع أن عنوان الكتاب في الطبقات فهو ككتاب الزبيدي لا ينطوي على شيء من التصنيف الطبقي الاصطلاحي . فقد أصبحت كلمة الطبقات في كتب التراجم لا تعني أكثر من مفهوم الترجمة لحياة الأعلام في كل فن. فالكتاب يورد تراجمه على حسب التسلسل الزمني لأصحابها بادئاً بأبي الأسود ومنتهياً بابن الشجري . ولا ينطوي فيما عدا ذلك على أي تبويب آخر خاص به . وهذا ما يرجح أن الأنباري لم يقف على كتاب الزبيدي ولم يستفد من منهجه .

طبع الكتاب في مصر طبعة علمية محققة [1] .

---

(١) طبع نزهة الألباء اول مرة في مصر سنة ١٢٩٤ هـ ، ١٨٧٧ م طبعة على الحجر ، وهي غير جيدة وتنطوي على الخطأ والتصحيف ، فضلاً عما ألحقه الناسخ من اغلاط أخرى أفدح . ثم اعاد طبع الكتاب السيد علي يوسف ولكن طبعته ليست علمية واعتمدت على الطبعة السابقة الأولى دون ان تلافى الأخطاء السابقة بل أضيفت اليها اخطاء جديدة .

وفي عام ١٩٥٩ صدر الكتاب في بغداد بتحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي . =

أنباه الرواة

جمال الدين علي بن يوسف القفطي عالم جليل عاش في القرن السابع الهجري. وكان ناثراً بليغاً غلبت على كتابته طريقة القاضي الفاضل في الزخرفة والتنميق. وكتابه « إنباه الرواة على أنباه النحاة » أشهر مؤلفاته التي ضاع الكثير منها [1] . ويمتاز بسداد المنهج وجودة التأليف.

وإنباه الرواة معجم شامل لتراجم أعلام اللغة والنحو منذ عصر أبي الأسود حتى القرن السابع . عصر المؤلف . وهو كتاب كبير شامل يتناول اللغويين والنحويين في العالم الاسلامي في أرجاء المشرق والمغرب . ويحتوي قرابة ألف ترجمة . وهو يتمدى النحويين واللغويين الى كل من كانت له مشاركة

= ثم أصدره السامرائي في طبعة ثانية في بغداد ايضاً عام ١٩٧٠ عن دار الأندلس وساعدت على نشره جامعة بغداد . وتمتاز هذه الطبعة بمجموعة فهارسها وبحواشيها القيمة .

وكان أبو الفضل ابراهيم قد نشر الكتاب عام ١٩٦٦ نشراً علمياً وأصدره عن دار نهضة مصر . ويلاحظ هنا كيف تتضارب الجهود حول تحقيق كتاب واحد بسبب ضعف التنسيق بين المؤسسات العلمية في الوطن العربي .

(١) تبلغ مؤلفاته نحو ثلاثين كتاباً ضاع أكثرها ومنها : إخبار العلماء بأخبار الحكماء، أخبار المتيمين ، أخبار مصر من ابتدائها الى أيام صلاح الدين أو تاريخ مصر ، إصلاح خلل الصحاح .

في اللغة والنحو من الشعراء والكتّاب والعروضيين والمؤرخين والمحدثين .

بوّب القفطي كتابه على حسب الترتيب المعجمي ، فهو معجم لأعلام النحو واللغة . وهذا المنهج ييسر على الباحث الرجوع إليه والإفادة منه ، برغم أن هذا الترتيب لا يلتزم الدقة في ثواني الأسماء . وقد رأينا مثل هذا العيب من قبل في بعض كتب تراجم الشعراء كالمؤتلف والمختلف للآمدي ومعجم الشعراء للمرزباني .

ويصدّر القفطي كتابه بمقدمة تتناول بواكير المحاولات النحويه مما أصبح ذكره أمراً مألوفاً في هذه الكتب .

وإنباه الرواة في مادته الغزيرة التي اتسمت لـ : ٨١٣ ترجمة حصيلة كتب عديدة وثقافة واسعة آلت الى القفطي في عصر ازدهار التأليف ، فهو يغني عن مصنفات كثيرة في هذا الموضوع .

صدر « انباه الرواة » في ٣ أجزاء عن دار الكتب المصرية خلال ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥ . وقد حققه تحقيقاً علمياً ممتازاً محمدأبو الفضل ابراهيم ، كما ذيله بتعليقات وحواش مفيدة ، والحق به فهارس جيدة .

يعد جلال الدين السيوطي من العلماء الأفذاذ في عهود العرب المتأخرة، عاش خلال النصف الثاني من القرن التاسع وأوائل العاشر. وقد عرف بغزارة نتاجه وكثرة مؤلفاته، حتى بلغت كتبه نحواً من ٥٠٠ كتاب من أشهرها كتابه في فقه اللغة واسمه «المزهر».

أما كتابه هذا «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» فيعد في مقدمة المصنفات المسهبة التي ترجمت لعلماء النحو واللغة. ومن خلال خطبة الكتاب يتضح لنا مقدار الجهد الذى بذله السيوطي في جمع مادته ومدى الإحاطة في استيعاب مصنفات أسلافه. وقد عرض لبعض من ألفوا في هذا الموضوع وقوم كتبهم وذكر ما لها وما عليها، وأشاد بكتاب الزبيدي من بينها، وسرد في هذا الصدد كتباً عديدة لم تصل إلينا وأفاد منها في كتابه.

ولما كان السيوطي في جيل المتأخرين تراكم بين يديه ما اجتمع من تراجم الرجال خلال ما يزيد عن ثمانية قرون. ومثل هذه المادة الوافرة فرضت على المؤلف فيما يبدو ان يعمد إلى الإيجاز الشديد في كثير من تراجمه، حتى إنه احيانا لا يتعدى ذكر اسم العالم مع شذرات من اخباره ومصنفاته لا تكاد تغني الباحث. وقد احتوى كتابه تبعاً لذلك عدداً كبيراً من التراجم بلغ ٢٢٠٩،

وهو أكبر مجموع نقع عليه فيما صنف من الكتب في تراجم اللغويين والنحويين.

وقد آثر السيوطي لكتابه اتباع المنهج المعجمي فرتب اسماءه على الحروف ، ومثل هذه الطريقة تغدو مفضلة على سواها حين تغزر المادة وتكثر الأسماء كثرة بالغة . ولكن السيوطي عمد إلى استهلال أبواب كتابه بذكر أسماء المحمدين والأحمدين إجلالاً للرسول العربي الذي سمي بهذين الاسمين ، وبعد ذلك شرع في ذكر الأسماء المبدوءة بحرف الهمزة فالباء .. الخ ..

وقد ألحق السيوطي في كتابه عدداً من الأبواب في تراجم أخرى أخضعها لنسق آخر مثل باب الكنى والألقاب ، وباب النسب والإضافات وباب المتفق والمفترق من الأسماء .. الخ .

ولا شك أن أهمية الكتاب تتجلى في استيعابه واحتوائه غالبية النحويين واللغويين الذين عرفتهم العربية . غير أن الفائدة منه أجدى في الوقوف على تراجم العلماء المتأخرين بحيث يعد بغية الوعاة مكملاً في ذلك مصنفات أسلافه .

وقد صدر بغية الوعاة في مصر محققاً ومذيلاً بفهارس قيمة [1] .

---

(١) صدرت هذه الطبعة في مصر عام ١٩٦٦ م بعناية محمد أبي الفضل ابراهيم وذلك في مجلدين . وكان قد صدر قبل ذلك في مطبعة السعادة في مصر أيضاً سنة ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م .

كتب التراجم العامة

بعد أن اتسعت الرقعة المكانية للبلاد العربية والإسلامية اتساعاً كبيراً بعد الفتوح حفلت هذه الربوع المترامية الأرجاء بحركة ناشطة لم يعرف لها العالم القديم نظيراً . وقد تميز سيل المؤلفات في القرن الرابع بتنوع الموضوعات واختلاف الاتجاهات . وشعر العلماء إزاء هذا الفيض الزاخر بحاجة ماسة إلى حصر تلك العلوم وتنسيقها وتبويبها ووصفها والتعريف بأصحابها . فكان من ذلك محاولة الفارابي (محمد بن طرخان ـ ٣٣٩ هـ) في مؤلفه « إحصاء العلوم » الذي تناول فيه علوم عصره وبوّبها وعرّف بها [١] . وفي إثر الفارابي جاء الخوارزمي (محمد بن أحمد ـ ٣٨٧ هـ) ووضع كتابه « مفاتيح العلوم » وكان عمله شبيهاً بعمل الفارابي .

غير أن هذين العالمين وقفا عند هذا الحد من الإحصاء يريدان أن يبينا منهج كل علم وطبيعته وحدوده ليفرقا بين علم وعلم وعالم وعالم . وهما فيما كتبا لم يعرضا لعالم بتعريف ولا لكتاب بتبيين [١] .

---

(١) انظر « تراث الانسانية » المجلد ٦ ص ١٩٥ ، بقلم ابراهيم الابياري .
(١) تراث الانسانية ٦ : ١٩٦ .

وهذه النظرة قادت إلى مرحلة أخرى تعد متصلة بها ومكملة لها ، إذ كان لا بد من تأليف يذكر في ضوء هذا التقسيم أسماء العلماء موزعين على ميادينهم العلمية ثم أسماء كتبهم والتعريف بمضمونها . وكانت هذه الغاية أبعد منالاً لأنها تتطلب عبئاً أكبر واستيعاباً أوسع ، ورجوعاً الى كتب كثيرة وفهارس وافية .

هذه المهمة الشاقة في وضع فهارس شاملة تضم العلوم والعلماء وترصد النتاج الفكري تجلت في مجموعة قيمة من المصنفات الجليلة في طليعتها كتاب الفهرست لابن النديم ، والفهرست لابن خير ، وكشف الظنون لحاجي خليفة .

وثمة كتب أخرى ذات طبيعة متشابهة من حيث شمول موضوعها تعرف بكتب التراجم العامة مثل وفيات الأعيان ، فهي تختلف عن الكتب السابقة في أنها تعنى بالأشخاص أكثر من عنايتها بالمؤلفات شأنها شأن سائر كتب التراجم في الشعراء والأدباء وفي اللغويين والنحويين .

ونحن لا نعرض لهذين النوعين من المصنفات إلا لأنها تنطوي ـ فيما تنطوي عليه من تراجم عامة ـ تراجم الأدباء والشعراء واللغويين والنحويين .. مما يدخل في نطاق موضوع بحثنا .

الفهرست

من المصادر الهامـة لمن يريد الوقوف على ثقافة حقبـة القرون الأربعـة الأولى للاسلام كتاب الفهرست . هذا الكتاب ألفه أبو الفرج محمد بن النديم ويعد الأول من نوعه . وقد اعتمد فيه مؤلفه على صلته بالوراقة ، تلك الصناعة التي كانت تتيح لصاحبها أن يدخل الى المكتبات الخاصة والعامـة وأن يكون على صلة وثيقة بالطبقة المتنورة والفئة المثقفة . وقد عُرف بعض الوراقين عهدئذ بالنباهـة وسعة الاطـلاع وكانوا قارئين باحثين مدققين ، وكان منهم من عرف بالتأليف ، ولعل ابن النديم أنبههم شأنـاً في عصره ، ومن قبل اشتغل الجاحظ بالوراقة كما اشتغل بها ياقوت الحموي من بعد .

ومن الغريب أن هذا الرجل الذي عاش في بغداد في أواخر القرن الرابع وبعض القرن الخامس وصنف كتابـاً قل نظيره في تراجم المؤلفين لم يحظ من الذين صنفوا في موضوع التراجم من بعده بالاهتمام الذي يستحقه ، برغم أن كتابه كان عمدة لأكثر هذه الكتب . وكان من شيوخه أبو الفرج الأصفهاني وابو سعيد السيرافي وابن الخمار (١) .

---

(١) لم يورد ابن خلكان ترجمة لابن النديم ، كما أن ابن شاكر الكتبي صاحب « فوات الوفيات » لم يستدرك ترجمته التي فاتت وفيات الأعيان . أما ياقوت فقد أورد له

وقد جود ابن النديم مادة كتابه واستوعب موضوعه استيعاباً يدل على اطلاع واسع على التراث العربي الحافل في مختلف أوجه النشاط الفكري والعلمي والأدبي حتى أواخر القرن الرابع . ويبدو أنه عاش لكتابه هذا وأمضى في تأليفه سنوات طوالاً (٢) .

والفهرست عمدة في موضوع التراجم وأصل من أصول التأليف في هذا المضمار . وهو على اعتدال حجمه يعد ذخيرة قيمة . وقد حرص فيه ابن النديم على أن يحصي جميع الكتب العربية المؤلفة والمنقولة وأن يصفها ويترجم لأصحابها بأن يذكر طرفاً من تاريخ حياتهم ويحدد سنة ولادتهم وسنة وفاتهم . وبذلك كان الفهرست أوفى سجل حتى عصره في هذا الموضوع لأنه يرصد لنا بدقة وأمانة ما بلغه العرب والمسلمون في حياتهم العلمية وما قطعوه من أشواط في مجال المعرفة خلال القرون الأربعة للهجرة وبخاصة الحقبة العباسية . ومن يتصفح محتوى الفهرست يعجب لهذا النشاط العلمي الخصب الذي اتسمت به حضارة العرب ويعجب في الوقت نفسه من إلمام المصنف بهذا التراث الحافل .

ومما يزيد الفهرست أهمية أن الكثير من المصنفات التي وردت فيه لم

في معجم الأدباء ترجمة مقتضبة في بضعة سطور كما ترجم له بإيجاز الصفدي خليل ابن أيبك في « الوافي بالوفيات » (- ٧٥٦ هـ ، ١٣٥٥ م) ، وابن حجر (احمد ابن علي (٨٥٢ هـ ، ١٤٤٨ م) في « لسان الميزان » ، وابن أبي أصيبعة في « طبقات الاطباء » .

(٢) لم يذكر لابن النديم كتاب آخر غير الفهرست الا كتاب « التشبيهات » .

يصل إلينا وعبثت به يد الضياع ، فلولا أن أثبته المؤلف في كتابه أو وصفه لما درينا من أمره شيئاً .

وطابع الفهرست عام لم يقتصر فيه مؤلفه على فئة معلومة من المؤلفين أو نوع معين من المؤلفات بل يتناول فيه وجوه النشاط الفكري في الأدب واللغة والفقه والحديث والتاريخ والعقائد والمذاهب والطب والفلك والموسيقى والفلسفة والحساب ..

وقد أدرك المؤلف اتساع القاعدة التي تصدى لجمعها بدأب وذكاء . فاختط منهجاً خاصاً انفرد به حين عمد إلى نبذ كل حشو أو لغو مما لا طائل وراءه بالنسبة الى موضوعه الأساسي ، فكان يقصد الى موضوعه قصداً دون تقديم أو تمهيد ليتسنى له حصر ما تصدى إليه . ومن هنا غلب الإيجار على مادته والاقتضاب في تراجمه ، وكانت سمة العالم المحقق غالبة عليه . وهذه السمة تطالعنا لدى ابن النديم منذ خطبة كتابه ؛ فهذه الخطبة لا تتعدى بضعة أسطر قصد بعدها إلى غرضه قصداً سريعاً فقال :

« النفوس ـ أطال الله بقاءك ـ تشرئب إلى النتائج دون المقدمات ، وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل في العبارات » .

« فهذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها ، في أخبار العلوم ، وأخبار مصنفيها ، وطبقات مؤلفيها وأنسابهم ، وتاريخ مواليدهم ، ومبلغ أعمارهم ، وأوقات وفاتهم ، وأماكن بلدانهم ، ومناقبهم ،

ومثالبهم ، منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمئة للهجرة » .

وهذا يعني أن ابن النديم ـ كما ذكر في خطبة كتابه ـ أنجز أصل الفهرست سنة ٣٧٧ هـ ، ٩٨٧ م . ولكننا نستنتج من مواضع في الكتاب أن المؤلف يورد فيه تراجم أناس عاشوا بعد هذا التاريخ ، فيذكر وفاة ابن جني اللغوي سنة ٣٩٢ هـ ، ١٠٠١ م ، ويجعل وفاة ابن نباتة بعد الأربعمئة ، وفي ترجمة المرزباني يقول : « ويحيا إلى وقتنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمئة ونسأل له العافية والبقاء بمنه وكرمه » وبعد هذه العبارة مباشرة نرى قول ابن النديم « وتوفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمئة رحمه الله » .

وتعليل ذلك في رأينا يمكن أن يكون في أحد أمرين : الأول ان ابن النديم بعد أن أنجز أصل كتابه سنة ٣٧٧ هـ ، ٩٨٧ م . كان يترك فراغاً أبيض بعد تراجم بعض معاصريه أو من تقدموه ، حتى إذا ما استجد لديه شيء في الموضوع أو عنّ له ما يضيفه أثبته في كتابه وألحقه بتراجمه . وقد يكون ابن النديم قد توفي بُعيد سنة ٣٧٧ لا سنة ٤٣٨ ، وبذلك يكون تلامذته هم الذين ألحقوا بالكتاب تلك الاضافات ، ومثل هذا مألوف بين العلماء وشيوخهم .

قسم ابن النديم فهرسته عشرة أبواب كبيرة أسماها مقالات وكل مقالة فرّعها إلى عدد من الفصول أو الفنون كما آثر أن يدعوها أيضاً . وقد بلغت هذه الفنون ٣٢ فناً .

المقالة الأولى : وفيها تمهيد حول لغات الأمم وخطوطها (كالعربية الحميرية والفارسية والسريانية والعبرية والرومية ـ اليونانية ـ والصينية والروسية والأرمنية) ويتناول فيها ابن النديم أيضاً الذين صنفوا حول كتب الشرائع من توراة وانجيل وقرآن وما يتصل بذلك من قراءات وقراء وتدوين للمصاحف .

المقالة الثانية : في النحويين واللغويين ومصنفاتهم . .

المقالة الثالثة : في الأدباء والكتاب وأصحاب السير ، وفي الولاة والملوك والندماء والمغنين . . وكتبهم .

المقالة الرابعة : في الشعر والشعراء وطبقاتهم من الجاهليين والإسلاميين والمحدثين .

المقالة الخامسة : في علماء الكلام وشيوخ الفرق الدينية من شيعة ومعتزلة وجبرية وخوارج وزهاد ومتصوفة .

المقالة السادسة : في الفقه والفقهاء والمحدثين وأئمة المذاهب .

المقالة السابعة : في الفلاسفة والمناطقة والمهندسين وأهل الحساب والمنجمين والموسيقيين والأطباء .

المقالة الثامنة : في الأسمار والخرافات والسحر والشعوذة ، وفي العطور والصيدلة والطبيخ . .

المقالة العاشرة : في أخبار الكيميائيين والصنعويين .

ومع أن غاية ابن النديم الحصر والاستيعاب ، فانه يقف أحياناً ليبدي رأيه فيما ينقل ، ففي صدد ترجمته لجابر بن حيان لا يتقبل رأي من يقول ان بعض

الناس كانوا يؤلفون وينسبون كتبهم الى سواهم: « وأنا أقول ان رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب فيصنف كتاباً يحتوي على ألفي ورقة يتعب قريحته وفكره باخراجه ويتعب يده وجسمه بنسخه ثم ينحله لغيره إما موجوداً أو معدوماً ضرب من الجهل ، وان ذلك لا يستمر على أحد ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم ، وأي فائدة في هذا وأي عائدة » .

وقد يبدي رأياً شخصياً لا نوافقه عليه كقوله عن كتاب الف ليلة وليلة : « وهو في الحقيقة كتاب غث بارد » .

ونشر « الفهرست » بعناية فائقة من المستشرق فلوغل بألمانيا[١] ، كما لقي اهتماماً كبيراً لدى المعاصرين وآثر بعض المستشرقين ترجمته الى لغات أخرى[٢] .

---

(١) بذل المستشرق الالماني غوستاف فلوجل عناية فائقة في نشر الفهرست نشراً علمياً فوضع له مقدمة بالالمانية والحق به تعليقات كثيرة وفهارس وافية . وقد أسهم في جوانب من هذا العمل علماء آخرون من الاجانب ، ونشر فلوغل الفهرست اول مرة في ليبزيغ سنة ١٨٧٢ ثم أعيدت طبعة فلوجل في بيروت سنة ١٩٦٤ بعد أن عز وجود الأولى . وتوجد للفهرست طبعة مصرية ولكنها تجارية غير علمية وليس لها تاريخ وصدرت عن مطبعة الاستقامة .

(٢) ترجم « الفهرست » الى الفارسية بالاعتماد على عدد من المخطوطات الجيدة التي لم يتح لفلوغل الاطلاع عليها ومنها مخطوطة Beatty الايرلندية ومخطوطة استامبول ، وقام بهذا العمل العالم الايراني م . رضا تجدد .

كما كلفت جامعة كولومبيا بأميركا المستشرق بيير ددج بترجمه الفهرست الى الانكليزية وهو من المهتمين بابن النديم وفهرسته فنشر ترجمته تباعاً وانظر ما كتبه ددج في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج ٤ المجلد ٤٥ ص ٨٢٣ .

فهرست ابن خير

لا نعرف عن محمد بن خير الشيء الكثير ، وهو اشبيلي من الأندلس عاش خلال القرن السادس الهجري أي بعد ما يقرب من قرنين من حياة ابن النديم [1] . غير أنه ليس ثمة ما يشير في كتابه إلى أنه اطلع على كتاب ابن النديم .

ومن جهة أخرى ليس ثمة ما يشير أيضاً في كتاب « كشف الظنون » لحاجي خليفة - وهو في الموضوع نفسه - إلى أنه اطلع على فهرست ابن خير . ومن قبل لاحظنا أن الأنباري صاحب « نزهة الألباء » لم يدر شيئاً من أمر أبي بكر الزبيدي الأندلسي ولا من أمر كتابه « طبقات النحويين واللغويين » . وإن دل ذلك كله على شيء فانما يدل على ضآلة التفاعل التفاعل الثقافي بين بلاد المشرق وبلاد الأندلس في ذلك العصر وأن حركة التبادل الأدبي وانتقال الكتب خلال تلك الربوع المتباعدة لم تكن تتم في يسر بسبب صعوبة المواصلات .

ويتضمن فهرست ابن خير الصفات التالية :

(١) ترجم له ابن الابّار في كتاب « الحلة السيراء » ، والضبي صاحب « بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس » ، والذهبي في « تذكرة الحفاظ » .

١ ـ انه كـكتاب ابن النديم يعنى بالمؤلفات بالدرجـة الأولى أكثر من عنايته بالمؤلفين . فهو فهرس يرصد الكتب أكثر من كونه كتاباً في التراجم .

٢ ـ يروي ابن خـير أسماء الكتب على حسب العـلوم أو الموضوعات . غير أنه يتعذر على المؤلف في بعض الأحيان التزام هـذا المبـدأ ، ولذلك قـد تندرج لديه كتب في غير مواضعها .

٣ ـ ان الكتب نفسها غير مرتبـة بدقة ضمن كل باب ، ولهذا يصعب على الباحث الوقوف بيسر على ما يريد . ومن هنا مست الحاجة إلى أن يفهرس الكتاب فهرسة معجمية تزيد الانتفاع منه .

٤ ـ يحرص ابن خير على الرواية الدقيقة لأسماء الكتب مشافهة عن الشيوخ الثقات الذين اتصل بهم أو أخذ عنهم . وهو في سبيل الضبط والتدقيق يعمـد إلى التزام الإسناد وتسلسل الرواية بما يقرب من درجة التواتر . وقـد أفرط المؤلف في ذلك على طريقة المحدّثين ، حتى إن ذكر كتاب واحد قد يستغرق عشرات السطور من سلسلة أسماء الرواة ، وبذلك يطغى السند على المتن ويثقل كاهل الموضوع الأصلي . على أن لهذه الطريقة فائدة علمية من حيث التأكد من نسبة الكتب إلى أصحابها ، والتمييز بين أسماء الكتب المتشابهة وربطها بمؤلفيها .

أما المنهج الذي آثره ابن خير في عرض مادته الغزيرة فهو تقسيم كتابه إلى موضوعات ، جاعلاً لـكل موضوع باباً خاصاً ، ومن ذلك :

الدواوين المؤلفة في علوم القرآن ، الموطآت ، كتب الحـديث وغريب

الحديث ، التواريخ ، تراجم المحدثين ، كتب السير والأنساب ، كتب الفقه ، كتب أصول الدين ، الفرائض . ثم كتب الآداب والأنحاء واللغات والأشعار ...

وينطوي القسم الأخير من الكتاب على ذكر من لقيهم ابن خير وتتلمذ عليهم من كبار العلماء والشيوخ الذين أجازوه في الرواية ، أو الذين أخذ عنهم ولم يلقهم ، أو من روى عنهم من سائر البلاد . وهذا التمييز دليل الدقة والروح العلمية .

ويعد فهرست ابن خير من أفضل المصنفات التي ترصد المكتبة العربية في الأندلس . والكتاب ينطوي على معلومات قيمة يندر أن نجدها في مرجع سواه كذكره لمجموعة الكتب الوافرة التي حملها أبو علي القالي معه من المشرق إلى بلاد الأندلس والتي كانت فيما نقدر رافداً كبيراً للحركة العلمية في الأندلس .

نشر فهرست ابن خير في سرقسطة بأسبانيا عام ١٨٩٣ ، ثم أعيد طبعه في بغداد منقحاً سنة ١٩٦٣ [١] .

(١) صدر عن دار المثنى بالعراق في مجلد واحد ينطوي على نحو ٦٠٠ صفحة . وقد عني بنشره أول الامر المستشرق فرنشيسكو قديرة (كوديرا) وتلميذه خليان ريبيرا طارغوه . وقد وضعا له مقدمة قيمة باللاتينية وهي مترجمة الى العربية في الكتاب نفسه ، وقد توج المستشرقان الكتاب بفهارس قيمة تتضمن ثبتاً طويلاً بأسماء الكتب الواردة في الفهرست ، وثبتاً آخر بأسماء المؤلفين والرواة ، وثبتاً بأسماء الأماكن . .

وعنوان الكتاب مفصلاً « تاريخ بغداد أو مدينة السلام » . وقد ألفه الخطيب البغدادي من رجال القرن الخامس الهجري ، وكان حافظاً للقرآن ومؤرخاً وفقيهاً وأديباً ، وقد عرف بغزارة مؤلفاته[1] .

وقد عين المؤلف إطار بحثه المسهب في مقدمه موجزة لا تتجاوز صفحة واحدة ، قال فيها : « هذا كتاب تاريخ مدينة السلام وخبر بنائها ، وذكر كبراء نزّالها ، وذكر وارديها وتسمية علمائها » .

وواضح من عنوان الكتاب ومن هذه الكلمات الممهدة أن الكتاب تاريخ مسهب لعاصمة العباسيين . وأن الشطر الأوفى منه يتناول موضوع التراجم بصورتها العامة ، أي كما قال الخطيب انه في ذكر كبراء ونزال بغداد وواردها وعلمائها . فالكتاب برغم عنوانه الذي يوحي بأنه ينطوي على مادة تاريخية ، هو في حقيقته كتاب تراجم في الدرجة الأولى . وهو يشبه الى حد ما كتاب نفح الطيب من حيث احتواؤه تاريخ البلد وجغرافيته ثم تراجم

(١) عد ياقوت للخطيب البغدادي ٥٦ مؤلفاً ، وبلغت مؤلفاته عند يوسف العش في كتابه « الخطيب البغدادي : مؤرخ بغداد ومحدثها » ٧٩ كتاباً . ومن كتبه : الامالي ، البخلاء .

أعلامه .. وإذا علمنا مدى أهمية بغداد في القديم وأنها أكبر حواضر العلم والسياسة في التاريخ الاسلامي وما عاش خلاله من رجال أعلام على مر العصور حتى عهد المؤلف أدركنا قيمة هذا الكتاب وفهمنا سبب ضخامته .

والكتاب في ظاهر اسمه مقصور على بغداد كما يوحي عنوانه ، ولكنه يتعدى هذا النطاق في الواقع لأنه رصد للحركة العلمية الشاملة في عهد العباسيين الزاهر وبخاصة في حاضرتهم بغداد . بل انه موسوعة ضخمة تتناول كل ما يتعلق بدار السلام وحضارتها . وقد أحسن المؤلف صنعاً حين ترجم لمن وفدوا عليها وألموا بها من خارجها . وبهذا غدا طابع « تاريخ بغداد » عاماً شاملاً ، إذ قلما نبغ عالم أو شاعر أو أديب أو فقيه دون أن ينزل بمدينة السلام أو يلم بها . ولهذا نجد تراجم العديدين من غير البغداديين أصلاً كأبي الطيب المتنبي وسواه .

ومثل هذا الشمول في مادة الكتاب يتجلى في تراجم اعلام بغداد والوافدين عليها من الخلفاء والملوك والوزراء والنحاة والصرفيين والبيانيين واللغويين والقراء والمفسرين والمحدثين والمتكلمين والمنطقيين والفقهاء والقضاة والزهاد والمتصوفة والقصاص والوعاظ والرياضيين والحساب والفلكيين والمنجمين والموسيقيين والأطباء والصيادلة والجراحين والكتاب والخطاطين والشعراء والمؤرخين والمغنين وحذاق الصناع والرماة والفرسان والنابغين . .

أما المنهج الذي آثر الخطيب البغدادي اتباعه في عرض تراجمه فلم يكن

وفقاً للتسلسل الزمني كما قـد يوحي بذلك عنـوان الكتاب « تاريخ بغـداد » ولكنه جنح إلى الترتيب المعجمي ، وهذا المنهج أجدى في مثل هـذه الكثرة البالغة في عدد التراجم وأيسر تناولاً على الباحث .

وقد تـكلم المؤلف في الجزء الأول من كتابه على إنشاء بغداد أيام أبي جعفر وأصـل تسميتها وعلى أسـواقها وجسورها ومساجدها ومساحتها . وبعـد ذلك شرع في الترجمة لأعلام أهلها جاعلاً القسم الأول من ذلك في الترجمـة للوافدين على المدائن القريبة منها وهم من الصحابة وفي رأسهم علي والحسن والحسين وسعد وابن مسعود وابن ياسر وأبو ايوب الأنصارى وسلمان الفارسي وعبد الله بن عمر ومعاوية والمغيرة أيام الفتح وبعده .

ثم ينتقل المؤلف الى التراجم العامـة مقدماً أسماء المحمدين على غرار ما وجدنا في بغية الوعاة للسيوطي . كذلك نلاحظ أن الخطيب أيضاً لا يراعي الدقة في ثواني حروف الأسماء ، فهو مثلاً يبدأ بذكر من اسمـه محمـد واسم أبيه اسحق ثم من اسم أبيه أحمد ثم من اسم أبيه ابراهيم على حين كان ينبغي له أن يفعل العكس . ويبدو أن أكثر المؤلفين حتى هـذا القرن الخامس عصر المؤلف لم يكونوا يعبؤون بهذه الناحية التفصيلية في الترتيب المعجمي .

وقد طبع هذا الكتاب الكبير في مصر سـنة ١٩٣١ في ١٤ جزءاً واستغرق نحو خمسة آلاف صفحة . وثمة كتاب آخر ألفه بعده ابن النجار ليكون متمماً له في الفترة التي تلت عصر الخطيب ، وهو « ذيل تاريخ بغداد » .

جذوة المقتبس

أبو عبد الله الحُميدي فقيه ومؤرخ أندلسي من رجال القرن الخامس الهجري. وهو معاصر للخطيب البغدادي وكتابه شبيه بكتابه، وقد لقيه وأخذ عنه وعن أهل طبقته عندما رحل عن الأندلس إلى المشرق وآثر المقام في بغداد. ويعد أول من أدخل كتب ابن حزم إلى الشرق. وكتبه كثيرة [1] ويعنينا منها « جذوة المقتبس » الذي ألفه في العراق ولأهل العراق، فكان فيما يبدو حريصاً على أن يعرّف أهل المشرق بمآثر وطنه في المغرب، ولهذا يعد الكتاب من أعمدة المكتبة الأندلسية. غير أن بعد المؤلف عن بيئته الأولى وقلة مصادره كانا يحدان من انطلاقه أحياناً ويحولان دون تعرضه الوافي لأنباء الأندلسيين وربما ساقه ذلك إلى إغفالهم. وقد اعتذر عن ذلك في خطبة كتابه.

وموضوع كتابه ينم عليه ما فصله في هذا العنوان المفصل: « جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس. وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر ».

فالكتاب في التراجم العامة، وطابع بعضها الاقتضاب لما اسلفنا من قلة

(١) من كتبه « الجمع بين الصحيحين » أي البخاري ومسلم، وكتب أخرى مثل تاريخ الاسلام، وهي تتجاوز العشرين كتاباً.

مصادر المؤلف . غير ان ما امتاز به الحميدي في كتابه اختفاء ظاهرة الغلو التي نامسها في الغالب لدى مؤلفي كتب التراجم من إشادة بالغة ببعض الشيوخ ونسبة الفضل الفائق إليهم ، ولعل كونه محدثاً جعله أقرب الى الواقع والموضوعية . ويمتاز الكتاب من جهة أخرى بأن مؤلفه اعتمد على نصوص تتسم بالقدم والاصالة وقد ضاع جانب كبير منها .

والمنهج الذي اتبعه الحميدي شديد الشبه بمنهج الخطيب البغدادي ، وأغلب الظن أنه حذا حذوه ونسج على منواله . فهو يبدأ كتابه بفصل قصره على الترجمة الولاة الذين حكموا الاندلس منذ الفتح وذلك على حسب تسلسلهم الزمني . فابتدأ بعبد الرحمن الداخل وأتبعه سائر أمراء بني أمية وخلفائهم . ثم انتقل في سائر الكتاب الى ذكر التراجم جاعلاً إياها على حروف المعجم . وآثر الحميدي أخيراً ان يبدأ أيضاً بأسماء المحمدين فالاحمدين ، ثم التزم النسق الألفبائي في ترتيب سائر تراجمه . وقد اجتمع له في كتابه زهاء الف ترجمة .

صدر « جذوة المقتبس » في مصر محققاً سنة ١٩٥٣ [١] .

---

(١) أصدرته دار الثقافة الاسلامية بالقاهرة ، وطبع بمطبعة السعادة . وهو بتحقيق محمد بن تاويت الطنجي . ويمتاز بضبطه واتقانه وبفهارسه المديدة القيمة ويقع في ٤٥٠ صفحة .

وفيات الأعيان

يعد ابو العباس احمد بن محمد .. بن خلكان احد اعلام القرن السابع الهجري ومن ابرز الذين صنفوا في حقل التراجم العامة ، وذلك في كتابه السائر : « وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان » .

وقد ابان ابن خلكان الصفة العامة لتراجمه في صدر كتابه إذ قال : « ولم اقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة من العلماء او الملوك او الشعراء ... بل كل من له شهرة بين الناس ويقع السؤال عنه ذكرته » .

وأدرك ابن خلكان مدى اتساع القاعدة التي تصدى لرصد أعلامها على صعيد الموضوع وصعيد الزمان معاً . فلم ير كبير جدوى في ذكر الأعلام كافة ، بل اكتفى بأثبات ما تدعو الحاجة اليه ، طلباً للتخفف في الكتاب . وهكذا أغفل تراجم معظم الصحابة والتابعين والخلفاء .. اكتفاء بالمصنفات الكثيرة في هذا الباب . وفي مقابل ذلك عُني في الوقت نفسه بذكر أعلام زمانه ممن عاصرهم ليطلع على حالهم من يأتي بعده . ونعم ما فعل .

ومع أن المؤلف حرص على الإيجاز كيلا يطول الكتاب فانه كثيراً ما كان يسهب في بعض تراجمه حتى تبلغ عشرين صفحة أو تزيد ، حيث يغلب

عليه ذكر التفصيلات التاريخية والاخبارية ، او إيراد الأشعار والأقوال المتصلة بصاحب الترجمة . وقد بلغ عدد من ترجم لهم ابن خلكان في كتابه ٨٢٦ ترجمة .

أما منهج ابن خلكان في كتابه فيبدو أنه كان أول الأمر يجنح فيه الى مبدأ السنين أي على حسب التوالي الزمني عبر العصور ، ولكنه عندما غزرت التراجم لديه واتسعت المادة بين يديه عدل عن ذلك وجنح إلى الترتيب الهجائي . وفي ذلك يقول خلال خطبة كتابه : « .. ورأيته على حروف المعجم أيسر منه على السنين ، فعدلت اليه والتزمت فيه تقديم من كان اول اسمه الهمزة ، ليكون أسهل للتناول ، وإن كان هذا يفضي إلى تأخير المتقدم وتقديم المتأخر وإدخال من ليس من الجنس بين المتجانسين » . وكان مدار المؤلف في ترتيب تراجمه يعتمد على حرف الاسم دون الكنية او اللقب ، شأنه في ذلك كشأن سائر الذين آثروا الترتيب المعجمي في مصنفاتهم .

ولعل ما يميز ابن خلكان من سائر الذين ألفوا في التراجم أنه عني في كتابه باثبات سنة الوفاة في كل ترجمة ، وسنة الولادة إن تيسر له ذلك . حتى إنه كان يعدل في غالب الأحيان عن الترجمة لأحد أعيانه إذا لم يقف على سنة وفاته . وقد يقول في بعض الناس عرضاً أو استطراداً : « ولم أظفر بوفاته حتى أفرد له ترجمة » . ثم يقرر أنه جعل مبنى كتابه على الوفيات وأسماه « وفيات الأعيان » .

وهكذا انطوى كتاب « وفيات الأعيان » على مزايا جمة أهلته لأن

يكون في طليعة كتب التراجم العامة ، غزارة علم ، وسداد منهج ، وقرب مأخذ .

وقد حظي الكتاب ، بفضل خصائصه هذه ، باهتمام الباحثين وحرصهم على نشره وتحقيقه ، اذ طبع حتى اليوم عدداً من المرات لا يقل عن سبع[1] .

---

(١) نشر وفيات الأعيان أول مرة في باريس عام ١٨٣٨ بعناية المستشرق « دوسلان » وهي طبعة حسنة وإن كان فيها بعض السقط .

ثم طبع في بولاق بمصر سنة ١٢٧٥ هـ ، ١٨٥٨ م بعناية الشيخ محمد عبد الرحمن العدوي . ثم تكررت طبعة بولاق هذه وبهامشها « الشقائق النعمانية » . ثم صدرت للكتاب طبعة أخرى سنة ١٣١٠ هـ ١٨٩٢ م . وكانت قبلها قد صدرت في مصر طبعة للكتاب سنة ١٢٩٩ هـ ، ١٨٨١ م بعناية الشيخ محمد النجار في ٣ أجزاء .

وبعد ذلك حظي الكتاب بطبعة جيدة ولكنها لم تتم ، وهي التي صدرت عن دار المأمون بعناية احمد يوسف نجاتي ، وبلغت حتى نهاية الحرف ظ ، أي نحو ربع الكتاب الذي صدر منه ٦ أجزاء فقط . وتمتاز هذه الطبعة الناقصة بالضبط الكامل والحرف الكبير والحواشي والتعليقات الوافية على غرار مثيلتها في « معجم الأدباء » .

ثم صدر وفيات الأعيان عام ١٩٤٨ في ٦ أجزاء بعناية محي الدين عبد الحميد. وهي طبعة مناسبة ذيلت بفهارس قيمة ، منها ما يتضمن دليلاً بالاسم الأشهر للأعيان الواردة في الكتاب تيسيراً للأمر على الناشد .

وفي عام ١٩٦٨ صدر في بيروت المجلد الأول من وفيات الأعيان بعناية احسان عباس ويعتمد اعتماداً كبيراً على الطبعة الأوربية الأولى . وقد نشر الدكتور علي جواد الطاهر الأستاذ بكلية الآداب بجامعة بغداد بحثاً نقدياً رصيناً حول طبعة احسان عباس ضمنه كثيراً من الملاحظات والمآخذ والتصويبات ، وذلك في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، انظر المجلد السادس والأربعين ، ج ١ ، ك ٢ ، ١٩٧١

أما في القديم فقد نال الكتاب حظوة لدى الكثيرين ، مما حفز بعضهم الى تدارسه ولحظ ما فيه من نقص . فقد تصدى ابن شاكر الكتبي ، وهو من رجال القرن الثامن ـ أي بعد نحو قرن من حياة سلفه ـ الى تدارك ما فات ابن خلكان في وفياته من ذكر التراجم ، وهو غير قليل ، فكان من ذلك كتابه « فوات الوفيات » الذي يعد بمثابة ذيل متمم لوفيات الأعيان . وهو ينطوي على ٤٨٣ ترجمة ، أي ما يزيد على نصف تراجم ابن خلكان(١) .

كما صنف صلاح الدين الصفدي ، وهو معاصر لابن شاكر الكتبي ، كتاباً يعد أيضاً بمثابة ملحق آخر لكتاب ابن خلكان . وقد أسماه « الوافي بالوفيات » .

كشف الظنون

مصطفى بن عبد الله عالم تركي ولد في استامبول عام ١٠١٧ هـ وقد غلب علية لقبه حاجي خليفة . وخليفة تطلق عند الترك على الوكيل أو المعاون ، وذلك اشارة الى منصبه في الدولة العثمانية . على أنه عرف بين العلماء بلقب كاتب جلبي أي الكاتب الفاضل او السابق ، وهذا اللقب يدل على مكانته في عالم التأليف . تعلم في صباه القرآن وكذلك التجويد والتفسير وفن الخط .

(١) صدر « فوات الوفيات » في مجلدين عام ١٩٥١ بعناية محي الدين عبد الحميد . وتراجمه في الغالب أوجز من مثيلاتها عند ابن خلكان .

وللحاج خليفة كتب عديدة ألفها بالعربية ولكن شهرته قامت على « كشف الظنون » . وقد بدأ بتأليف كتابه الكبير في حلب وأفاد كثيراً من خزائن كتبها ومكتباتها العامة ، واستغرق منه تأليف هذا الكتاب زهاء عشرين سنة . وفي رأينا ان وراء هذا الكتاب جهداً عظيماً تنوء به طاقة الفرد .

أسمى المؤلف كتابه « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » فهو كما ينم عليه عنوانه أشبه شيء بفهرست ابن النديم وفهرست ابن خير إلا أنه أوعب الكتب المؤلفة في هذا الموضوع وأغزرها مادة . وقد اجتمع فيه من أسماء الكتب ١٤٥٠٠ كتاب ، ومن المؤلفين ٩٥٠٠ مؤلف ، وتناول فيه نحواً من ٣٠٠ فن أو علم[١] .

يوضح الحاج خليفة المنهج الذي آثره في كتابه فيقول في خطبته : «ورتبته على الحروف المعجمية ، وراعيت في حروف الأسماء الى الثالث والرابع ترتيباً . فكل ما له اسم (من الكتب) ذكرته في محله مع مصنِّفه وتاريخه ومتعلقاته ووصفه تفصيلاً وتبويباً . وما ليس بعربي قيدته بأنه تركي أو فارسي او مترجم..» ثم يقول : « وأما أسماء العلوم فذكرتها باعتبار المضاف اليه فعلم الفقه مثلاً في الفاء ».

ويمكننا ان نجمل مزايا كشف الظنون فيما يلي :

١ ـ مصدر كبير في أسماء المؤلفين ومؤلفاتهم يعنى بجمع مادته الغزيرة

---

(١) ادركت المؤلف الوفاة قبل ان ينجز تبييض كتابه وكان قد بلغ مادة « دروس » فأكمل بعض تلامذته العمل .

في كثير من الاستقصاء والاستيعاب . فهو أشمل المصنفات في موضوعه.

٢ ـ يرصد كشف الظنون الجانب الأكبر من التراث العربي والنتاج الفكري في مختلف وجوهه خلال حقبة مديدة بلغت ألف عام .

٣ ـ حوى كشف الظنون عيون المصادر في الفكر الإسلامي مما صنفه أصحابه بالعربية والفارسية والتركية . وهذه ميزة انفرد بها وان يكن ابن النديم قد شاركه فيها الى حد معلوم .

٤ ـ الكتاب حسن التبويب ييسر بطريقته المعجمية على الباحث سبل الانتفاع منه . وهو كبير الفائدة في الكشف عن نسبة كثير من الكتب إلى أصحابها والتأكد من ذلك. إنه في اعتماده على مبدأ ترتيب الكتب والمصنفات على ذلك النسق يغدو فهرساً ضخماً شاملاً يعد خير متمم لكتب التراجم ويقدم أفضل عون للباحث .

وقد قدم الحاج خليفة لأصل كتابه الكبير بمقدمة مسهبة تناول فيها العلم وماهيته ومنزلته ونفعه ، ثم عرض لعلوم الأمم ثم علوم أهل الاسلام ، ثم الحاجة إلى التدوين والتأليف ، وما يتعلق من ذلك بالعلماء المصنفين ، وغير ذلك مما يدخل في فلك التأليف والتصنيف ..

وللكتاب عدد من الذيول والمختصرات أجلها شأناً كتاب :

ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ، ألفه إسماعيل باشا البغدادي ، وأمضى في تأليفه زهاء ثلاثين سنة ، ويبلغ في حجمه أكثر من نصف حجم الكتاب الأصلي وهو متمم له .

ويتألف « كشف الظنون » مع ذيله من ثلاثة مجلدات ضخام من القطع الكبير . وهذه طبعة استامبول التي صدرت بين عامي ١٩٤١ ـ ١٩٤٥ . وثمة طبعات أخرى لهذا الكتاب . وأفضلها إطلاقاً طبعة « لايبزيغ » التي دأب على نشرها المستشرق غوستاف فلوجل الذي نشر فهرست ابن النديم [١] .

الأعلام

خير الدين الزركلي شاعر كبير معاصر من دمشق استهواه التأليف في موضوع التراجم فدأب معظم عمره على العمل في كتاب « الأعلام » ، حتى استوى بين يديه مصدراً أساسياً في التراجم العامة ، فكان نتاج أربعين عاماً توّج الزركلي به كتب السلف .

والأعلام معجم شامل لتراجم أشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين

---

(١) تمتاز طبعة فلوجل النادرة بمقدمة قيمة باللاتينية والعربية ، وبتعليقات مسهبة وملاحق كثيرة ، وفهارس جيدة وافية . وقد استغرق هذا العمل منه ثلاثة وعشرين عاماً . وصدرت هذه الطبعة سنة ١٨٥٨ م في لا يبزيغ بألمانيا .

والمستشرقين . وقد توافر فيه من المزايا ما لم يتوافر لأي كتاب سبقه في موضوعه ، إذ أتيح في هذا العصر للمؤلف من وسائل الاتصال بالشخصيات والاطلاع على المكتبات وصور المخطوطات ما لم يكن متاحاً في سالف العصور. على أن الزركلي نفسه أفاد من عمله في السلك السياسي وندبه للمؤتمرات الدولية أجل فائدة . فقد أمضى شطراً من حياته مقيماً في دمشق وبيروت وعمان والقدس والقاهرة ، ثم تنقل بين استامبول وحلب وتونس والمغرب ، وقام بزيارة انجلترة وفرنسة والولايات المتحدة وايطاليا واليونان ووقف على الكثير مما احتوته مكتبات العالم من مصادر التراث العربي ، مما عاد بالفضل الكبير على مصنفه القيم. ونحن لا نملك أنفسنا من الإعجاب بمثل هذا العمل الدائب الذي ينوء به الفرد ، ويكفي للتدليل على ذلك بأن نذكر أن ثبت مراجعه استغرق وحده مئة صفحة .

ونجمل أهم الخصائص التي اتسم بها كتاب « الأعلام » :

١ ـ انه يترجم ـ كما يدل عنوانه ـ للأعلام ، أي للبارزين في كل علم وفن من شعراء وأدباء ومؤرخين وعلماء وفقهاء ، ومن سياسيين وقواد وملوك .

٢ ـ انه يترجم فضلاً عن ذلك لأهم المستعربين والمستشرقين وبخاصة من كانت لهم مشاركة في علوم العربية وآدابها أو عرفوا باهتمامهم بالتراث العربي الإسلامي .

٣ ـ انه حوى تراجم المعاصرين والمتأخرين من الأعلام مما لا تقع عليه

في كتاب آخر . ولم يدخل المؤلف في كتابه من المعاصرين إلا من أدركته الوفاة واستقرت بذلك ترجمته . ومثل هـذا المطلب شاق لأن مادته لا تتوفر في الكتب والمصنفات ، ولكن المؤلف استقاها من صلاته الدائبة بأعلامه الأحياء أو بمكاتبة ذويهم أو معارفهم ...

٤ ـ حرص الزركلي على أن يتوّج تراجمه بالكثير من صور الأعلام الذين تعرض لهم وبخاصة من المعاصرين ، وكان يعمد إلى إثبات نماذج من خطوط المؤلفين أو مسودات كتاباتهم وأشعارهم أو توقيعاتهم في القديم وفي الحديث كلما وجد إلى ذلك سبيلا . وقد بلغ عدد هذه النماذج (الكليشات) في كتابه ١٥٣٦ نموذجاً .

٥ ـ إنه التزم في تأريخ أعلامه إيراد سنتي المولد والوفاة جامعاً بين التقويمين الهجري والميلادي . وهذه مزية لم تتوفر في كتاب قبله .

٦ ـ توخى الزركلي في تراجمه الإيجاز والتركيز ولم يفسح المجال فيها لفضول القول مما نعهده لدى القدماء أحياناً ، فهو ينفي عن تراجم أعلامه كل ما يتصل بهم من أخبار وأشعار وما إلى ذلك. والترجمة لديه تعريف مركز لا يتجاوز أسطراً قليلة تتضمن مولد صاحبها ووفاته واسمه الكامل وأبرز ما اشتهر به وأهم مصنفاته . وهـذا المبدأ الذي توخاه المؤلف في التزام التركيز ونفي فضول القول عاد بالخير على كتابه ومكنه من استيعاب أكبر عدد ممكن من التراجم .

٧ ـ امتاز « الأعلام » بالحواشي القيمة التي ذيل بها الزركلي تراجمه ، فهي تكمل تراجمه الموجزة وتشير الى أهم المصادر التي يستطيع الباحث الرجوع إليها اذا رغب في المزيد . وكثيراً ما تفوق هذه الحواشي في قيمتها الترجمة نفسها المثبتة في المتن.

وقد رتب الزركلي مادته الغزيرة التي امتدت خلال بضعة عشر قرناً على حروف المعجم مما جعل الإفادة منه يسيرة المنال . وجعل الاسم الأول في العلم هو العمدة ، فالمتنبي مثلاً يستخرج في « أحمد بن الحسين » . إلا أن الزركلي توخى المزيد من التيسير على الباحث الناشيء الذي قد لا يعرف الاسم الأول للعلم لاشتهاره بكنيته أو لقبه من مثل أبي العلاء أو الجاحظ ، فهو ينظر عندئذ في « أبي العلاء » فيعطيه المؤلف اسمه : « احمد » ويرشده بذلك إلى موضع ترجمته من الكتاب . وكذلك بوسع الباحث أن يطلب « الجاحظ » في حرف الجيم وعندئذ يحيله المؤلف على موضعه الأصلي وهو حرف العين بعد أن يزوده باسمه وهو (عمرو بن بحر).

وقد ارتأى الزركلي بحق أن يغفل صدور الأعلام المبدوءة بـ (ابن ، أخو ، أبو) لكثرتها البالغة ، فأبو فراس في حرف الفاء وابن النديم في حرف النون . . الخ .

ويقع الأعلام في عشرة أجزاء ؛ [1] احتوى آخر جزء منها المستدرك

---

(١) صدر « الأعلام » في طبعته الأول سنة ١٩٢٧ وكانت مقتصرة على ثلاثة أجزاء.=

من اصل الكتاب ، وقد ختمه المؤلف بترجمة لنفسه . كما ينطوي هـذا الجزء الأخير في نهايته على ثبت بالمراجع وفهرس باللوحات التي تناثرت خلال صفحات الكتاب .

وخلال الأعوام في فترة ١٩٥٤ - ١٩٥٩ ظهر الكتاب في طبعته الجديدة المزيدة والتي استغرقت تراجمها عشرة أجزاء بحيث تضاعف عدد ما فيها من الأعلام بالنسبة الى الطبعة السابقة بفضل دأب المؤلف المستمر على إغناء كتابه وإغنائه . وقد أعيد نشر الأعلام مؤخراً في بيروت عام ١٩٧٠ ولكن بعد تجميع اللوحات في الجزء الأخير وحده أي العاشر .

معجم المؤلفين ★

الآمـــدي ٠٠٠ – ٣٧٠ هـ ٠٠٠ – ٩٨٠ م	: أبو القاسم ، الحسن بن بشر بن يحيى . أصله من آمـد . ولد في البصرة ونشأ بها . لغوي ونحوي وراوية للأخبار . عالم بالشعر ، وناقد أدبي بارز . له « الموازنة بين الطائيين » .
الأزهري ٢٨٢ – ٣٧٠ هـ ٨٩٥ – ٩٨٠ م	: أبو منصور ، محمد بن أحمد ، بن الأزهر الهروي ، أصـــله من هراة بخراسان . لغوي كبير ، متمكن في الفقه ، أسره القرامطة في البادية حيناً . له « التهذيب » في اللغة .
الأصبهاني ٢٨٤ – ٣٥٦ هـ ٨٩٧ – ٩٦٦ م	: أبو الفرج ، علي بن الحسين بن محمد الأمـوي القرشي . ولد في أصبهان . رحل الى بغداد ، ناثر بليغ وناقد ، واسع الثقافـة متعدد المواهب . له « الاغاني » .
الأصمعي ١٢٢ – ٢١٦ هـ ٧٣٩ – ٨٣١ م	: أبو سعيد ، عبد الملك بن قريب . . بن أصمع ، عالم بصري فـذ في اللغة وراوية قوي الحافظـة لانساب العرب وأيامها وأخبارهـا وأرجازها .
ابن الأعرابي ١٥٠ – ٢٣١ هـ ٧٦٧ – ٨٤٥ م	: أبو عبد الله ، محمد بن زياد . من أئمـة الكوفيين في اللغة والنحو والرواية . قـوي الحافظة متمكن في رواية الشعر وغريب اللغة . وهو تلميذ المفضل الضبي وأستاذ ثعلب .

★ لم ندخل في اعتبارنا في سبيل ترتيب الاعلام وجود كلمتي ابن وأبي اللتين تسبقان بعض الاسماء .

الاعلم الشنتمري : أبو الحجاج ، يوسف بن سليمان . عالم أندلسي في اللغة والأدب ، ولد
٤١٠ – ٤٧٦ هـ في سانتا ماريا ، شرح دواوين زهير وطرفة وعلقمة ، وشرح
١٠١٩ – ١٠٧٣ م ديوان الحماسة .

الانباري : أبو محمد ، القاسم بن محمد بن بشار . والأنباري نسبة الى مدينة
٠٠٠ – ٣٠٤ هـ الأنبار على الفرات قرب بغداد . محدّث جليل وعالم موثق في اللغة
٠٠٠ – ٩١٧ م والقراءات . كان يملي في ناحية من المسجد ويملي ابنه أبو بكر في ناحية أخرى .

ابن الانباري : أبو بكر ، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار . والأنباري والده
٢٧١ – ٣٢٨ هـ عالم جليل . فاق الابن أباه علماً وكان إماماً في اللغة والنحو
٨٨٤ – ٩٣٩ م والرواية والقراءات .

الأنباري : أبو البركات ، عبد الرحمن بن محمد من كبار علماء النحو في القرن
٥١٣ – ٥٧٧ هـ السادس . له « نزهة الألباء في طبقات الأدباء » و « الانصاف في
١١١٩ – ١١٨١ م مسائل الخلاف » بين الكوفيين والبصريين .

الانصاري : أبو زيد ، سعيد بن أوس بن ثابت . من أئمة البصريين في النحو
١١٩ – ٢١٥ هـ واللغة والرواية . في منزلة الأصمعي وأبي عبيدة . موثق في علمه
٧٣٧ – ٨٣٠ م وروايته . اخذ عن ابي عمرو بن العلاء .

البحتري : أبو عبادة ، الوليد بن عبيد . أحد فحول الشعر في العصر العباسي
٢٠٥ – ٢٨٤ هـ ولد في منبج قرب حلب ، ولزم المتوكل . ألف الحماسة على غرار
٨٢٠ – ٨٩٧ م حماسة أبي تمام .

ابن بسام : أبو الحسن ، علي بن بسام . نشأ في مدينة شنترين في غربي
٠٠٠ – ٥٤٢ هـ الأندلس . كاتب حسن الأسلوب ، ومؤلف جيد المنهج ووزير .
٠٠٠ – ١١٤٧ م له « الذخيرة » .

البصري : صدر الدين ، أبو الفرج بن الحسن البصري ، عاصر أواخر أيامه
٠٠٠ – ٦٥٩ هـ نكبة بغداد ، وقتل مع من قتل في حلب عندما داهمها التتر . له
٠٠٠ – ١٢٦٠ م مختارات « الحماسة » .

البستاني : بطرس بن بولس بن عبد الله . عالم واسع الاطلاع ومن اركان
١٢٣٤ – ١٣٠٠ هـ النهضة العربية الحديثة تعلم آداب اللغة العربية واللغات السريانية
١٨١٩ – ١٨٨٣ م والايطالية واللاتينية ثم العبرية واليونانية . من مترجمي التوراة عن
العبرية . أشهر آثاره « دائرة المعارف ، محيط المحيط » .

البستاني : عبد الله بن مخائيل بن ناصيف ، من ابرز لغويي العصر الحديث ،
١٢٧٦ – ١٣٤٨ هـ ومن اعضاء المجمع اللغوي بدمشق . صرف حياته في تعليم العربية
١٨٥٤ – ١٩٣٠ م بمدرستي الحكمة والبطريركية في بيروت . من أبرز آثاره معجم
« البستان » ومختصره « فاكهة البستان » .

الباخرزي : أبو القاسم ، علي بن الحسن . وباخرز من نواحي نيسابور في
٠٠٠ – ٤٦٧ هـ خراسان . أديب شاعر . زار بغداد . له ديوان شعر ، وكتاب
٠٠٠ – ١٠٧٤ م « دمية القصر » وهو بمثابة ذيل ليتيمة الدهر .

البارودي : محمود سامي بن حسن حسني . جركسي الأصل . ولد في القاهرة .
١٢٥٥ – ١٣٢٢ هـ وزير قائد . شاعر جزل . أول من نهض بالشعر من كبوته في
١٨٣٩ – ١٩٠٤ م فجر النهضة العربية الحديثة .

التبريزي : أبو زكريا . يحيى بن علي . تلميذ أبي العلاء المعري وعبد القاهر
٤٢١ – ٥٠٢ هـ الجرجاني . عاش في بغداد ، وبرع في اللغة والنحو . عني بالتأليف
١٠٣٠ – ١١٠٨ م وشرح كثيراً من الدواوين .

أبو تمام : حبيب بن أوس الطائي . ولد بقرية جاسم في حوران ببلاد الشام
١٩٨ – ٢٣١ هـ من شعراء الطبقة الأولى المجددين . اشتهر باختياره مجموعة الحماسة .
٨١٣ – ٨٤٥ م

ثعلب : أبو العباس ، أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني بالولاء . امام الكوفيين
٢٠٠ - ٢٩١ هـ في النحو واللغة والحديث . له « الفصيح » و « المجالس » .
٨١٥ - ٩٠٣ م

الثعالبي : أبو منصور ، عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري . أديب حسن
٣٥٠ - ٤٢٩ هـ الذوق ، متمكن في اللغة وأسرارها . له « يتيمة الدهر » ،
٩٦١ - ١٠٣٨ م « فقه اللغة وسر العربية » .

الجرجاني : أبو بكر ، عبد القاهر بن عبد الرحمن ، أصله من جرجان بين
٠٠٠ - ٤٧١ هـ طبرستان وخراسان . واضع أصول البلاغة . لغوي ناقد شاعر .
٠٠٠ - ١٠٧٨ م له « اسرار البلاغة » ، « دلائل الاعجاز » .

ابن جني : أبو الفتح ، عثمان بن جني . حذق النحو والتصريف واللغة ،
٣٢٨ - ٣٩٢ هـ والتحق ببلاط سيف الدولة ولزم المتنبي . مؤلفاته كثيرة تنم على
٩٣٩ - ١٠٠١م أصالة ، له « الخصائص » .

الجاحظ : أبو عثمان ، عمرو ، بن بحر . قمة في البيان والنثر الفني ، وإمام
١٥٩ - ٢٥٥ هـ في التأليف ، ورأس من فرقة المعتزلة . ترك نحواً من ٣٦٠
٧٧٥ - ٨٦٨ م كتاباً .

الجوهري : أبو نصر ، اسماعيل بن حماد . أصله من بلاد الترك من فاراب
٣٣٢ - ٤٠٠ هـ متقد الذكاء ، إمام في اللغة ، حسن الخط . ألف « الصحاح »
٩٤٣ - ١٠٠٩م في نيسابور .

الحصري : أبو إسحق ، ابراهيم بن علي الحصري القيرواني . نشأ في مدينة
٠٠٠ - ٤٥٣ هـ القيروان بالمغرب . مؤلف ، ناثر بليغ يتأنق في عبارته . له « زهر
٠٠٠ - ١٠٦١م الآداب » .

الحظيري : أبو المعالي ، سعد بن علي القاسم . نشأ في بغداد وعمل في
٠٠٠ - ٥٦٨ هـ الوراقة . أديب شاعر . له « زينة الدهر في لطائف شعراء العصر »
٠٠٠ - ١١٧٢م ذيّل به دمية القصر للباخرزي .

حماد الراوية
٩٥ - ١٦٧ هـ
٧١٣ - ٧٨٣ م
: أبو القاسم ، حماد بن ميسرة . ولد بالكوفة من أصل ديلمي . عالم بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها . أول من لقب بالراوية .

الحميدي
٤٢٠ - ٤٨٨ هـ
١٠٢٩ - ١٠٩٥ م
: أبو عبد الله ، محمد بن فتوح . من أكبر مؤرخي الأندلس . عالم في الفقه والحديث . أخذ عن ابن حزم . ورحل الى المشرق واستقر مقامه في بغداد .

حاج خليفة
١٠١٧ - ١٠٦٧ هـ
١٦٠٨ - ١٦٥٦ م
: مصطفى بن عبد الله . عالم تركي جليل . ولد في استامبول ، حفظ القرآن وجوده ، برع في التأليف وكان حسن الخط . مجيد للعربية والتركية والفارسية .

الخطيب البغدادي
٣٩٢ - ٤٦٣ هـ
١٠٠١ - ١٠٧٠ م
: أبو بكر ، أحمد بن علي . ولد في غُزَيَّة بين الكوفة ومكة . نشأ في بغداد وتنقل بين الحجاز والشام . حافظ للقرآن والحديث، مؤرخ ، أديب ، مؤلف .

خلف الاحمر
٠٠٠ - ١٨٠ هـ
٠٠٠ - ٧٩٦ م
: أبو محرز ، خلف بن حيان . من علماء البصرة في اللغة والنحو ورواية الشعر القديم . وصم بوضع الشعر ونسبته الى القدماء . من تلاميذه الأصمعي وابن سلام وأبو نواس .

ابن خلكان
٦٠٨ - ٦٨١ هـ
١٢١١ - ١٢٨٢ م
: أبو العباس ، احمد بن محمد . مؤرخ حجة وأديب ماهر ، ولد في إربل بالقرب من الموصل على شاطىء دجلة الشرقي ثم انتقل الى دمشق حيث تولى قضاء الشام ، ومارس التدريس ، حتى توفي ودفن في سفح قاسيون .

الخليل
١٠٠ - ١٧٥ هـ
٧١٨ - ٧٨٦ م
: أبو عبد الرحمن ، الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي الازدي . في مقدمة رواد العربية ، إمام البصريين في اللغة والنحو ، واضع علم العروض ، وصانع أول معجم في العربية .

ابن خير
٥٠٢ - ٥٧٥ هـ
١١٠٨ - ١١٧٩ م
: أبو بكر ، محمد بن خير بن عمر بن خليفة . ولد في اشبيلية وتنقل في سائر مدن الاندلس . لازم شيوخ العلم ، وعرف بسعة اطلاعه . له « الفهرست » .

ابن دريد : أبو بكر ، محمد بن الحسن . عالم جليل في اللغة ومن أئمة البصريين .
٢٢٣ – ٣٢١ هـ عرف برقة شعره ، قيل أنه « اشعر العلماء وأعلم الشعراء » من
٨٣٧ – ٩٣٣ م تلاميذه : الاصفهاني والقالي والسيرافي وابن خالويه . له « الاشتقاق».
و « اللاحن » و « الجمهرة » .

الرازي : زين الدين ، محمد بن أبي بكر . أصله من الري . فقيه ، لغوي .
٠٠٠ – ٦٦٦ هـ له « شرح المقامات الحريرية » و « مختار الصحاح » .
٠٠٠ – ١٢٦٧ م

ابن خالويه : أبو عبد الله ، الحسين بن أحمد بن خالويه . أصله من همذان ،
٠٠٠ – ٣٧٠ هـ رحل إلى بغداد ثم التحق ببلاط سيف الدولة في حلب . وكان
٠٠٠ – ٩٨٠ م بينه وبين المتنبي عداوة . يعد من كبار رجال اللغة والنحو ، وهو
الذي جمع ديوان أبي فراس .

الزبيدي : أبو بكر ، محمد بن الحسن . تلميذ القالي ، عالم كبير في اللغة والأدب ،
٣١٧ – ٣٧٩ هـ وشاعر ذاع شأنه في اشبيلية ، ثم دعاه « الحكم » الى قرطبة .
٩٢٨ – ٩٨٩ م له « مختصر كتاب العين » .

الزَّبيدي : أبو الفيض ، محمد بن عبد الرزاق الشهير بمرتضى الحسيني . ولد
١١٤٥ – ١٢٠٥ هـ في بلدة وراء نهر الغانج بالهند ، ثم رحل الى اليمن وأقام في بلدة
١٧٣٢ – ١٧٩٠ م زبيد ، حيث الف « تاج العروس » واستقر به المقام في مصر .

الزجَّاج : أبو اسحق ابراهيم بن السري . ولد في بغداد . وعمل في صناعة
٢٤١ – ٣١١ هـ الزجاج . لغوي نحوي على مذهب البصريين تلمذ على المبرد . له
٨٥٥ – ٩٢٣ م « معاني القرآن » ، « الاشتقاق » ، « فعلت وأفعلت » .

الزركلي : خير الدين بن محمود . ولد في بيروت من أبوين دمشقيين . شاعر
١٣١٠ هـ – مجيد وكاتب . له « ديوان شعر » ، و « عامان في عمان »
١٨٩٣ م – و« ما رأيت وما سمعت » و « الاعلام » .

الزمخشري : أبو القاسم ، محمود بن عمر الملقب بجار الله . ولد في زمخشر من قرى خوارزم . عالم فذ متعدد المواهب . له « الكشاف » في التفسير و « المفصل » في النحو ، و « الفائق » في غريب الحديث ، و « أساس البلاغة » في اللغة . وكلها مطبوعة .

٤٦٧ – ٥٣٨ هـ
١٠٧٤ – ١١٤٣ م

السكري : أبو سعيد ، الحسن بن الحسين عالم في اللغة والنحو ، وراوية للشعر . عني بصناعة دواوين الشعراء وأشعار القبائل .

٢١٢ – ٢٧٥ هـ
٨٢٧ – ٨٨٨ م

ابن السكيت : أبو يوسف ، يعقوب بن اسحق . يقال إن أباه كان كثير السكوت أخذ عن أبي عمرو الشيباني والفراء وابن الأعرابي . له « الألفاظ » و « الأضداد » .

١٨٦ – ٢٤٤ هـ
٨٠٢ – ٨٥٨ م

ابن سلام : أبو عبد الله ، محمد بن سلام الجمحي . ولد بالبصرة وعاش في بغداد عاصر الأصمعي والمفضل وتتلمذ عليهما . لغوي كبير وناقد حسن الذوق .

١٣٩ – ٢٣٢ هـ
٧٥٦ – ٨٤٦ م

سيبويه : أبو بشر ، عمرو بن عثمان ، لقبه سيبويه يعني بالفارسية رائحة التفاح . نشأ في البصره وأخذ النحو عن الخليل واللغة عن الأخفش الأكبر ولازم أبا زيد الانصاري . وهو رأس النحاة ، وضع مؤلفه الأشهر « الكتاب » .

١٤٨ – ١٨٠ هـ
٧٦٥ – ٧٩٦ م

ابن سيده : أبو الحسن ، علي بن اسماعيل . كان ضريراً . لغوي أندلسي كبير . له « المخصص » و « المحكم والمحيط الأعظم » في اللغة .

٣٩٨ – ٤٥٨ هـ
١٠٠٧ – ١٠٦٥ م

السيرافي : أبو سعيد ، الحسن بن عبد الله . ولد بسيراف في فارس . رحل الى بغداد . برع في اللغة والنحو على مذهب البصريين له « شرح كتاب سيبويه » .

٢٠٠ – ٢٦٨ هـ
٨١٥ – ٨٨١ م

السيوطي : جلال الدين ، عبد الرحمن بن أبي بكر . ولد في اسيوط بمصر .
٨٠٩ – ٩١١ هـ عالم فذ متنوع الجوانب ، عرف بغزارة انتاجه وبلغت مؤلفاته نحو
١٤٢٥ – ١٥٠٥ م ٥٠٠ كتاب . له « المزهر » في اللغة .

ابن الشجري : ابو السعادات ، هبـــة الله بن علي . من ابرز النحاة والأدباء في
٤٥٠ – ٥٤٢ هـ عصره . كان نقيب الطالبيين . ولد في قرية شـــجرة من اعمال
١٠٥٨ – ١١٤٧ م المدينة ، او في بغداد . له « الأمالي » في النحو .

الشرتوني : سعيد بن عبد الله .. ابن الخوري ، من قرية شـــرتون بلبنان .
١٢٦٥ – ١٣٣٠ هـ عكف على تدريس العربية في مدرسة اليسوعيين في بيروت . آثاره
١٨٤٩ – ١٩١٢ م عديدة في اللغة والنحو ، وأجلها شأناً معجمه « أقرب الموارد » .

الشريف المرتضى : أبو القاسم ، علي بن الحسين نقيب الطالبيـين . شاعر ، وعالم في
٣٥٥ – ٤٣٦ هـ الكلام والفقه والأدب واللغة . أخوه الشريف الرضي . له « الأمالي »
٩٦٦ – ١٠٤٤ م وديوان شعره .

الشيباني : أبو عمرو ، اسحق بن مرار . شيباني بالولاء . في طليعـة علمـاء
٩٤ – ٢٠٥ هـ الكوفة . قصد الى بغداد . وبرع في اللغـــة ورواية الشعر . له
٧١٣ – ٨٢٠ م « الجيم » في اللغة و « النوادر » .

الصولي : أبو بكر ، محمد بن يحيى بن عبد الله . ولد في بغداد . كاتب أديب
... – ٣٣٥ هـ عالم بالتفسير والحديث والكلام والشعر . أخـذ عن ثعلب والمبرد .
... – ٩٤٦ م له « الأوراق » و « أخبار أبي تمام » و « أدب الكتاب » .

ابن عبد ربه : أبو عمر ، أحمـد بن محمد بن عبـد ربه . نشأ في قرطبة . أديب
٢٤٦ – ٣٢٧ هـ شاعر حسن الثقافة . اهتم بالعروض والموسيقي والتاريخ والأدب .
٨٦٠ – ٩٣٨ م وعاصر في كهولته الخليفة الأندلسي الناصر .

أبو عبيدة : معمر بن المثنى . في مقدمة العلماء الرواد في البصرة . عاصر الخليل
١١٠ – ٢٠٩ هـ وأبا زيد الأنصاري . واسع الاطلاع على أخبار العرب وأيامهم .
٧٢٨ – ٨٢٤ م كان شعوبياً يكيد للعرب .

العسكري : أبو هلال ، الحسن بن عبد الله . ولد في عسكر مكرم . عالم في
٠٠٠ – ٣٩٥ هـ الأدب والنقد والبلاغة والشعر واللغة . له « سر الصناعتين »
٠٠٠ – ١٠٠٤ م و « جمهرة الأمثال » .

العكبري : أبو البقاء ، عبد الله بن الحسين . ولد في بلدة عكبرة على الدجلة .
٥٣٨ – ٦١٦ هـ لغوي ونحوي ، له « شرح ديوان المتنبي » ، « إملاء ما منّ به
١١٤٣ – ١٢١٩ م الرحمن من اعراب القرآن » .

ابن العلاء : أبو عمرو ، زبّان بن العلاء . أحد القراء السبعة . من الأئمة
٦٥ – ١٥٤ هـ الرواد في البصرة . أستاذ الخليل والأصمعي وأبي عبيدة . راوية
٦٨٤ – ٧٧٠ م كبير لأخبار العرب وأيامهم وأشعارهم .

العماد الاصفهاني : عماد الدين محمد بن محمد . ولد في أصبهان . أديب وكاتب بليغ
٥١٩ – ٥٩٧ هـ الأسلوب ومؤرخ وشاعر . اتصل بنور الدين وصلاح الدين . توفي
١١٢٥ – ١٢٠٠ م في دمشق . له « خريدة القصر وجريدة العصر » .

عيسى بن عمر : أبو سليمان ، ثقفي بالولاء . من أئمة اللغة . وهو شيخ أبي عمرو
٠٠٠ – ١٤٩ هـ ابن العلاء والخليل وسيبويه ، وأول من هذب النحو ورتبه . ويعد
٠٠٠ – ٧٦٦ م رأس البصريين كان ذا تقعر في كلامه مكثراً من استعمال الغريب
ضاع أكثر كتبه واحترق ولم يبق لنا منها شيء .

الفراء : أبو زكريا ، يحيى بن زياد . من أصل ديلمي ومولى بني أسد .
١٤٤ – ٢٠٧ هـ ولد بالكوفة . تلميذ الكسائي ، من أعلم الكوفيين في النحو واللغة
٧٦١ – ٨٢٢ م وأخبار العرب . له « معاني القرآن » و « المنقوص والممدود » .

ابن فارس : أبو الحسين ، أحمد بن فارس الرازي نسبة الى الري في العراق من
٣٢٩ – ٣٩٥ هـ تلاميذه بديع الزمان والصاحب بن عباد . إمام في اللغة . له معجم
٩٤٠ – ١٠٠٤ م « مقاييس اللغة » و « المجمل » و « الصاحبي في فقه اللغة » .

الفيروز آبادي : أبو طاهر مجد الدين ، محمد بن يعقوب ، ولد في قرية قرب شيراز .

٧٢٩ – ٨١٧ هـ
١٣٢٨ – ١٤١٤ م
من أشهر علماء اللغة . عاصر تيمورلنك ونال عطاءه . له « القاموس المحيط » .

ابن قتيبة
٢١٣ – ٢٧٦ هـ
٨٢٨ – ٨٨٩ م
: أبو محمد ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري . عالم أديب ، متعدد الجوانب ألف في علوم القرآن والحديث والأدب والنقد ، واللغة . له « أدب الكاتب » ، « الشعر والشعراء » ، « عيون الأخبار » .

قدامة بن جعفر
٠٠٠ – ٣٣٧ هـ
٠٠٠ – ٩٤٨ م
: أبو الفرج ، كاتب ، ناقد ، عالم في المنطق والفلسفة واللغة والشعر . له « جواهر الألفاظ » و « نقد الشعر » وينسب اليه « نقد النثر » .

القرشي
٠٠٠ – ٢٣٠ هـ ؟
٠٠٠ – ٨٤٤ م
: أبو زيد ، محمد بن أبي الخطاب ، من رجال القرن الثالث ولا نعرف الكثير عن حياته لأن كتب التراجم لم تترجم له . عرف بكتابه « جمهرة اشعار العرب » .

قطرب
٠٠٠ – ٢٠٦ هـ
٠٠٠ – ٨٢١ م
: أبو علي ، محمد بن المستنير . تلميذ سيبويه . عالم بصري في اللغة والنحو . له « المثلثات » في اللغة ، « النوادر » ، « الأضداد » . وهو من جيل الاصمعي وأبي زيد .

القفطي
٥٦٨ – ٦٤٦ هـ
١١٧٢ – ١٢٤٨ م
: جمال الدين أبو الحسن ، علي بن يوسف . ولد في بلدة قفط في صعيد مصر . عاصر صلاح الدين والقاضي الفاضل استقر به المقام في حلب حيث ولي الوزارة مرات . وقد اتصل به ياقوت وأذاع فضله . مات في حلب .

القلقشندي
٧٥٦ – ٨٢١ هـ
١٣٥٥ – ١٤١٨ م
: أبو العباس ، أحمد بن علي . ولد في قلقشندة بمصر . عالم في الفقه ، وكاتب بليغ يؤثر التصنيع في نثره . ترأس ديوان الانشاء في مصر .

القالي
٢٨٨ – ٣٥٦ هـ
٩٠٠ – ٩٦٦ م
: أبو علي ، اسماعيل بن القاسم . ولد في مناز جرد في أرمينية ، وقصد الى بغداد وتتلمذ على ابن دريد وأبي بكر بن الأنباري ثم رحل الى الأندلس . له « البارع » في اللغة و « الأمالي » .

اللغوي : أبو الطيب ، عبد الواحد بن علي . ولد في عسكر مكرم في
٠٠٠ - ٣٥١ هـ نواحي خوزستان ثم قصد بغداد فبلاط سيف الدولة . قتله جند
٠٠٠ - ٩٦٢ م الدمستق حين استباح الروم حلب . له « شجر الدر » و « الاتباع » و « الابدال » .

المبرد : أبو العباس ، محمد بن يزيد . ولد في البصرة ، ثم رحل الى بغداد
٢١٠ - ٢٨٥ هـ وصار إمام المذهب البصري في النحو واللغة . كان متمكناً في
٨٢٥ - ٨٩٨ م الأدب والأخبار . له « المقتضب » في النحو .

ابن المثنى : أبو عبيدة ، معمر بن المثنى ، التيمي ولاء ، من أئمة الرواية
١١٠ - ٢٠٩ هـ والأدب وأخبار العرب في البصرة ، عرف بغزارة مؤلفاته . استقدمه
٧٢٨ - ٨٢٤ م الرشيد . كان شعوبياً يحقد على العرب .

المرزباني : أبو عبيد الله ، محمد بن عمران . أصله خراساني وأحد أجداده
٢٩٧ - ٣٨٤ هـ يدعى « المرزبان » أي السيد الجليل القدر . ولد ببغداد كان
٩٠٩ - ٩٩٤ م علاّمة وراوية للأدب والأخبار . له « الموشح » و « معجم الشعراء » .

المرزوقي : أبو علي ، أحمد بن محمد . ولد في أصبهان . تتلمذ على أبي علي
٠٠٠ - ٤٢١ هـ الفارسي . لغوي ونحوي وناثر وناقد . له « شرح حماسة أبي تمام »
٠٠٠ - ١٠١٠ م « شرح المفضليات » ، « شرح أشعار هذيل » ، « الأمالي » .

المفضل الضبي : المفضل بن محمد بن يعلى الكوفي . علاّمة لغوي راوية للأخبار
١١٠ - ١٧٨ هـ والآداب وأيام العرب موثق في روايته . عرف باختياره الرائد
٧٢٨ - ٧٩٤ م للشعر القديم « المفضليات » .

المقري : أحمد بن محمد . ولد بتلمسان في الجزائر . ثم ترحل الى فاس ثم
٩٩٢ - ١٠٤١ هـ قصد الى الحج وزار القدس ودمشق واستقر في مصر ، ودرّس
١٥٨٤ - ١٦٣١ م بالأزهر . من أبرز رجال السلف الصالح المتأخرين .

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين ، محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري .
٦٣٠ - ٧١١ هـ ولد بمصر وخدم في ديوان الانشاء . له « مختار الأغاني » و « لسان
١٢٣٢ - ١٣١١ م العرب » .

ابن النديم : أبو الفرج ، محمد بن اسحق ، عاش في بغداد . وعمل في الوراقة.
٠٠٠ – ٤٣٨ هـ نسب اليـــه التشيع والاعتزال . تتلمذ على أبي الفرج الاصبهاني .
٠٠٠ – ١٠٤٦ م واشتهر بـ « الفهرست » .

نصر بن عاصم : نصر بن عاصم الليثي ، فقيـــه عالم بالعربية من فقـــهاء التابعين .
٠٠٠ – ٨٩ هـ وكل اليه الحجاج إعجام الحروف فيزها بالتنقيط الذي نعرفه حتى
٠٠٠ – ٧٠٧ م اليوم . توفي في البصرة .

النضر بن شميل : أبو الحسن . ولد بالبصرة ثم رحل الى خراسان وتوفي في مرو .
٠٠٠ – ٢٠٤ هـ أخـذ عن الخليل وفصحاء العرب . كان نحويا ولغويـــاً وراوية
٠٠٠ – ٨١٩ م للحديث وأيام العرب . له « الابل » ، « خلق الانسان » .

النويري : شهاب الدين ، أحمد بن عبد الوهاب . ولد بأخميم في مصر واشترك
٦٧٧ – ٧٣٣ هـ في حروب المماليك ، وعاصر السلطان الناصر محمـد بن قلاوون .
١٢٧٨ – ١٣٣٢ م ويعد مؤرخاً فضلاً عن كونه أديباً .

ياقوت : أبو عبد الله ، ياقوت بن عبد الله . مولى رومي الأصل ، بغدادي
٥٧٤ – ٦٢٦ هـ الدار . عرف بذكائـه . استقر به المقام في حلب . له « معجـم
١١٧٨ – ١٢٢٧ م الأدباء ، معجم البلدان » .

يونس : أبو عبـد الرحمن ، يونس بن حبيب ، وحبيب اسم أمـه . نحوي
٩٧ – ١٨٥ هـ كبـير ولغوي وراوية . له « معاني القرآن ، النوادر » . ويعـد
٧١٥ – ٨٠١ م من الرواد في جيل الخليل وحماد والمفضل ..

المحتوى

الفصل الثاني : كتب الأدب

الفصل الثالث : كتب اللغة

الفصل الرابع : المعاجم

الفصل الخامس : كتب التراجم